أدم الجديدة

رواية اجتماعية عصرية

تصور للقارىء مصارع الحق والقوة

في الهيئة الاجتماعية الحاضرة

تأليف

نقولا الحداد

مؤلف روايات « حواء الجديدة » و« الصديق المجهول »

و « الحقيبة الزرقاء » وغيرها من الروايات

obeikandl.com

obeikandl.com

اهداء الرواية

الى الفقيد العزيز مؤسس الهلال

يا غائب الصورة وحاضر الخبر

ويا فاني المادة وخالد الاثر

أمام خبرك واثرك المجيدين ينحني كاتب هذه السطور احتراماً وتوقيراً

أبيت الا ان تستريح الراحة الخالدة بعد ان طرحت من يدك الريشة التي كملت بها تصوير مدنية العوالم الشرقية في جميع ادوارها حتى اذا تناول تلك الريشة احد بعدك فلا يجد مكان قطرة منها في تلك الصورة الجميلة

وما تركت الهلال المنير الا وقد ربيت له رساماً يرسم فيه صوراً جديدة للمدنيات الغابرة والحاضرة . ولكنك تركت في آخره فراغاً لايدري احد سواك كيف يملأه

كنت تملأ ذلك الحيز بصورة الماضي فاذا كنت تأذن لصديق وفيّ ان يملأه بعدك فاقبل منه هذه الصورة من صور الحاضر . فان رسوم الفضائل التي فيها منسوخة عما اتصفت وعلمت . ورسوم الرذائل عما ترفعت وحذّرت

نقولا الحداد

مقدمة

صراع الحق والقدرة

في الهيئة الاجتماعية قوتان تتصارعان — الحق والقدرة . كلاهما قوي

الحق يريد الانصاف ليرضي الضمير

القدرة تريد الاثرة لتشبع الطمع

الحق يبتغي ان تكون الشريعة فوق الانسان

القدرة تبتغي ان يكون الانسان فوق الشريعة

فهو يسلح الضعيف بالقانون ليرد القوي عنه

وهي تقيد الضعيف بالقانون ليستحكم القوي منه

الحق ينمي الطبيعة الملكية في الانسان

والقدرة تنمي الطبيعة البهيمية فيه

فهو يحول الذئب الى انسان

وهي تحول الانسان الى ذئب

الحق يبني ارتقاء الجماعات كلها معاً على مستوى واحد

والقدرة تهدم جماعة لتبني بانقاضها جماعة أخرى

هذه الرواية مصرع يتصارع فيه آدمان — آدم الحق وآدم القدرة — والقارىء شاهد عيان . وضميره حكم . والتاريخ يدله على اي المصارعين فائز أخيراً

نقولا الحداد

obeikandl.com

آدم الجديد

الفصل الاول

مصادفات قاهرة

في الساعة الاولى بعد الظهر كانت اربع فتيات يتراكضن في ميدان « العتبة الخضراء » بمصر لكي يدركن ترام العباسية . فادركنه وهو يكاد يتحرك ودخلن الى المقعد الاخير منه وكان جالساً عليه فتى فاصبحن معه خمسة انفار على مقعد واحد

على أن الفتى قلّص جنبيه والفتيات تحاشدن جهد طاقتهن حتى وسعهن المكان . وكانت الاخيرة منهن اجهدهن في التقلص لكيلا تحتك بالفتى . ولكن ما بلغ القطار جانب حديقة الازبكية حتى لم تعد الفتاة تطيق تقلصاً فالتفتت الى الفتى وخاطبته بالافرنسية متلجلجة متوردة الوجنتين : — هل تتفضل بان تنتقل الى المقعد الثاني لاننا اصبحنا هنا خمسة انفار ؟

— عفواً مولاتي . هل كنتن تجهلن عددكن قبل ان ركبتن القطار ؟

— لم نكن نجهله ولكن بوق الكمساري لم يمهلنا حتى نختير مقعداً واحداً لنا جميعاً فاحتشدنا هنا على امل ان يتفضل خامسنا من نفسه باخلاء المكان

— لماذا أكون يا سيدتي الخامس الذي يخلي المكان مع اني لست دخيلاً عليكن ؟

فامتقع وجه الفتاة دلالة على امتزاج الخجل بالغضب وقالت: — عفواً يا سيدي لولا ظني بانك كنت غافلاً عن ضيق المحل علينا ما نبهتك اليه فاعذر فضولي

فازمهر وجه الفتى وقال : — لولا انه يصعب عليّ جدًّا يا سيدتي ان تلقي عليّ درساً في « فن آداب الترام » ما كنت أتردد في اخلاء محلي لكن . . .

وهنا انتهى الجدال . فالفتاة تبرمت واعرضت عنه الى رفيقاتها . والفتى غلا تغيظاً من هذه الخاتمة السيئة . وبعد هنيهة توقف الترام في المحطة الاولى من شارع كاوت بك ولكن ما تحرك ثانية حتى انسل الفتى من تحت العارضة الحديدية التي تمنع الصعود والنزول من ايسر المركبة . واتفق حينذاك ان قطاراً قادماً داهمه وهو منسل . وكانت الفتيات ينظرن اليه وهو يخرج . فجزعن عليه وصرخن مستغيثات بيد انه توارى عن

ابصارهن حالاً اذ اندفع قطارهنّ في سبيله تاركاً الفتى تحت رحمة القطار الآخر وهن لا يدرين كيف انتهى أمره . وبعد هنيهة قالت احداهن للفتاة الاولى التي كانت تناقشه — اظنك خاشنته يا ليلى

فلم تجب ليلى بل كانت مفكرة مضطربة الداخل

* * *

أما الفتى فما ان رأى القطار الاخر يداهمه حتى انعطف وراء القطار الذي كان فيه ونجا

وما هي الا دقيقة حتى رأى قطاراً آخر من قطرات العباسية فاستأنف مسيره فيه وهو يفكر فيما حدث بينه وبين الفتاة ويراجع الحديث الذي جرى ويزنه ليعلم هل كان ملوماً . فلم يجد بحسب اعتقاده ما يبرّر مناقشة الفتاة له . فقال في نفسه : — يلوح لي ان المرأة الشرقية متى كانت تتكلم لغة اجنبية تعتقد ان ما تفعله يجب ان يكون قاعدة وما تقوله شريعة وما تريده حقاً وان الرجل يجب ان يكون لديها بلا ارادة ولا حرية ولا حق

وما زالت هذه الافكار وامثالها تحوم في ضميره وهو لاهٍ عن كل ما يمر به الى ان نبهه الكمساري قائلاً : — هنا « حي الظاهر » الذي تريد النزول فيه

فاسرع الفتى ونزل من القطار وأخذ من جيبه بطاقة وقرأ ما فيها ثم تقدم الى أول عطفة عن اليسار ونظر الى اسم الشارع وقال : هذا هو الشارع بعينه

وما ان مشى فيه قليلاً حتى رأى فتاة قد ظهرت من شارع آخر مقاطع ومشت في نفس الشارع الذي كان يمشي فيه وهي على بعد عشرين خطوة منه فاشتبه بها ورجح انها هي الفتاة التي كان يناقشها في الترام . وجعل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . وما دقق النظر في ثوبها وبرنيطتها حتى لم يبق عنده شك بانها هي الفتاة بعينها . وتراءى له انها رأته وتيقن انها اعتقدت بانه لم يوجد هناك صدفة بل عمداً كأنه يتبعها . فكبر عليه هذا الامر وقال في نفسه : — يجب ان أختفي من هذا المكان لكي تغير هذه الفتاة المتعجرفة ظنها بي وتعتقد اني لست متتبعاً لها وانها لم تخطر لي على بال

وأسرع لكي ينعطف الى الشارع الآخر المقاطع الذي بدت منه ولكن قبل ان يصل اليه رآها تدخل في باب وتراءى له انها رأته يسرع نحوه . فلعن الصدفة قائلا : — لقد وقع ما كنت أتحاشاه وصارت الفتاة تظن اني مفتون بها في حين اني اكره ان أراها ولما لم تصح خطته في تحاشيها تقدم في سبيله وهو ينظر الى الارقام التي على المنازل

الى ان وجد الرقم الذي يقصد اليه على نفس الباب الذي دخلت فيه الفتاة . فقال في نفسه ساخطاً : — يالله ما بال التقادير تسوقني الى حيث تكون هذه الفتاة الثقيلة !

وفيما هو يتردد بين ان يدخل الى المنزل الذي يقصد اليه او ان يعود ادراجه أقبل عليه فتى فتبادلا النظرات وسبقه الفتى بالكلام قائلاً : — ما اظنني غلطاناً . المسيو . . .

— . . . يوسف برّاق يا مسيو مراني

— أهلاً وسهلاً . لم تضلّ عن منزل صديقك . فتفضل تدخل

فابتسم يوسف قائلا : — من تزوده يامسيو نجيب بهذه المنارة (مشيراً الى البطاقة) التي تفضلت عليّ بها في باريس فلا يضلّ

الفصل الثاني

حرب في قلب

بعد قليل كان يوسف برّاق في قاعة فاخرة الرياش انيقة الترتيب تدل على جمال الذوق المتناهي . فقال في نفسه : —

لا اظن هذا المنزل المشتمل على هذا الذوق الجميل يشتمل ايضاً على تلك الفتاة في وقت واحد فلا بد ان تكون الفتاة ساكنة او زائرة في طبقة اخرى من طبقات هذه البناية

وبعد ان رحب نجيب المرّاني بضيفه ترحاب العربي الكريم قال له : — متى قدمت من اوروبا

— اول امس

— أهلا وسهلاً . عسى ان تستطيب الاقامة في مصر

— اقول لك الحق ايها العزيز ان طيب الاقامة فيها يتوقف على التوفق في الشغل

— لا اظنك استطعت ان تبحث عن شغل حتى الان

— بحثت بعض البحث بناء على نصح رفيق رافقته من الاسكندرية الى هنا فارشدني الى بعض البنوك والشركات فذهبت الى بعضها وسألت عن وظائف خالية فلم اجد

— هل قصدت الى البنك الاميركاني ؟

— قصدت اليه فقيل لي ان لا وظيفة خالية فيه

فضحك نجيب وقال : — وانا اعلم ان هذا البنك يحتاج الى بعض المستخدمين لانه

جديد . ولعل اكثر الدوائر التي قصدت اليها تحتاج الى قليل مستخدمين . ولكن الذين تسألهم لا يقرون بالوظائف الخالية لان عندهم من ذويهم طلاباً لها . هل قدمت «طلباً» الى هذا البنك ؟

— « طلباً » خطياً ؟ لا . بل تقدمت بنفسي

— لقد اخطأت . لانك لم تقدم نفسك الا للاشخاص الذين يقفلون الباب في وجه كل طالب من غير ذويهم . ورأيي ان تكتب « طلباً » تبسط فيه اهليتك وتشفعه بنسخ من الشهادات التي معك . ثم تدفعه بنفسك وتطلب مقابلة مدير البنك وتلتمس منه ان يمتحنك

— وماذا الامتحان بعد ان يطلع المدير على طلبي وشهادتي ؟

— لا بد من الامتحان والوساطة أيضاً

— لا بأس من الامتحان . اما الوساطة فلماذا ؟ اذا كان الامتحان يثبت اهليتي

— لا بد منها أيضاً لانه قد يكون بين الطالبين الاكفاء من اوصى به احد اصدقاء المدير فالوساطة لاجله تقدمه عليك وان كان اقل منك اهلية

— كم هي ماهيات الوظائف الخالية

— حول ثمانية جنيهات

فانقبض يوسف برّاق وقال : — اقول لك الحق اني لا اريد ان اقتل وقتي في وظيفة باقل من عشرين جنيهاً

فضحك نجيب وقال : — اني لواثق بأهليتك يا عزيزي يوسف ولكن لا وصول الى الوظائف العالية الا بالصعود من الوظائف الواطئة

— يا لله . ألأجل وظيفة صغيرة احتاج الى واسطة ؟

— نعم . واذا لم تكن الواسطة فعالة فلا تنجح مهما كانت الوظيفة حقيرة لانك غريب في البلاد . وعليك ان تبتدئ بالصعود من اول السلم . ومتى اكتسبت قلوب معارفك الجدد يقدرونك قدرك فتستعين بهم على الترقي الى الوظائف العالية

عند ذلك رأى يوسف فتاة عادلة القوام قد لاحت في رحبة المنزل . وما وقعت عينه على عينها حتى اضطرب وفي الحال نهض يريد الخروج فامسك به نجيب قائلاً : الى اين ؟

— استأذنك بالانصراف الآن الى ملتقى آخر

— لا . بل تتغدّى معنا وتتعرف بسائر العائلة

ـ اني ممتن لفضلك جدًّا . لقد تغديت فأذن لي بالانصراف

وبذل نجيب جهده في اقناعه بالبقاء فلم يفلح

الفصل الثالث

غرس الحب في القلب

قالت ليلى وهي واهلها جلوس الى مائدة الطعام : — من هذا الفتى ياأخي نجيب ؟

فاجاب نجيب :— يدعى يوسف برّاق وقد تعرفت به في باريس حين كنت امتحن في الحقوق فكان لي صديقاً ودوداً وكنت استلذ عشرته لسمو آدابه وسعة معارفه

فقالت ليلى وهي تستعيد في ذهنها حادثة الترام : — لا تدل ملامحه على شيء من ذلك

— لم تريه جيداً حتى يحق لك ان تحكمي على ملامحه من مجرد رؤيتك له لمحة مع ان كل نظرة منه تدل على قاموس لغة أو دائرة معارف

— يا لله اراك تغالي كثيراً في محاسن هذا الفتى

— لا ابالغ اذا قلت انه فيلسوف لانه يعرف الانكليزية والافرنسية كاهلهما ويعرف العربية كابلغ الكتاب . ومع ذلك فمعارفه اللغوية ليست شيئاً في جنب معارفه العلمية والفلسفية

— اذا كان كما تقول افليس عجيباً ان يترك اوربا مهد العلم ووطن الاعمال ويأتي الى مصر ؟

— يلوح لي انه سيء الحظ من العالم لان اخلاقه ومزاجه وتربيته لا تقدره على حسن الجهاد لاجل الحياة . فهو حر الضمير وصادق الطوية وقويم المبادىء اكثر من اللازم لهذا الجهاد . وروح الاجتماع الحاضر تحسب هذه الصفات جرائم والمدنية الحالية تعاقب ذويها بنكد الطالع . واذا اضفنا الى ذلك عصبية مزاجه وحدة طبعه اتضح لنا السبب في عدم توفقه في اوربا وايثاره امتحان بخته في مصر

— غريب ان يكون عصبي المزاج وهو بدين

— وهو شديد العضل أيضاً فاذا غالب الدب غلبه . ولكنه يتحاشى ان يتقاوى على نملة

وكان نجيب يتمادى بهذا الحديث وهو لا يدري انه يغرس به غرس حب في فؤاد

اخته ليلى . وبعد سكوت هنيهة قالت ليلى : — اذا كان هذا الفتى لم يوفق الى مسترزق يرضيه في اوربا حيث يعلم الناس اقدار الناس فهل يؤمل ان يجده في مصر ؟

— تقلب في اشغال كثيرة في باريس ولندن حتى انه اشتغل في التأليف والتحرير لكن ضعف رأيه في تدبير اموره وفي تصرفه مع الناس في ميدان المزاحمة والمناظرة كان يفضي دائماً الى فشله . فنصحت له ان يرحل الى مصر حيث يقل مزاحموه الى الوظائف العالية لعظم اهليته . والان ارشدته الى البنك الاميركاني ونصحت له ان يصعد على سلم الارتقاء درجة درجة . وسأبحث مع عمي بولس رئيس قلم الترجمة في هذا البنك عسى ان يستطيع التوسط له . ولم اشأ ان اذكر له شيئاً من هذا القبيل قبل ان ارى عمي لاعلم ماذا يقول

بعد الغداء اختلت ليلى في غرفتها خلافاً لعادتها

الفصل الرابع

نشوة الغرور

في الساعة الثالثة من اليوم التالي كان يوسف براق في حضرة مدير البنك الاميركاني فقال له المدير : — اذا صدق ما كتبته في عريضتك كان لك عندنا وظيفة فهل انت مستعد للامتحان ؟

— اذا شئت فتفضل به الآن

فاستدعى المدير رجلاً كهلاً وقال له : — اود ان تمتحن هذا الفتى بالترجمة من اللغات الثلاث واليها

فتبع يوسف ذلك الرجل الكهل الى مكتبه وبعد ان تخاطبا باللغتين الانكليزية والفرنساوية دفع اليه الرجل ورقة مكتوبة بالانكليزية وقال :— هذه رسالة كتبتها الآن الى احد العملاء فأود منك ان تترجمها الى الافرنسية والعربية . وهذه رسالة اخرى بالعربية اود ان تترجمها الى الانكليزية والفرنساوية

فقرأ يوسف الرسالتين ثم تناول ورقة وبعد ان كتب قليلاً طوى الورقة ووضعها في ظرف وختمه ودفعه الى ذلك الرجل قائلاً : — اود ان تأمر بارسال هذا الظرف الى جناب المدير

فاستغرب الرجل تصرف الفتى وقال : — هل انجزت الترجمات بهذه السرعة ؟

وهمَّ الرجل ان يفض الظرف فامسك يوسف يده وقال : — لا تفضه يا سيدي فهو معنون باسم المدير شخصيًّا

فازداد الرجل حيرة ولكنه لم يتردد في ارسال الرسالة الى المدير . فلما فضها المدير قرأ فيها ما يأتي :

مولاي جناب المدير

ارجو ان تعين لامتحاني موظفاً اكثر معرفةً مني . واقبل فائق احترامي

كاتبه

يوسف براق

فابتسم المدير واستدعى يوسف اليه وقال له : — لماذا فعلت هكذا ؟ اما شعرت انك تهين من وليته امر امتحانك ؟

— ربما شعرت الآن بذلك وشعرت أيضاً ان هذا الامتحان اهانة لي أعظم من اهانة ممتحني لان الامر بيني وبينك الان والرجل لا يدري ماذا جرى . فارجو ان تمتحني أنت أو ان تعين لامتحاني شخصاً آخر اوسع علماً منه

— ليس عندنا اوسع علماً منه والوظائف التي عندنا لا تحتاج الى معرفة أوفر من معرفته

— اذاً ارجو ان تقبلني بلا امتحان وتجربني في العمل شهراً او اسبوعاً او يوماً فاذا لم تقتنع باهليتي فاصرفني خائباً

وكان المدير يعجب بكلامه بالانكليزية فسأله بالافرنسية هل تعرف العربية كالانكليزية فاجابه بالافرنسية أيضاً : — هي لغة أبي وامي يا سيدي وقد درست نحوها وبيانها في اشهر مدارس سوريا وكتبت بها مقالات في بعض المجلات العربية

وكان اعجاب المدير بكلامه بالافرنسية اشد منه بكلامه بالانكليزية

فقال له — اذاً تعال غداً واشتغل . مهلاً . . .

ثم ضغط المدير على زر فجاءه خادم فقال استدع المسيو سرار الى هنا

وفي لحظة حضر المسيو سرار فقال له المدير — بعد غد الاثنين يأتي المسيو يوسف براق هذا الى مكتبك فاشغله باي ترجمة تريدها

وقبل ان ينصرف يوسف قال للمدير — أود يا سيدي ان اعلم درجة الوظيفة التي تعينني بها اذا كنت راضياً كل الرضى عن عملي

ففكر المدير هنيهة ثم قال — ليس عندنا الان وظائف بماهية اكثر من ٨ جنيهات في الشهر

— وهب اني برهنت بالفعل على اني أهل لان اشغل وظيفة عالية جداً . . .

— لا اقدر ان ابحث معك الآن بذلك . فاذا شئت ان تشتغل كما اتفقنا فتعال غداً والا فانت وشأنك

واستأنف المدير النظر في اوراقه

— اني آت غداً يا سيدي

ثم ودعه وانصرف متنبهاً وهو يقول في نفسه :— الناس هم هم في كل مكان . وليس من يميز بين الغث والسمين . واذا كان ذلك الرجل الكهل اوفر موظفي هذا البنك علماً أو ليس بينهم اعلم منه فلا ريب ان أترقى سريعاً واكون في عهد قصير ثاني المدير . فلأطاوع هؤلاء الاغبياء صابراً الى ان تتبرهن لهم اهليتي

اما ذلك الرجل الكهل فهو بولس المراني عم نجيب المراني . وقد شغلت باله الرسالة التي قدمها يوسف الى مدير البنك وكانت وسيلة للتفاهم بينهما . وعقد النية على ان يطلع عليها ولو خلسة . فتلاهى في مكتبه حتى انصرف المدير من البنك ودخل الى مكتبه وبحث عن الرسالة طويلاً فوجدها في سلة الاوراق المهملة ممزقة بعض التمزق فجمع أجزاءها ورتبها . ولما اطلع عليها كانت له ابتسامة لو رآها يوسف لندم على ما فعل

الفصل الخامس

حرب بين النفس والقلب

وكان اليوم التالي الاحد والاشغال معطلة فاغتنم جوزف العطلة وخرج من غرفته في فندق السياح وذهب يبحث عن غرفة مفروشة ارخص من غرف الفنادق. فطاف عدة جهات فلم يجد غرفة تلائم ذوقه وتسد حاجته

وأخيراً وجد نفسه عند سبلندد بار ورأى المكان مكتظاً بالناس فجلس فيه الى احدى الموائد . وفيما هو يجيل نظره وقعت عينه على عين ليلى فخفق فؤاده وقال في نفسه : — ويحك يا قلبي ما بالك تستهدف لسهام هذه المتكبرة أما كفى نفسي هواناً ؟

ثم اسرع وشرب قهوته ونهض لا يلتفت الى احد ومضى يتمشى في رصيف الشارع وهو لا يدري الى اين يذهب . وما شعر الا انه راجع الى سبلندد بار رغم انفه فدخل الى داخله بحيث لا يراه من هم جلوس خارجه وجلس في زاوية عند احد الابواب . وكان احد مصراعي الباب مقفلاً فنظر من خلال زجاجه الى حيث ليلى جالسة فوجدها مع

جماعة (من اهلها طبعاً) وما ان تبينهم جميعاً حتى عض على سفلى شفتيه وكاد يدميها لانه رأى بين تلك الجماعة ذلك الرجل الكهل الذي كان يمتحنه في البنك الاميركاني . وجعل يتساءل ماذا عسى ان تكون نسبة ذلك الرجل الى ليلى

وكان كلما رام ان ينهض ليمضي يشعر بقوة تقوده وهو يقول : — ما ضرني ان ابقى هنا وليس من يعرفني ولا هي ولا ذووها يرونني

وبقي على هذه الحال حتى قامت جماعة ليلى ومضت . فنهض ومشى وما وجد نفسه الا ماشياً وراء تلك الجماعة . فلعن نفسه قائلاً :— هل انا بعير حتى تقودني هذه المتصلفة بخيط من حب ؟

ثم انقلب راجعاً ودخل الى « كافه ايجبسيان » ووقف فيها يتفرج على لاعبي البلياردو . وبعد هنيهة حسبها ساعة خرج ومشى مستعجلاً وهو يظن انه متمهل . وما صار في وسط شارع نوبار (الذي سمي بعد ذلك شارع باب الحديد) حتى رأى الجماعة امامه فقال :— اني سائر في سبيل عمومي يسير فيه كل الناس . فما انا تابع هذه الثقيلة

بلغت الجماعة الى شارع عباس وهو يتبعها عن بعد ويغالط نفسه قائلاً :— ان هذا الشارع عمومي يسوغ لي ان اسير فيه كغيري . اني ابحث عن غرفة

وما زال يسير كانه يسوق تلك الجماعة امامه ولا نور هناك غير نور الشارع حتى انعطفت الجماعة في شارع آخر . فتقدم الى ذلك الشارع ووقف عند زاويته يرصد القوم حتى دخلوا في باب . فنظر في اسم الشارع المعلق في الزاوية وقرأه على النور الضئيل فاذا هو الشارع الذي يسكن فيه صديقه نجيب المرّاني فقال لنفسه : — تباً لك من مغرور لقد قادتك الى حيث تقطن

ثم انقلب راجعاً وهو يتغيظ من هذه المصادفات القاهرة وقال :— لقد انقضى النهار وانا لم اهتد الى غرفة موافقة فلماذا لا اسكن في هذا الشارع فانه طلق الهواء بعيد مسرح النظر

وكان واقفاً امام منزل قد كتب فوقه « غرف للايجار » فدخل اليه واتفق مع صاحبة المنزل وهي ايطالية على الغرفة واجرتها . واتى بحقيبته واقام في غرفته الجديدة وهو يشعر بشيء من الارتياح الى مسكنه الجديد

وكان شباك الغرفة يطل على منزل مجاور وليس بين المنزلين الاّ فسحة ضيقة تتصل بالشارع العمومي ويفصلها عنه جدار واطيء . وبعد ان رتب يوسف غرفته جلس على مقعد عند الشباك وجعل يطالع في احد كتبه وفكره سابح في فضاء الخيال

ولما ملَّ هذه الحال اطفأ مصباحه واضجع في سريره ولكنه لم يستطع هجوعاً فكان تارة ينزل من سريره ويقعد على المقعد ثم يعود الى السرير حتى ضاق ذرعه من الارق

الفصل السادس

صرخة مباغتة

صارت الساعة الثانية بعد نصف الليل وهو على هذه الحال . وكان الليل هادئاً لم يقلق هدوءه الاَّ دويُّ الاوتومبيلات حيناً بعد آخر وقلَّ دوي قطار المطرية

وما كادت عينه تهجع حتى ايقظته صرخة كانها كانت في اذنه فنهض مبغوتاً ونظر من شباكه فرأى في شرفة المنزل المقابل له شبحين ولكنهما لم يرياه لان غرفته كانت مظلمة فانعم النظر جيداً وأصغى فسمع مثل بكاء فتاة وخطاب امرأة

وقد اعتاد يوسف ان يترك الشباك مفتوحاً لكي يتجدد الهواء في غرفته دائماً فانصت جيداً للحديث فسمع في هدوء الليل معظم الحديث بل كله هكذا :

— انهضي يا شقية الى غرفتك

— دعيني هنا وحدي

— تموتين من برد الليل

— اود أن اموت

— قصف الله عمرك فانك بليَّتي . قومي ادخلي

— قلت لك لا ادخل وهذا هنا

— لماذا لا تدخلين ؟ هل هو حوت يلتهمك

— بل هو ذئب مفترس فلا اكون حيث يكون

— هو في غرفته وانت في غرفتك

— لا اسكن في منزل هو فيه

— هل نطرده ؟

— اذا لم يكن في وسعك ان تطرديه فاطرديني

— لقد دفع اجرة غرفته مقدماً فلا اقدر ان اطرده

— انا عالمة انك لا تقدرين ان تطرديه لاننا كلتينا مقيمتان في منزله

— من قال لك يا شقية ان هذا منزله وانت تعلمين انه مستأجر

— من اين لك مال حتى تقطني منزلاً كهذا وتقني هذا الفرش النفيس
— هذا لا يعنيك
— بل يعنيني لان المال منه فلا اريد ان اعيش بمال دنس
— اصمتي يا شقية وادخلي

ورأى يوسف ان المرأة قد امسكت الفتاة بيدها وهمت ان تدخلها بالقوة فحاولت الفتاة ان تصرخ فوضعت المرأة يدها على فم الفتاة لتمنعها من الصراخ . ورأى يوسف حينذاك رجلاً قد اغترف الفتاة ودخل وعند ذلك اقفل الشباك ولم يعد يوسف يرى شيئاً أو يسمع صوتاً وكان المنزل مظلماً

ان ما يدور في خلد القارىء الآن دار في خلد يوسف حينذاك

* * *

انهزم الكرى من عيني يوسف لانه قلق على تلك الفتاة وصار يود ان يعلم ماذا يكون مصيرها في تلك الليلة في ذلك المنزل

فكر قليلاً . ثم نهض ولبس ثوبه وخرج من المنزل بكل هدوء وصعد الى السطح وطاف عليه فوجد في المنزل جناحاً يقرب جدًّا من المنزل الآخر فلاح له ان يثب وثوباً من سطح الى سطح ولكن خاف ان يكون لوثبته رجّة في السطح توقظ السكان وقد عثر على السطح بحطام سرير من خشب مرمية عليه فتناول لوحاً والقاه على السطحين وعبر عليه وجعل يطوف على السطح الآخر بكل هدوء وكان كلما خطا خطوتين انحنى فوق شباك من شبابيك المنزل وأصغى الى ان بلغ الى نقطة كان يسمع عندها من الشباك الذي تحته كلاماً مختلطاً ومثل بكاء ممتزج بسخط . فقال في نفسه : — لا بد ان تكون هذه الفتاة فريسة وانا المسئول عن خلاصها لاني الوحيد الذي عرف بامرها

ثم جعل يفكر في كيف يستطيع ان يسمع الحديث الجاري

* * *

ولا بد أن يتوق القارىء أن يعلم ما كان جارياً في ذلك المنزل مما لم يعلمه يوسف

في تلك الدقيقة كانت الفتاة والمرأة في احدى غرف المنزل ولا نور في الغرفة الا نور مصباح بترول ضئيل جدًّا وكانت الفتاة تنحب والمرأة تقول لها انك غبية لا تعرفين مصلحتك . وقد قضيت خمسة عشر عاماً وانا اربيك واعدك لمستقبل مجيد زاهر . فلما اقبل مجدك جعلت تنبذينه . . .

— أي مجد هذا ؟

— أليس مجداً لك ان تكوني ساكنة القصور ورافلة بالدمقس والحرير وحالية بالألماس والحجارة الكريمة وآمرة بالخدم

— لا اتنغص لمجد لم اتعوده ولم احلم به

— اذا كنت انت غبية تجهلين مصلحتك فانا اتولى امرك وعليك ان تطاوعيني فلا تندمي . لا تخاشني فهيماً فانه يحبك ويفعل كل ما ترومينه لسرورك . وقد ...

— ان الصلة بهذا الرجل تروعني فلا تقربيه مني ولا تقربيني منه

— يالله لماذا تروعك الصلة به وهو لا يدخر وسعاً في ارضائك . أما اهدى اليك اليوم ... ؟

— لا تذكري هديته . فهو يبتغي ان يقتنصني بها

— غريب امرك . لا ادري لماذا تؤولين هديته بالقصد السيء وهو لا يضن بأي برهان على انه يحبك

— يتمادى بمداعبتي

فضحكت المرأة وقالت :— فهمت انك تستنكرين أنه يقبلك . فاعذرك اذا نفرت منه لانك حديثة العهد بالحب ولان النفور طبع الفتيات وهو الدليل على حشمتهن . ولكن لا يسوغ للفتاة ان تعني بنفورها صدوداً وجفاء لئلا تخسر نصيبها الثمين وبختها السعيد

فقالت الفتاة ساخطة : — لا اعرف للنفور الا معنى واحداً وعليه ان يفهمه . فماذا تنتظرين مني غير ان أنفر ؟

— لا بأس ان تنفري تارة دون اخرى

— بالله . ويحك . اراك تبيعيني لهذا الرجل بيع السلعة الرخيصة

— كلا يا غبية بل اياك ابيع لك رخيصاً وهو غال

— نعم تبيعينه لي وتريدين ان ادفع اغلى ما عندي ثمناً له ؟

— اتعدين القبلة ثمناً غالياً يا بنيتي

— اغلى منه كثيراً

— اتريدين ان تقني سعادتك مجاناً

— ويلاه انك تروعينني. ما هذا الدرس الجديد الذي تلقينه عليَّ الآن ؟ متى كنت تسوغين ان تمس طهارتي يد ؟

— كنت اصونك الى ان اجد لك النصيب الثمين . وقد وجدته الآن فلا تضيعيه بنفورك يا غبية

— عجيب امرك . انك تساوين على فؤادي مساومة . لا ترى نفسي هذا النصيب ثميناً بل بالعكس تراه حقيراً

— لعلك لا تعلمين مقام فهيم السامي وغناه الطائل

— اعلم . اعلم . ولكن كل ذلك لا يرضي قلبي . فاي سعادة في ان اعيش كملكة وانا لا اطيق أن اساكن من تحسبينه كالملك بجاهه وغناه ؟

فتأففت المرأة وقالت : — يا لله . لا ادري لماذا تنفرين من هذا الفتى والوف من الفتيات تتمنى ان يبتسم لهنّ

— تقولين انه فتى وهو اكبر من ابي

— آ . فهمت فهمت . تنفرين منه لانه اكبر منك سناً . ولو كنت عاقلة ما كنت تحسبين الكبر عيباً ولا سيما لان الفرق بينك وبينه في السن مألوف بين الازواج

— لا تحاولي سد الابواب والباب الكبير مفتوح وهو اني لا اقدر ان احبه

— متى عاشرته برهة تحبيه من اعماق قلبك. فلاطفيه يا هيفاء . انه نصيب عزيز تحسدك عليه بنات الامراء . فاياك ان يفلت من يدك

فسكتت الفتاة هنيهة ثم قالت متنهدة : — انك تدفعينني الى الهاوية

— لا تخافي يابنيتي . انك مندفعة الى غبطة عظيمة . سيأتي الآن اليك . فاعتذري له عما فرط منك من الخشونة . وسترين منه رقة ولطفاً يسرانك . لا تخسرين شيئاً اذا لاطفته يا حبيبتي

ونهضت المرأة وقبلت الفتاة فقالت هذه : — رحماك رحماك لا تدعيه يأتي الى هنا وحده

ثم خرجت المرأة الى القاعة حيث كان فهيم ينتظر . وقالت له : — لو سمعت ....

— ماذا ؟

— تقبل لو تشق ان تكون زوجها

— قلت لك لا تقربي من هذا الموضوع

— عجيب ان تبعد عنه مع انه يسهل كل عسير

— قلت لك . لا اقدر ان اتزوج ولا اريد . فلا داعي لتكرار القول

— ولكن اقناع الفتاة صعب الاّ بالزواج

— اذاً لماذا وعدتني بان تسهلي صلتي بها

— لانني ظننت انك تستطيع ان تستميلها

— بماذا استطيع ان استميلها بغير المال ؟ فقد وعدتها بان اسكنها قصراً انيق الرياش يحف فيه الخدم حولها وان البسها افخر الحلل وازينها بانفس الحلى

— اذاً واظب على استمالتها بالطف الاساليب ولكن لا تدعها تفهم انها لا تكون زوجة

— ولا اقدر ان ادعها ان تفهم انها تكون زوجة

— اذاً دع المسألة غامضة الان وابذل جهدك في ملاطفتها والتحبب اليها ولندع الامر للمستقبل . قم ادخل اليها الان فقد مهدت لك سبيل الاجتماع بها

ودخلت المرأة الى غرفة الفتاة وهي لم تزل مضجعة في سريرها ودخل فهيم وراءها وهي تقول ضاحكة : — تعال يا فهيم صافح هيفاء فهي لم تقصد بنفورها ما فهمت انت . والحق عليك فقد تسرعت في فهم قصدها

ووضعت يده في يدها وخرجت

أما فهيم فشعر بان الفتاة تضطرب فقال لها : — لا تخافي يا حبيبتي اني واقف نفسي على اسعادك فاطلبي ما تشائين

وعند ذلك ادخل يده الاخرى تحت رأسها وضمها الى صدره . فاختلجت ونفرت منه ولكنها كانت بلا قوة . فقال لها : — تعالي الى فؤادي يا مالكته

وضمها بكلتا يديه الى صدره . وما هي الا لحظة حتى راعه صوت من ورائه يقول له : — دع النعجة الطاهرة في طهارتها ايها الذئب الخبيث !

فانتفض فهيم جزعاً ولكنه نهض بكل هدوء والتفت الى ورائه فرأى شبحاً واقفاً في الشرفة عند الشباك وفي يده مسدّس مصوّب نحوه من بين مصراعي الشباك المنفتحين قليلاً . فارتعدت فرائصه وابتعد عن سرير الفتاة مذعوراً وهو يتوقع دويّ الرصاص في الغرفة . وفي الحال خرج منها . واستقبل المرأة عند بابها وقال مرتعباً : — من هذا الذي في الشرفة ؟

— لا ادري . شعرت بحركة في الشرفة . انه لص . استصرخ الخفير

— كلا كلا . لا تستصرخي أحداً فليس في الامر لصوصية بل تهديد

واندفعت المرأة الى الغرفة ونظرت في الشرفة فلم تجد أحداً ولكنها لمحت شبحاً يصعد الى السطح متسلقاً على شيء مدلى منه

ثم شعروا بحركة على السطح وسمعوا بعض البرابرة الذين يبيتون على السطح يا طون قائلين : — ها هو يا خفير قبضنا عليه . خذه الى القرقول !

فقال فهيم : — الافضل ان نتظاهر باننا لم نعلم شيئاً ولا شعرنا بشيء ما دام هذا المتطفل قد وقع في يدي الخفير . وغداً نستفهم من البرابرة عن امره

— حسن رأيك . ولكن تعال قل لي ماذا رأيت ؟

فروى لها فهيم ما رأى وسمع وقال لها : — تعالي قولي لي من هذا ؟

— لا ادري

— لا بد انك تدرين . من هذا الذي يجسر ان يصل الى هذه الشرفة في آخر الليل ويتهددني في اهم لحظة كانه يعلم سر الامر ؟ الا تعرفين شخصاً آخر يحب هيفاء ؟

— والله لا اعلم ولا اعتقد ان هناك شخصاً آخر يحبها أو يعرفها أو تعرفه

— انك تمكرين عليَّ

— اقسم لك بشرفي أني لا اعلم

— هل زدتني بهذا القسم تصديقاً ؟

— ثق اني لا اعرف احداً يعرف هذه الفتاة هنا في مصر

— اذاً من هذا ؟

اني متحيرة مثلك ولا اشك انه لص . ولما رأى ان من في المنزل لم يزالوا يقظين ادعى القداسة والغيرة على الشرف ورام ان يشفي غليله منك

فلم يقتنع فهيم بهذا التعليل ثم تقدم الى الفتاة وقال لها : — انت تعلمين هذا الشخص يا هيفاء

— لم أره وقد راعني قبلك

— كيف ذلك

— سمعت صوته قبيل دخولك عليَّ . ولم افهم كلامه فجزعت جداً

— عجيب ان لا تفهمي كلامه

— لم افهمه لانه كان همساً

— لا اصدق

— لا يهمني ان تصدق

فسكت فهيم وبعد هنيهة قال : — لعلنا غداً نعرف الحقيقة

الفصل السابع

عظة في السجن

لما شق الفجر حجاب الظلماء وكانت أمواج النور القصوى تلاطم الآفاق كان يوسف برّاق يتبين في السجن الذي اودع فيه في « قرقول الازبكية » بضعة اشخاص آخرين مرتمين على الارض كالنعم في الحظيرة . كان بعضهم يغطون في نومهم كأنهم يتوسدون الوثير في شم القصور وبعضهم يقظين متململين ويوسف من جملتهم

ولما اتضح الصبح قليلاً رأى يوسف الى جانبه رجلاً ملتحياً وعلى رأسه قبعة من الصوف وقد صحا من نومه . فانعم النظر فيه فخاطبه الرجل باليونانية

فقال له يوسف : — لا اعرف اليونانية

فسأله الرجل بالعربية :— هل معك سيكارة ؟

— من حسن الحظ لا ادخن

فتأفف الرجل وقال : — بل من سوئه لاني لا اطيق الصبر عن التدخين

— اراك تتكلم العربية جيداً افما انت يوناني ؟

— بلى ولكني قضيت عهداً طويلاً عشير العرب

— استغرب انك سجين هنا وللاجانب امتيازات

— نعم ولبعض الناس امتيازات ايضاً ومنها انهم يجدون انفسهم في مثل هذا المبيت احياناً

فاستغرب يوسف هذا الخطاب وقال : — اعذرني ياسيدي . الى الان لم افهم لماذا انت بائت هنا

— لان القرقول فندق سكارى الطريق

— تقول انك أجنبي . فلماذا يُجاء بك الى هنا ؟

— لان السكر لا يفرق بين جنسية وأخرى . ونحن الاجانب احق من الوطنيين بهذا الفندق الفخيم

فابتسم يوسف وبقي ساكتاً هنيهة ثم قال :— لا تؤاخذني يا سيدي اذا سألتك لماذا لا تذهب الى منزلك قبل ان يؤتى بك الى هنا ؟

- لاني الان فقير وهنا مصير السكير الفقير في الليل

— واذا كنت تعلم هذا المصير فلماذا لا تكف عن السكر ؟

— وماذا يضرني ان اسكر اذا كان البوليس يعنى بي ويؤاويني في القرقول . واذا كنت بلا دينار فهل تظنني اجد مبيتاً افضل من هذا الفندق ؟

— بالطبع اذا كنت تنفق دينارك على الخمرة تبقى بلا دينار . فلماذا لا تصون الدينار لكي تنفقه على ما يصلح شأنك فتعيش عيشة افضل

— جرَّبت كل نوع من انواع المعيشة فلم اجد افضل من هذا النوع

فازداد استغراب يوسف لحديث هذا الرجل ولكنه استلذ حديثه فقال : — عجيب امرك . لم ارَ احداً قبلك يستلذ عيشة الفقر

فضحك الرجل وقال : — لم اعن عيشة الفقر بل عيشة السكر

— الفرق بين العيشتين لفظي فقط لان السكر يفضي الى الفقر وانت خير مثل على ذلك

فقهقه الرجل وقال : — يلوح لي انك عديم الاختبار . هل تجهل ان كثيرين من السكيرين عاشوا اغنياء وماتوا اغنياء ؟

— اعلم ذلك . واعلم ايضاً ان كثيرين ماتوا فقراء من جراء السكر . فهل تقول لي لماذا انت الآن بلا دينار ؟

— لاني كميزان الحرارة تارة اكون صاعداً واخرى نازلا . فامس كنت في درجة الخمسين واليوم في درجة الصفر

— درجة الخمسين ؟

— نعم . كان امس معي خمسون جنيهاً فخسرتها بالقمار وخرجت اسكر مع بعض اصحابي فاصبحت اليوم ولا جنيه معي فانا الآن في درجة الصفر

خمسون جنيه في ليلة واحدة ؟ وماذا تفعل اليوم ولا فلس عندك ؟

كما فعلت منذ اسبوع او منذ شهر او منذ عام . فلطالما لعبت هذا الدور

— انك لتدهشني يا سيدي . فهل تستسهل خسارة خمسين جنيهاً في ليلة واحدة ؟

— كما استسهل ربحها في ساعة واحدة

— ارى حديثنا يسوقني الى الفضول فاعذر يا سيدي فضولي

— لا . لا تقل فضولا . اذا لم يكن لحديثنا فائدة الا قتل هذا الوقت الطويل فكفى به فائدة

— اذاً اود ان اتعلم منك كيف تربح الخمسين جنيهاً في ساعة . فما هو شغلك ياسيدي؟

— اشتغل اي شغل اوفق اليه فتارة اكون سمساراً وأخرى « جرصوناً » في « قهوة » وطوراً صاحب حانة وتارة صاحب محل قمار او مقامراً او مضارباً في البورصة. ولهذا قلت لك اني كميزان الحرارة

— اذا كانت لك هذه المقدرة على كسب المال فلماذا لا تجعل ميزان حرارتك صاعداً دائماً وتعيش عيشة الكبراء ؟

— من قال لك اني لا اعيش عيشتهم ؟ فامس كان بضعة من ابناء الذوات يسكرون معي وهم يقامرون وانا اقامر وهم يطوفون ملاهي الازبكية وانا اطوفها

— وهل تعدّ هذا النمط من العيشة عيشة راضية ؟

— اذا كان الاغنياء يؤثرون هذا النمط من المعيشة فما انا افضل منهم الا باني ابيت في القرقول احياناً وهم يبيتون في القصور . بل انا اسعد حالاً منهم لاني اقدر ان ابيت حيث لا يقدرون ان يبيتوا

فحار يوسف كيف يستطيع ان ينبه هذا الرجل الى عاقبة سيرته لانه رآه متشبثاً باسلوب معيشته وكلما ارشده الى خطر هذا الاسلوب موّه الرجل عليه متهكماً . وبعد تفكير هنيهة قال يوسف : — كم عمرك الان يا سيدي ؟

— قل خمسين او ستين سنة

— عجباً . لا يلوح لي انك تناهز الخمسين

— بل اكثر

— ولم تزل في عافية ؟

— وقوة ايضاً

— كم سنة تعيش ايضاً ؟

— هذا ما لا يدريه الا علام الغيوب

— أجل . لا احد يعرف اجلاً . ولكن القوة والعافية ؟

— ماذا ؟

— هل تدومان ؟

ففكر الرجل هنيهة وقال : — لم يخطر لي هذا قبل الان

— ليس عجيباً ان لا يخطر لك لان ميزان حرارتك متى صعد اطمعك بحسن المستقبل ومتى هبط اهتك الحمرة عن كل مستقبل . على اني اسأل الله ان تعيش حتى التسعين لترى نهاية المستقبل . أفما رأيت أحداً في التسعين او الثمانين ؟

— رأيت

— كيف رأيت الرجل في الثمانين

— تريد ان تقول لي انه ضعيف

— قد يكون قوياً

— لا بد ان تضعف قوته مهما سلم من الامراض

— اذا ضعفت قوته البدنية فقد تبقى له قوة مالية

فاكفهرّ وجه الرجل وفكر هنيهة ثم قال : — واذا كان مثلي بلا قوة مالية ؟

— حينئذ تسميه ضعيفاً

- ولكنك نسيت الاصدقاء

— بل انت نسيتهم . امس كنت تسكر مع ابناء الاغنياء فلما استنفدت الخمرة صوابكم اخذتهم مركباتهم الى قصورهم واخذك البوليس الى هذا القرقول . فاين اصدقاؤك الان واين يكونون متى صرت هرماً ولم تعد عشرتك تلذ لابناء الاغنياء ؟

ففكر الرجل هنيهةً ثم قال :— لقد نبهت يا صاح غافلاً وانا اشعر الان اني اضعف قوة مما كنت منذ خمس سنين او عشر

— وهل ترتاب بان تكون في منتهى الضعف حين تكون ابن ثمانين ؟ فانت تستنفد الان كل قوتك العضلية والعقلية والمالية ولا تدخر شيئاً الى حين تهرم . فالواجب عليك نحو نفسك الان ان توفر من قواك الى آخر سنيك

فسكت الرجل على هذا الخطاب . وبعد قليل قال : — لقد ايقظتني من غروري يا سيدي وصار لك علي فضل . تكلم يا اخي فاني استلذ كلامك

— اخاف ان تحسب كلامي فضولاً

— بل هو فضل

— اذاً ائذن لي ان أسألك : اما لك عائلة ؟

— كلا البتة

— حسن جداً فقد خفّ وقر ذنبك عليك ولكنني ألومك على امر واحد في ماضيك

— على السكر والقمار طبعاً ؟

— لا لا . بل الومك على امر سبب تطوحك في السكر والقمار وهو انك بقيت عازباً

فتنهّد الرجل وبقي ساكتاً وبعد قليل قال له يوسف : — لا ريب انك شعرت الان

بهذا الغلط لانك لو تزوجت لوجدت في عائلتك لذة لا تجدها في سكر ولا في قمار

وكان النور قد ملأ المكان من نوافذه « المحددة » فرأى يوسف دمعتين تنحدران على لحية الرجل . وعند ذاك قال الرجل ليوسف : — هل انت متزوج ؟

فاجابه يوسف : — كلاّ

— اذاً كيف تعرف لذة العيلة ؟

— اعرفها بالمشاهدة . ومن منا لا يرى الوفاً من العيلات السعيدة بالفتها . فلماذا لم تتزوج حين كنت في يسر ؟

— كنت مزوجاً يا اخي

وهنا استرسل الرجل بذرف الدموع فقال له يوسف :— اظنك لم تكن سعيداً بزواجك وقد اخطرت على بالك مصيبة فاعذرني

— كلا يا اخي لم اكن تعساً في زواجي ولكن الاحوال فرقتني عن عياتي وشتتها

— اذاً لم تزل لك عيلة

— لا ادري فقد تكون عياتي منقرضة

وكاد الرجل يجهش بالبكاء فقال له يوسف :— لا تؤاخذني على استدراجك الى هذا الموضوع الذي يذكرك باحزان ماضية فدعنا منه

— نعم دعنا منه ولكني أود ان تكون صديقي

— اني صديقك فاود أن اتعرف بك فهل تتفضل باسمك الكريم ؟

— اسمي جورجي اجيوس

— منزلك ؟

— هذا الفضاء الواسع . وانما تجدني غالباً في « قهوة الشيشة » فهل تذهب الى هنالك ؟

— لا ولكني اذهب لاجلك وان كان لا مأرب لي « بالشيشة »

— اسمك الكريم ؟

— يوسف برّاق

— لم تقل لي لماذا انت هنا

— اني متهم غلطاً ومتى استجوبوني برأت نفسي

لا اشك ان مثلك لا يؤتى به الى هنا الا بالغلط

عند ذلك انفتح الباب وكان شرطي ينتدب السجناء واحداً بعد الاخر

الفصل الثامن

نقص القانون

كانت الساعة التاسعة حين جيء بيوسف الى المأمور . وبعد ان القى عليه الاسئلة المعتادة سأله : — لماذا جيء بك الى هنا ؟

— أأذن لي يا سيدي ان اكون وحدي معك لاني اود ان يكون التحقيق سرياً

وبعد جدال قليل امر المأمور من في مكتبه ان يخرجوا وجعل يوسف يقص عليه الحادثة بالتفصيل . فروى له ما عرفه القارىء منها الى ان كان على السطح فوق شباك وكان يسمع كلاماً صادراً منه فقال :

— ولما لم استطع تفهم الكلام فكرت بطريقة لسماعه . وكان قرب ذلك الشباك شرفة (بلكون) فخطر لي ان انزل اليها . وقد نبهني الى هذه الفكرة ما عثرت عليه من الحبال المنصوبة على السطح لنشر « الغسيل » فحللت بعضها وطويتها ثلاثاً وعقدتها عقداً وربطت طرف مثلوثها باسفل العمود الذي كان الحبل مربوطاً باعلاه وادليت الطرف الآخر ثم نزلت بواسطته الى زاوية الشرفة حيث لا يراني احد ولا يشعر بي . وكان الشباك الذي يصدر منه الكلام قريباً جداً من زاوية الشرفة فجعلت اتسمَّع

وهنا روى يوسف بعض الحديث الذي علمه القارىء وقال : — ولما ادركت اني في خطر اسرعت وصعدت وما بلغت الى السطح الا رأيت نفسي بين ايدي بربريين وهما يستصرخان الخفير للقبض علي . فحاولت الافلات منهما ولكني ما لبثت ان وقعت بين يدي الخفير ولم ادر كيف وجد هناك في تلك اللحظة

فقال له المأمور : — سنرى كيف وجد الخفير هناك حينذاك

وفي الحال استدعى الخفير وامره ان يروي حكاية قبضه على يوسف فقال الخفير : — كنت امشي في نقطتي فرأيت شبحاً في الفضاء بين سطحي منزلين فاستغربت امره ورغبت ان اعلم سره لاني توهمته طائراً . ثم ما لبثت ان رأيته قد مشى الى احد السطحين وجعل يطوف عليه متسرقاً فازدادت ريبتي فيه . ثم جعلت انعم النظر في ما بين السطحين لكي اعلم كيف انتقل من الفضاء الى السطح فلم اقدر ان ارى شيئاً لانه لم يكن من نور الا نور النجوم الضئيل . وما زلت اراه يظهر ويتوارى حتى ازددت رغبة في معرفة سره فدخلت من بوابة المنزل وصعدت الى السطح بكل هدوء . فلم اجد احداً

فجعلت اطوف فيه . ثم قرعت على باب غرفة من غرف السطح فخرج منها بربريان فسألتهما في الامر . فقالا انهما لم يشعرا بوجود انس ولا جن . ثم تفرقنا جميعاً في السطح نبحث عن ذلك الشبح وتقدمت الى الخلاء الذي بين السطحين لأرى كيف كان ذلك الشبح في الفضاء فوجدت لوحاً ملقى على السطحين . ففهمت انه كان يعبر عليه من سطح الى سطح . عند ذلك استصرخني البربريان فاسرعت ووجدت هذا الفتى يحاول الافلات منهما فقبضت عليه وسقته الى هنا صاغراً

— عافاك الله . لقد قمت بالواجب عليك خير قيام . اخرج الآن

ولما خرج الخفير قال المأمور : — ان حكاية الخفير تنطبق على حكايتك تماماً . وقصتك معقولة ولكنها لا تنفي الشبهة عنك

— أي شبهة يا سيدي

— شبهة التلصص

— ولكني رويت لك الحقيقة عن سبب تلصصي

— اذا كنت صادقاً فيما رويت فقد كنت متطفلاً فيما لا يعنيك

— بل اعتقد اني فعلت الواجب عليّ

— لا واجب عليك

— يا لله . لم يعلم احد غيري بالضيق الذي كانت فيه الفتاة ولهذا حسبت نفسي مسئولاً عن خلاصها

— هل عينتك الحكومة جاسوساً على الناس ؟

— لا

— اذاً لا مسئولية عليك وليس في القانون ما يحملك اقل مسئولية

— نعم لا مسئولية قانونية عليّ ولكن عليّ مسئولية ادبية

— نحن هنا لا نفهم الا القانون الذي سنته الحكومة

— اذاً القانون ناقص

فضحك المأمور قائلاً : — لك ان تقدم هذه الملاحظة للحكومة وتقترح عليها سن قانون يخولك التلصص على الناس . ولكني اثق ان الحكومة لا تفعل شيئاً من هذا القبيل لان الناس احرار في منازلهم

فتغيظ يوسف وقال بحدة : — اذاً القانون يترك الفتاة فريسة لذلك الذئب ؟

— لا بل القانون يعاقبه على افتراسه لها

— ولكن شبح القانون لم يكن حاضراً ليردعه عن فريسته ولو لم اكن انا هناك واتهدده لافترسها

— لو افترسها وثبت افتراسه لها لعوقب

— ولكنه قد يغويها ويفترسها ثم ينجو من العقاب فاذاً قد يعجز القانون عن حماية الفتاة من شره ولم يبق من منقذ لها الاّ العناية الالهية . وانا اعتقد ان العناية الالهية استخدمتني لانقاذها

ففكر المأمور هنيهة ثم قال : — اقول لك اننا هنا منفذو قوانين لا مشترعون . والقانون يقضي عليّ بان اكتب « محضراً » بهذه الحادثة وبعد ذلك تقول ما شئت في المحكمة وللمحكمة وحدها الحق بالنظر في قضيتك . قلت انك تهددت الرجل فبماذا تهددته ؟

— شهرت عليه « مسدساً » لارهابه وردعه ولكني لم اطلقه

— اين المسدس ؟

— رميته على السطح واعتقد ان احد البربريين اخذه

بعد ان كتب المأمور « المحضر » انصرف يوسف

الفصل التاسع

تناظر المنطاد وورقة الشجرة

بعد ان اشتغل يوسف براق في البنك الاميركاني اسبوعاً انفرد به المسيو سرار الذي كان يشغله في مكتبه وقال له : — لقد كافني جناب المدير ان ابلغك امراً لا ادري ان كان يسوءك

— ماذا ؟

— يتأسف جنابه شديد الاسف بان يبلغك ان لا وظيفة لك في البنك الآن . فاذا فرغت في المستقبل وظيفة لائقة بك استدعاك اليها لانه مقتنع باهليتك . واني متأسف يا مسيو براق ان اكون مبلغك رغبة جنابه . ولكن ما على الرسول الا البلاغ . ولي الأمل ان تثق باخلاصي واسفي . وهذا تحويل على الخزينة باجرة الاسبوع

فشكر يوسف للمسيو سرار تلطفه . ومضى وبعد ان تردد هنيهة ذهب الى المدير وسأله عن سر عزله . فلم يشأ المدير ان يفاوضه بهذا الموضوع بيد انه ابلغه انلا وظيفةله

حينئذ وانه اذا خلت له وظيفة استدعاه اليها لانه لا ينكر اهليته

على ان يوسف خرج كاسف البال غير مقتنع بان سبب عزله الاستغناء عنه

وما ان ابتعد قليلاً حتى أدركه فتى من زملائه في البنك يدعى خليل نادم وهو فتى ذكي الفؤاد وسيء البخت كيوسف وجعل يماشيه في سبيله وفي اثناء ذلك قال له :

— أحقيق يا مسيو برّاق ان المدير ابلغك عدم الحاجة اليك ؟

— كيف عرفت ذلك يا خليل ؟

— كل المستخدمين في دائرة الترجمة كانوا يلغطون بذلك

— اذاً لا بد ان تكون قد عرفت السبب

— اما عرفته انت ؟

— لم يذكر المدير لي سبباً غير ان لا وظيفة لي ولكني لم اقتنع بهذا السبب وانا أرى ان الشغل اكثر من الكتبة في دائرة الترجمة . أفما فهمت من لغط الكتبة شيئاً ؟

فسكت خليل فقال يوسف : — بلوح لي انك تعلم شيئاً فماذا كانوا يتحدثون ؟

— ألا تعرف القول السائر « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » ؟

— اذاً تخاف ان تقول

— نعم لان الدسائس تكثر في كل دائرة بقدر كثرة عمالها . وانا عرضة لاخطار هذه الدسائس

فتوقف يوسف عن التمشي كأنه تنبه لأمر يغفل عنه وحملق بالفتى قائلاً : — على مَ الدسائس ؟

— الافضل ان نتمشى في طريق آخر لئلا يتبعنا بعض الكتبة ويسيئوا الظن بنا

— لا يهمني سوء ظنهم لاني لن اعود الى هذا البنك اذا كان دار دسائس

— اما انا فيهمني لاني مضطر الى الاستخدام واخاف على وظيفتي من خيال مزاحم

— يالله . اتستمسك بوظيفة ستة جنيهات وانت تستحق اثني عشر جنيهاً ؟

— استمسك بوظيفة اربعة جنيهات ما دمت لا اجد سواها

— لم تقل لي ماذا كانوا يلغطون بامري

— تقول انه لا يهمك الرجوع الى البنك فاعذرني اذا لم اقل لك شيئاً لاني اخاف مغبة القول

— بل اود ان اتلقن درساً جديداً . فاتعهد لك بشرفي اني لا ابوح بكلمة مما تقول . فقال

فتردد الفتى وهو يقول : — الحق عليك

— بماذا ؟ هل قصرت بواجباتي ؟ هل عجزت عن ترجمة شيء ؟

— كلا بل بالعكس كنت تعمل اكثر من واجباتك وتحسن الترجمة اكثر من كل واحد

— اذاً كيف يكون الحق عليّ ؟ هل ارتكبت وزراً من حيث لا ادري ؟

— نعم . ذنبك انك تشتغل اكثر من سواك وعملك احسن من عمل غيرك فلو كنت اقل علماً واجتهاداً لكنت ارسخ قدماً في وظيفتك

— استغرب ما تقوله ولا افهمه . لاني كنت ابذل جهدي في اعجاب رؤسائي وارضائهم

— ان ما تظنه اعجاباً وارضاء لرؤسائك يحسبونه اغضاباً بل ذنباً تستحق عليه الطرد . فانت الجاني على نفسك

— يا لله ! لم افهم بعد معنى قولك هذا

— استغرب انك لا تفهم

— لا اقدر ان افهم ما يخالف السنة الطبيعية . افهم سر وقوع ورقة الشجرة الى الارض ولكن اذا قلت لي انك رأيتها تصعد الى السماء فلا افهم ولا اصدق لان صعودها مخالف لناموس الطبيعة

— واذا رأيت المنطاد يصعد الى السماء ؟

— اعلل صعوده بسنة الطبيعة ايضاً

— اذاً يمكن حدوث امرين متخالفين وتعليل حدوثهما بسنة الطبيعة

— من غير بد

— فاعلم اذاً ان للامور الادبية سنناً كسنن الامور الطبيعية تماماً . ولو كانت ورقة الشجرة تحس وتعقل لكانت تغضب من المنطاد حتى ولو كان صاعداً بها الى السماء

ففكر يوسف هنيهة ثم قال : — انك يا اخي لفيلسوف في الامور الاجتماعية . تعني ان رؤسائي يغضبون من اظهار براعتي واجتهادي ولو كنت انجز مضاعف الشغل الذي يكلفونني به لانهم . . .

— نعم لانهم يخافون ان تصعد فوقهم كصعود المنطاد فوق ورقة الشجرة

— ولكني اقسم لك بشرفي اني لم اضمر قط مزاحمتهم في مناصبهم بل لم يخطر لي الا تجنب ذلك

— هل تنكر انك كنت تود اظهار كل اهليتك حتى تترقى ؟

— لا انكر ذلك ولكني كنت اطمع ان اترقى الى وظيفة يخليها من هو فوقي الى من هو فوقه فهم السابقون ونحن اللاحقون

— ولكنهم ليسوا قارئي نيات وافكار حتى يثقوا انك لا تزاحمهم . ولو اقسمت لهم بالله وبرسله وانبيائه ما صدقوك بل ما كانوا يصدقون الا انك تبذل جهدك في مزاحمتهم. وهب انك كنت تنوي ما تقول فمدير البنك اذا رأى انه ينتفع منك اكثر من رئيسك يجعلك فوق رئيسك رضيت او لم ترض . وهذا ما يحسبون حسابه مهما كنت انت طيباً وحسن النية

— عجيب ان يعتقدوا ذلك

— بل عجيب ان لا يعتقدوا ذلك

— لماذا ؟

— لانك كل يوم كنت تهددهم الف مرة

فبهت يوسف لهذا الجواب وقال : — يالله . انك تكذب او انك تعني غيري

— بل اعنيك انت يوسف برّاق

— متى تهددتهم ؟

— حين كنت تناقشهم في اغلاطهم

— بل هم كانوا يصلحون جوابي بغلطهم وانت كنت تسمع وترى . هل كان المسيو سرار محقاً اليوم بتنقيحه ضمير « سن » وجعله مذكراً فهل ترتاب انت انها مؤنثة ؟ انظر في اي قاموس شئت

— اعلم انها في القاموس مؤنثة ولكنها في قاموس البنك يجب ان تكون مذكراً لان المسيو سرار رئيسنا يريدها كذلك

— لا بأس من هذه ولكن ماقولك في الاغلاط الاخرى الفرنساوية والانكليزية التي كان يرتكبها سرار وغيره

— هنا في الشارع الحق معك فيها واما في البنك فالحق في جانب المسيو سرار وغيره من الرؤساء

— لو كان المسيو سرار يرتكب هذه الاغلاط في ترجماته ما كنت اتعرض له لاني لست مسيطراً عليه فهو حرٌّ ان يترجم كما يشاء ولكنه كان هو وغيره ينقحون ترجماتي فيقلبون الصواب خطأً فظيعاً لا يطاق فلا الام اذا كنت اناقشهم لكي تكون

ترجماني بليغة فصيحة خلواً عن الخطأ

— نعم تلام لانهم رؤساء وانت مرؤوس

— كلا لا ألام لاني لو كنت اسلم باصلاحهم وهو خطأ فظيع لكنت اثبت عدم اهليتي

— بل بالعكس لكنت تثبت اهلية عظمى لو كنت تعترف لهم بسمو علمهم على علمك

— هذا ما لا قبل لي عليه . لا استطيع ان اجاري الجهلة على جهلهم

— وهم لا يستطيعون مجاراتك في صعودك فوقهم فاعذرهم اذاً

— تعني اني اعذرهم على سعاياتهم ضدي

— نعم . نعم اعذرهم

وبعد سكوت هنيهة قال يوسف : — هل لك ان تقول لي يا خليل من كان الساعي ضدي ؟

— كلهم . وكلهم الآن فرحون بانهم ابعدوك من البنك لانهم كانوا يخافون من رسوخ قدمك واعجابك للرؤساء الكبار لئلا يقدموك عليهم . فهل فهمت غلطك الآن ؟

— فهمته ولكن لم يكن في وسعي تجنبه

— لانك حرّ وحرية الضمير جناية على المرء

— هل تعلم ان كان المسيو بولس المراني من جملة الذين سعوا ضدي ؟

— الحق اني لا ادري شيئاً من نحوه فقد يكون منهم لانه الرئيس الاعلى « لقلم » الترجمة كما لا يخفى عليك . و ....

— ماذا ؟ قل ما تعرفه وثق اني لا أقول كلة

— اني واثق بصدق طويتك يا مسيو براق . ولولا صدق مودتي لك ما كنت اخاطبك بهذا الموضوع . فلا اخفي عليك اني وجدت بالصدفة بين الاوراق التي على مكتب بولس افندي المراني شطري ورقة وقرأت فيهما سطرين بامضائك . فهل كان مراني افندي موكلاً بامتحانك قبل تعيينك ؟

فعض يوسف على شفتيه وقال : — لقد سبق السيف العذل . دعنا من هذا الموضوع يا أخي فقد عرفت ممن جاءت الضربة

— اتظن انها جاءت من بولس المراني ؟ لم ازل في شك من ذلك لان بولس

افندي مشهور عندنا بطيب عنصره

— مهما يكن الامر فقد كان ما كان . ولكن ألا ترى ياخليل اني مظلوم ؟

— لا شك عندي في ذلك . لاني أعتقد انك أقدر من كل من في هذا البنك واهل لاعلى وظيفة فيه وأطيب قلباً واصدق نية من كل زملائنا . ولكن هل تنتظر من الناس ان يعدلوا مجاناً أو ان ينصفوا عفواً ويرحموا بلا سبب ؟

— كأنك تقول لي ان كل شيء يجب ان يكون بثمن او جزاء . حتى الحق يجب ان يباع ويشرى . والمرء لايعدل عن الكذب الاَّ اذا كوفىء على الصدق . ولا يجنح عن الخيانة واللؤم الا اذا كان يقبض ثمن الاستقامة غالياً

— نعم . نعم يا يوسف . لا يتبع احد الحق لاجل الحق ولا يصدق احد لاجل الصدق ولا يستقيم لاجل الاستقامة

— اني اتعجب ممن يصعدون الى قمة النجاح على سلم الظلم واللؤم والكذب والخيانة

— لا تتعجب يا صديقي فان الانسان مسلسل من الحيوان الذى اضطره تنازع البقاء الى الحيلة واللؤم والغدر والخيانة . والناس كالحيوانات ينازعون بعضهم بعضاً وجميع هذه الرذائل اسلحة لهم

— اذاً لماذا يتبجحون بالنواميس الادبية ويدعون حيوية الضمير ؟

— ما هذه النواميس الا قيود يقيد المستقيمون انفسهم بها . واما الاغرار فيعتقدون ان الناس في تنازعهم كانهم في حرب عوان والحرب تجيز اتخاذ كل وسيلة للغلبة

— لا اعتقد انهم يغلبون اخيراً

— عجباً يا يوسف . اما رأيت ان المنافقين فازوا عليك وانت الصادق المستقيم

فوجم يوسف وانتفض متغيظاً وقال : — كأنك يا هذا تحرضني على التذرع بالرذيلة الى النجاح

— كلا . كلا لا احرضك على ذلك بل امتدحك اذا لازمت جانب الاستقامة ولو بقيت في الحضيض . وانما اقول لك ان ذلك هو الواقع . الاشرار يقومون والابرار يسقطون . فان كنت تبتغي النجاح فاسلك اليه من طريق الشر فهو اقصر واقرب والا فلا تطمع به عاجلاً

فحرَّق يوسف الارَّم وزمجر متغيظاً وقال : — يالك من عهد يترأس فيه الغبي الجاهل ويخبح الماكر المخاتل . ويسعد اللئيم ويشقى المستقيم . فالحرب بيني وبينك ايُّها العصر الممجوج . فاما ان تقلبني او اقلبك

الفصل العاشر

غرائب القدر

كانت الساعة الثامنة مساء حين ازدحم اول شارع كاوت بك من جهة الازبكية بالمركبات بعضها مركبات نقل وبعضها مركبات ركوب وبعضها مركبات كهربائية فحدث اصطدام خطير لولا العناية الالهية لافضى الى حادثة مشؤومة

وتحرير الخبر ان مركبة كانت تقل فتاتين احداهما بقبعة والاخرى « بحبرة » واتفق انه كان وراءها بعض مركبات وقطار كهربائي وامامها بعض مركبات نقل . فحاول حوذيها في اول الامر ان يتجاوز مركبات النقل التي امامه ولكنه رأى قطاراً كهربائياً مندفعاً نحوه وكاد ينطح جوادَي مركبته . فما لوى عنانه حتى رأى مركبة اخرى من ورائه قد اندفعت الى جانبه الايسر فلوى العنان الى ايمنه . والظاهر انه ارتبك والجوادان جمحا واندفعا الى الرصيف فاصبحت عجلتا المركبة اليمنيان على الرصيف والعجلتان الاخريان ما زالتا في ارض الشارع . فارتعبت الفتاتان ووقفتا ووثبت ذات الحبرة الى الرصيف وكان الحوذي حينذاك يلوي عنان الجوادين الى الشارع فرامت الفتاة ذات القبعة ان تثب فلم تستطع لان المركبة مثقلة بها من الجانب السفلي فانقلبت المركبة بالفتاة واصبح نصف الفتاة بين العجلتين وكادت العجلة الخلفية تمر عليها لو بقي الجوادان يندفعان الى الامام . وفيما كانت الفتاة تصرخ من الرعب معتقدة ان اجلها سينقضي في تلك اللحظة شعرت ان قوة هائلة ترفع جانب المركبة عنها والفتاة الاخرى رفيقتها تستخرجها من تحت المركبة

كل ذلك حصل في بضع ثوان

وقفت الفتاة وهي تصرخ : — « رجلي رجلي . انكسرت رجلي » . وكانت في الوقت نفسه تنظر الى القوة التي رفعت المركبة عنها فرأت فتى يجاهد في تقويم المركبة والحوذي الذي انقلب من المركبة ايضاً نهض وجعل يعاونه الى ان اعتدلت المركبة في مكانها

وكان جمهور من الناس قد تجمهر وبينهم شرطي يأمر الحوذي بالذهاب الى القرقول اما الفتى فانعطف الى الفتاة يستعلم منها عما اصابها فامسك بيدها قائلاً : — ألا تستطيعين ان تنقلي رجلك ؟

فنقلتها ومشت خطوتين قائلة : — اظن رجلي سليمة من الكسر ولكني اشعر بالم

— الحمد لله انها سليمة لان المركبة لم تضغط عليها الا لحظة او اقل من لحظة

— اني ممتنة لتداركك الخطر الذي داهمني . بربكم مركبة اخرى تأخذني الى بيتنا

وفي الحال استدعى الفتى حوذياً آخر فاخذ الفتاتين

وكان الفتى بطل روايتنا يوسف براق . اما الفتاة فكانت ليلاه ولكنه لم يعرفها الا وهي تستقل المركبة فتراجع الى الوراء كانه استكبر ان تعلم بوجوده هناك في تلك اللحظة ولكن الظروف ساقته اليها كأن الاقدار تمهد الطريق لايجاد علاقة بينه وبين الفتاة

الفصل الحادي عشر

بارقة أمل

في ذلك المساء نفسه عاد يوسف الى حي الازبكية

وفيما هو قادم الى سبلندد بار شعر بيد تقبض على ذراعه فالتفت فرأى صديقه نجيب المرّاني وهو يقول له :— اني ابحث عنك

فبغت يوسف قائلا :— لماذا ؟

— تعال نجلس ونتكلم

فجلسا وقال نجيب :— استغرب يا صاح انك لم تعد تزورنا قط مع اني كنت انتظر زيارتك لكي اقوم بخدمة لك ولكن يلوح لي انك تريد ان تستغني عن خدم اصدقائك

فابتسم يوسف مكفهرًّا قليلا وقال : — بل بالعكس لا غنى لي عن فضل اصدقائي ولكني لا اريد ان اثقل عليهم

— الى الان لم تثقل بامر وليس في خدمتك خسارة كبيرة ولا صغيرة فارجو ان لا تبالغ في تجنب ما تحسبه تثقيلا الا اذا كنت انت لا تريد ان يثقل عليك صديقك بامر

— بل اود ان استطيع خدمة لكل صديق

— علمت انك تركت الخدمة في البنك الاميركاني

— من ابلغك ذلك ؟

— الذي بشرني بانك استخدمت في ذلك البنك

— من ؟

— عمي بولس

فاكفهرّ يوسف وسكت . فاستأنف نجيب الكلام قائلا : — اني استغرب ان قدمك

لم ترسخ هناك مع ان البنك جديد واشغاله تتسع يوماً فيوماً ولا غنى له عن مستخدمين جدداً ولمثلك مستقبل كبير فيه

— ماذا قال لك عمك عن سبب تركي البنك ؟

— لم يعلم عمي حقيقة السبب ولا درى بالأمر الا بعد وقوعه والآن هل وجدت شغلا ؟

— كلا . ولم ازل ابحث عن شغل

— لقد وجد عمي وظيفة موافقة لك في مصلحة التنظيم . واوصى بك صديقنا سليم افندي هيزلي الموظف هناك وهو صاحب نفوذ وفي وسعه ان يضمن تعيينك في الوظيفة . وهاك بطاقة من عمي لهيزلي افندي فاذهب اليه واني ارجح انك تنال الوظيفة

فتناول يوسف البطاقة وقرأ فيها ما يأتي :

« عزيزي سليم افندي هيزلي . حامل هذه البطاقة يوسف افندي برّاق الذي اوصيتك به وقد جمع المعرفة الواسعة والعقل الراجح والقلب الطيب . ومتى قابلك يبرهن لك على صدق قولي . فاذا كنت تساعده بكل قوتك تكون قد قلدتني جميلا عظيماً »

بولس المراني

فخفق فؤاد يوسف لهذه التوصية وقال في نفسه : هل يصدق هذا او يمين

ثم قال لصديقه نجيب : — اني ممتن جداً لفضل عمك . ولا ادري كيف يحق له ان يكتب هذه الفقرة وهو لا يعرفني

— يقول انه عرف اهليتك جيداً . وقد حاول ان يقنع المدير بردك الى وظيفتك في البنك الاميركاني فلم ينجح

— لا بد ان يكون قد علم بعدئذ سبب عزلي

— من طبع عمي تقليل الكلام وتحاشي القال والقيل ولهذ لم يحث كثيراً في الامر وجل ما علمه ان بعض الموظفين في قلم الترجمة كانوا يتذمرون من وجودك . والظاهر انهم اقلقوا المدير بالشكوى منك

— ألم يقل عمك ماذا كانت شكواهم

— يظهر ان لا شكوى حقيقية لهم وانما الحسد قاتله الله

— هل يعتقد عمك ذلك

هذا ما فهمته منه . ولو كنت قد اخبرته بشيء من ذلك قبل صدور امر المدير لقاوم مقاصدهم فلماذا لم تتردد اليه

— لم اعرف انه عمك الا بعد حين

الفصل الثاني عشر

الجارة الرسولة

عاد يوسف الى غرفته مرتاح النفس من جهة مسترزقه لانه أمل ان يحصل على الوظيفة في مصلحة التنظيم . على ان حادث ذلك المساء شغل كل لبه وقلبه

كان في الايام التي مرت يتناسى تلك الذات التي احتفرت منزلاً في فؤاده حتى كاد ينساها . ولكن حادث المركبة كان كلفحة هواء هبت على جذوة نار خابية تحت الرماد فسفت الرماد عنها وجعلت تضرمها حتى ألهبتها

لم يهجع يوسف تلك الليلة لانه كان كلما اغمض جفنيه متوسلاً الى الكرى لاح في مخيلته طيف تلك الذات وقال للكرى : « لا يسع هذا الحيز اثنين في وقت واحد فاما أنت واما انا » فكان الكرى نافراً والطيف انيساً

وكان ذهن يوسف يتعقل تلك الذات فيراها تترقى رويداً رويداً حتى ملات فضاء خياله واخيراً قال في نفسه : «اين اهل الثرى من اهل الثريا ؟» ثم عاد ذهنه من ذلك الفضاء الواسع وهو يتعثر بين هضبات الامال فيرقى هضبة من رجاء ثم ينحدر الى وهدة من يأس

قد يود القارىء ان يطلع على كل ما دار في خلد يوسف تلك الليلة لكي يدرس فيه فلسفة الحب ولكن لو طلبنا الى يوسف ان يدون ذلك على الورق ما بقي في هذا الكتاب محل للحكاية

كانت مخيلة يوسف تلك الليلة كالسينماتوغراف تبدي وتعيد كل حادث ذي علاقة بالفتاة من حادث الترام الاول الى حادث المركبة الاخيرة وكان يقف عند كل حادث ويوسع نفسه لوماً لانه أساء التصرف . ففي الترام خاشنها . وفي الطريق قرب منزلها تجسس عليها . وفي منزلها جافاها . وفي سبلندد بار نافرها . وفي حادث المركبة الاخير قلل الادب لانه لم يرافقها حتى منزلها كحارس لها لئلا يحدث لها في الطريق حادث آخر او لئلا يتعذر عليها الصعود الى المنزل . او لئلا يجزع اهلها لمباغتتها اياهم متأملة محتاجة الى من تتوكا عليه لتصعد

كيفما قلب يوسف تصرفه وجده نموذج الهمجية والتوحش . ولم يكن ليخف عنه تعذيب ضميره على ذنوبه هذه الا اذا خطر له ما يعتقده من تصلف الفتاة وخيلائها

طلع الصباح ويوسف لم ينم فنهض ولبس ثوبه وخرج ينوي الذهاب الى مصلحة التنظيم . وفيما هو خارج من باب المنزل السفلي رأى فتاة تحملق فيه وهي مئتزرة بمئزر

(بحيرة) فنظر فيها كانه يسألها ان كانت تريد منه شيئاً فقالت له :— بونجورمسيو يوسف

— بونجور مدموزال . أتذكر اني رأيت هذا الوجه ولكن متى واين لا أتذكر

— في هذه الناحية طبعاً

— نعم نعم . تقطنين في المنزل المجاور لهذا المنزل . يسرني ان أراك الان لاني لم أعد أراك منذ بضعة أيام وكنت أود أن اختلس برهة لمقابلتك . فاين كنت

فاحمر وجه الفتاة وقالت :— تركت هذا المنزل

— وحدك ؟

فاجابت متلعثمة :— وحدي

— فعلت حسناً

فاستغربت الفتاة حديثه واضطربت قليلاً وقالت :— لماذا ؟

— لانك نجوت من الهاوية

— اية هاوية هذه ؟

فغالط يوسف نفسه وقال :— اما انت الفتاة التي كنت منذ نحو اسبوع تقطنين في هذا المنزل مع امك ورجل ؟

فاكفهرّت الفتاة وقالت :— نعم . وكنت اراك كما تراني

— اذاً لماذا تنكرين الهاوية التي كانت امك ترميك فيها

فازداد اضطراب الفتاة واحمرار خديها وقالت :— كيف ترميني امي في هاوية ؟

— أما كانت تريد ان تبيعك رخيصة لسافل زنيم ؟

— هل روى لك احد خبراً ؟

— كلاّ انما رأيت بعينيّ وسمعت باذنيّ

فوجفت الفتاة وقالت بصوت خافت :— ماذا رأيت وماذا سمعت ؟

— رأيت الزنيم كحية حواء يستغويك ليرميك في هاوية الاثم الذي لا يغتفره الناس وان اغتفره الله . وسمعت امك تساوم ذلك الزنيم على طهارتك . هذا ما سمعت وهذا ما رأيت

— اين ومتى ؟

منذ نحو عشرة ايام تقريباً في نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل . في غرفتك رأيت وفي الغرفة المجاورة لها سمعت . فذاب فؤادي اشفاقاً عليك

فانتفضت الفتاة مدهوشة جازعة وقالت :— انت ال . . .

— انا هو الذي انذرك و . . .

— وتهدّد ذلك الفاسق ؟

— نعم

— وكيف نجوت من يد الخفير؟ فقد سمعنا البرابرة الذين على السطح يستصرخون الخفير ويقولون له انهم قبضوا عليك

— لم أنج من يده بل ساقني الى المخفر

— اني آسفة

— لا تخافي. برأتني المحكمة العادلة . ولكن ألم يخرج الرجل وامك ليروا من هذا الذي كان يتجسس عليكم ؟

— لا . واني مستغربة ذلك

— لا تستغربي لان الأئمة يخافون ان يظهروا للناس فاحمد الله انك نجوت

— ولكن ما معنى قولك ان امي كانت تساوم على طهارتي ؟

— أما فهمتِ ذلك ؟

— لا

— أما فهمت شيئاً من علاقة ذلك الرجل بكم ؟

— فهمت ان امي تريد ان تحبب الرجل بي لكي يتزوجني وانا كنت امانع

فضحك يوسف مكفهرًّا وقال : — لماذا تمانعين اذا كان الرجل يتزوجك زواجاً شرعياً ؟

— لاني لا أحبه ولن أحبه ولا أطيقه

— وهل كنت واثقة انه سيتزوجك ؟

— لم اكن أشك بذلك لانه كان يبذل جهده في ارضائي

— نعم ولكن لا ليتزوجك بل ليقتنصك واقول لك ان امك كانت تساعده على اقتناصك

فاسود وجه الفتاة واغرورقت عيناها بالدموع وقالت : — آه امي . امي. لوكانت امي

فانتبه يوسف وقال : — اما هي امك ؟

— ادعوها امي ولكنها بالحقيقة خالتي اخت امي . والان صرت اشك ايضاً بانها خالتي لان الخالة كالام تضن بابنة اختها . ولا سيما اذا كانت قد ربتها منذ الصغر . اني اشكر غيرتك جدًّا يا مسيو برّاق . وأود منك ان لا تفوه بكلمة مما سمعت ورأيت لاني

اود ان انسى كل ما كان وقد مضى بلا اذى والحمد لله

— كيف عرفتِ اسمي ؟

— لم يبق عندي وقت الآن فاسمح لي ان ادفع لك هذه الرسالة وانطلق قبل ان " اني خالتي هنا

فتناول منها الرسالة وهو يقول لها : — ممن هذه الرسالة ؟

— من سيدتي ليلى

— ليلى ؟

— نعم ألا تعرفها ؟

— لا

— يالله . هل نسيت امس ؟

فبغت يوسف وقال : — هل كنت معها ؟

— نعم انا التي كنت معها ولم تنتبه لي لانك انشغلت به

ثم ودعته الفتاة منطلقة فقال : — ألا تنتظرين جواباً ؟

— كلا . فهل من جواب ؟

— لا ادري . هل يمكن ان اراك غداً في مثل هذا الوقت وفي هذا المكان ؟

— نعم اذا كنت ترغب في ذلك

الفصل الثالث عشر

دوي وصدى

اما يوسف ففض الرسالة خافق الفؤاد وقرأ ما يأتي :

« ليت الاقدار تفهم فكانت تغنيك عن تحمل مشقة وتنقذني من عذاب أليم

« انت تكلفت جهداً ضائعاً وأنا اقاسي الماً بلا مسكن والذنب ذنب القدر الاعمى

« لولا المصادفة لوفرت انت جهداً عنيفاً ولقضيت انا واسترحت من عذابي

« حملتني تلك المصادفة ديناً لك فلا انا استطيع وفاءه ولا انت تبتغي بذله

« فاحسب هذا الدين في جملة خسائرك وانا احسب هذ الشقاء في جملة مصائبي

« لاتكن مشفقاً كل حين فقد يضيع اشفاقك مع غير اهله

« وقد تكون هذه الرسالة فضولاً مني ولكني فكرت طويلاً فلم ارَ بداً من هذا

الفضول ليكون مبلغك شكري لك »

وكانت الرسالة بلا امضاء كما كانت بلا عنوان

* * *

وما انتهى يوسف من تلاوة الرسالة وهو يتمشى حتى قال : « لله من كبريائك »

وكاد يمزق الرسالة تمزيقاً ولكن اناملهِ لم تطاوعه . وبعد ان طواها ووضعها في جيبه استعادها وقرأها ثانيةً وثالثةً . ثم قال لنفسه : « نسيت ان اسائل الفتاة عن رجل ليلي . تقول ان اسمها ليلى . فهل انا قيسها ولي منها عذاب قيس ؟ شكت امس من ألم رجلها . فلا ريب انها تعذبت الليلة الفائتة وتأرّقت ارقي ولكن شتان بين ارقينا »

* * *

ذهب يوسف الى مصلحة التنظيم ودفع بطاقة بولس المراني الى سليم الهيزلي فاستقبله هذا احمل استقبال وقال :— لقد اوصاني بك المسيو نجيب مراني ايضاً . يلوح لي ان اسرة المراني كلها تودك يامسيو برّاق . ولذلك احسب نفسي سعيداً اذا استطعت ان اقوم بخدمة لصديق يوده آل مراني هذا الود

فشكر يوسف له تلطفه وهو يشعر بوخز في ضميره من جراء ما الحق ببولس المراني من الاهانة

ولا نطيل الكلام على القارىء فان سليم الهيزلي قدم يوسف الى مدير المكتب وتوسل اليه ان يقبله في الوظيفة . فامتحنه المدير بنفسه واعجب بمعارفه وبصدق ما بدا من بواطنه ولم يتردد في توظيفه . فكان يشتغل في المكتب تحت يد سليم الهيزلي لان هذا اقدم منه

* * *

في ذلك المساء كان يوسف منزوياً في احدى القهوات وهو يعيد تلاوة الرسالة الآنفة الذكر ويتفهم معانيها كانها انجيله الذي يحتاج الى تروٍّ . ثم تناول ورقة وجعل يكتب تارة ويشطب اخرى وبعد التنقيح استقر قلمه على الاسطر الآتية :

« ليت الاقدار تفهم فكانت تمدني بقوة وسرعة تكفيان لتلافي تلك الحادثة قبل وقوعها بحيث لا يبقى لي مسوغ ان اقترب منكِ

« انا دائماً ضائع الجهد والا لاستطعت ان اوفر عنك ألماً . ولكن الذنب ذنب القدر الاعمى فسامحيه وسامحي ضعفي

« حملتني تلك المصادفة واجباً لكِ فانا ضعيف عن القيام به وانت تبتغين الاستغناء

عنه . فانا سيء الحظ وقد عداك سوء حظي فليت في وسعي ان ازيل هذا السوء عنك

« فاحسبي هذا الحظ السيء عارضاً في حياتك وانا اضيف هذا العجز الى سائر عجزي . ولو كان القدر يفهم وينصف لعداني الملك . ولكن لا . لعله يفهم وينصف فلا يراني استحق هذه العدوى

« لا تكوني حليمة فقد يضيع حلمك مع غير اهله — ليتك اطنبت بالتأنيب فهو عندي ايجاز والايجاز لا يشبع نفسي

« قد تكون هذه الرسالة جسارة مني ولكني فكرت طويلا فلم اجد نفسي مستغنياً عن هذه الجسارة لتكون ذريعة لشكر حلمكِ »

في صباح اليوم التالي كان يوسف في باب المنزل السفلي وهو كل هنيهة يكشف الساعة ويستبطيء الثواني حتى ضاق ذرعه قبل ان بدت له الفتاة المتزرة . فلما اقبلت عليه قال مبتسما : — خفت ان لا تأتي

— الوعد دين يا مسيو يوسف

— هل عرفت ليلى بقدومك ؟

— استأذنتها

— ألم تزل تتألم ؟

— لا تتألم

— رجلها ؟

— جاء الطبيب في الحال وفحصها فقال انها مرضوضة رضاً خفيفاً جداً فوصف لها مروخاً ازال الالم حالا

فاستغرب يوسف هذا القول المخالف لظاهر نص الرسالة ثم قال : — تنتظر ليلى جواباً لكتابها ؟

— لا ادري

— هل فهمت ليلى لماذا اتيت انت ؟

— قلت لها انك ضربت لي ميعاداً

فلم يرتح يوسف لاجوبة الفتاة المقتضبة ثم قال : — هل هي صديقتك ؟

— نعم

— هل انت جارتها

— بل مقيمة معها

— باي صفة ؟

— خادمتها

— خادمتها ؟ لماذا ذلك ؟

— ماذا افعل ؟

ـ هل ترضى أمك او خالتك كما تقولين ؟

— لا تدري حتى اعلم ان كانت ترضي ولهذا لا اود ان أتأخر هنا لئلا تصادفني فتأخذني اليها بالرغم مني وقد ائتزرت بهذه « الحبرة » لكيلا تعرفني

— كيف اتصلت بليلى ؟

— لما وجدت نفسي عرضة لذلك الذئب حاولت الفرار من المنزل وذهبت الى « المخدم » اطلب خدمة وكانت ليلى هناك تطلب خادمة فذهبت معها

— هل عرفت ليلى بقصتك ؟

— عرفت ببعضها . عرفت اني تركت أمي لانها تريد ان تزوجني ممن لا اريد فاشفقت عليّ وآوتني عندها

— هل انت مرتاحة الى خدمتها ؟

— جداً . لانها تعاملني كاخت

— عجيب

— اين العجب ؟ لو كنت تعرف ليلى

وكان كل جواب من اجوبة الفتاة كازميل يعمل في فؤاد يوسف فقال : — فماذا ؟

— لكنت تقول انها ليست كسائر البنات

— صدقت ليست كذلك

— اذاً تعرفها ؟

— لا . ولكن ماذا قالت عني ؟

— لم تقل شيئاً

— هل عرف اهلها بتفصيل الحادثة ؟

— نعم . ولكنها لم تسمّ لهم الفتى الذي انقذها ولا انا فعلت لاني لا اخالفها بامر

— حسن . اذاً انت محتمية بها

— نعم ومسرورة جداً تحت حمايتها

— لم تقولي لي اسمك

— هيفاء

— اسم جميل . هل يمكنني ان أراك غداً ايضاً يا هيفاء ولك مني الجزاء الذي تطلبين ؟

— افعل اذا لم تمانع ليلى

— ولا انا الومك اذا مانعت . هل تتفضلين ان تدفعي هذه الرسالة اليها وحدها

(وكانت الرسالة بلا عنوان ولا امضاء) — بكل سرور افعل

— اني امتن لك

ثم افترق الأثنان هوالى الجنوب وهي الى الشمال

الفصل الرابع عشر

التفسير حسب الظواهر

وكان طريق الفتاة من أمام منزل أمها (او خالتها) فما بلغته حتى رأت أمها تنزل من آخر درجة من السلم فاسرعت وكان اسراعها منبهاً لظنون أمها فاسرعت هذه وراءها حتى ادركتها بعد عدة خطوات ونظرت الى وجهها قائلة : — هيفاء . الى اين يا شقية وأين كنت ؟

— لا شغل لك معي لقد كتبت لك اني في سلامة فلا تبحثي عني . فدعيني في سبيلي

ولكن المرأة لم تدعها تنطلق في سبيلها بل صدتها وارجعتها بالقوة محاسنة تارة ومتوعدة أخرى حتى ادخلتها الى المنزل وهناك جعلت تلومها وتعنفها تارة وتلاطفها وتملقها طوراً حتى اقنعتها بالبقاء في المنزل . على ان هيفاء ما زالت تود ان تنتهز فرصة للفرار الى ليلى لكي تدفع لها الرسالة . فلم ينسنى لها الفرار في ذلك النهار عينه على انها ابكرت في فجر اليوم التالي لكي تنسل من المنزل على نية ان تذهب الى ليلى وتدفع لها الرسالة وتعتذر عن عدم امكانها البقاء عندها الا اذا كانت ليلى تجد وسيلة شرعية للاستمساك بها لان امها اقنعتها انها لم تزل قاصرة وانها لا تقدر ان تفعل حسب مطلق حريتها

نهضت هيفاء لترتدي ثوبها . واول ما خطر لها هو ان تبحث عن الرسالة في جيب ثوبها الذي كانت ترتديه امس فلم تجده . بحثت عنه في كل مكان وفي غرفتها فلم تقف لها على اثر فتحيرت في امرها ومع ذلك لم تعدل عن ازماعها الى ليلى لتبلغها ماذا جرى

فما همت ان ترتدي ثوبها حتى انفتح الباب بغتة ودخلت عليها امها قائلة :

— لماذا تلبسين ثوبك الان والوقت لم يزل فجراً ؟ فالى اين ؟

— لست ذاهبة وانما . . .

— ماذا ؟

— ابحث عن شيء اعهده في جيبي ففقدته

— تعنين رسالة ؟

فبغتت هيفاء وقالت : — اخذتها ؟

— نعم واكتشفت سرك منها

— سري انا ؟

— نعم سرك . انك مجنونة لا تعرفين مصلحتك والا ما كنت تفضلين هذا الفتى الاهوج على فهيم الذي لا يفرق عن الامراء الا بالاسم

— اي فتى تعنين ؟

— اتظنين اني غبية مثلك فلا اعلم انك تحبين هذا الفتى المجاور لنا وانه يحبك ويستغويك . فاين كان يجتمع بك كل هذه المدة واين كنت مختبئة يا شقية . ألا تعلمين انك ارتكبت وزراً لا يغتفر وكدت تخسرين مستقبلك المجيد . ماذا حدث بينك وبينه ؟ قولي لي لكي اعلم كيف أتلافى مصيبتك

فامتقع وجه الفتاة وخفق فؤادها جزعاً وقالت :— انك تسوئين الظن بي يا أماه فلا علاقة لي بهذا الفتى

— اصمتي ياكاذبة . هل تنكرين انك كنت معه اول امس وانكما افترقتما أمام المنزل ؟

فاقشعرت الفتاة وقالت لم اكن معه الا لحظة صباحاً أمام باب منزله

— وما شغلك معه ياشقية . اتنكرين انه يستغويك ؟

— انك تتهمينني به زوراً يا أمي

— اصمتي . هل تنكرين هذه الرسالة التي اعطاك اياها لكي تقرئيها على انفراد وكلها تحبب وتذلل واستعواء

فكادت الفتاة تنكر ان الرسالة لها ولكنها امسكت نفسها عن الانكار لئلا تضطر ان تقول لمن كانت الرسالة وهو امر لا تريده ولو شنقت لانها خافت سوء المغبة على ليلى في حين ان ليلى أمنتها على سرها

— ما بالك صامتة . تكلمي . اجبني . اما هو الذي سطا علينا تلك الليلة غيرة

عليك وقد تجاهلت سطوه

فبقيت هيفاء صامتة واجفة ولا سيما لان أمها هولت عليها كل التهويل . وبعد سكوت هنيهة قالت امها : — هل شعرت الان بغلطك الفظيع في انخداعك بهذا الفتى الارعن الطائش ؟

— اكدي يا اماه انه ليس بيني وبين هذا الفتى من علاقة البتة

— وهذه الرسالة ؟

— اودعها في يدي وانا لا ادري ما فيها فاذا كان هو يحبب اليَّ تحبباً فما ذنبي انا ؟

— اين كنت كل هذه المدة ؟

— قلت لك امس اني كنت خادمة في بيت المراني فاذا لم تصدقي فاسألهم

— ولماذا قابلت الفتى أمس ؟

— بالصدفة قابلته

— اسمعي يا هيفاء ما مضى قد مضى . فاياك ان تعيديه او تذكريه او تدعي احداً يعلم انك كنت خادمة عند احد او انه كانت لهذا الفتى علاقة معك لئلا يعلم فهيم بالامر فيفسد مشروعي الذي لا اقصد به الا خيرك

وجعلت تغريها على قبول فهيم ومحاسنته وتحببها به حتى اثرت فيها بعض التأثير

الفصل الخامس عشر

الحية وحواء

في آخر السهرة كان فهيم مجالساً تلك المرأة في غرفة وحدهما وهما يتكلمان همساً فقالت : — ما معنى هذه المقاطعة يا فهيم ؟

— وما معنى زيارتي يا نديمة والفتاة نافرة وقد هربت بسببي ؟

— الفتاة صغيرة وجاهلة وقد عادت من نفسها بعد ان كانت مختبئة عند الراهبات لانها شعرت بغلطها واليوم اقنعتها فاقتنعت

— اقتنعت ؟

— نعم ولكن يجب ان تعدها بالزواج

— انك لغبية وجاهلة . ألا تفهمين اني لا اقدر ان أتزوج ؟

— فهمت ذلك لان لك عدة زوجات غير شرعيات

فاختلج الرجل قائلاً : — كيف فهمت ذلك ؟

فضحكت نديمة وقالت : — علمت ان لك زوجة في العباسية واخرى في الاسماعيلية وشبه زوجة شرعية في المطرية فلتكن هيفاء رابعتهن

فضحك فهيم وقال : — كيف عرفت كل ذلك ياشقية ؟

— وهل كان لي شغل سوى ان ادرس احوالك فقد عرفتها . فتزوج هيفاء وليس من يشترط عليك ان تترك الخليلات الثلاث

— متى صرت زوجا وصارت هيفاء زوجتي لا تقولين هذا القول لان عقد الزواج يكون سلاحاً في يدك ضدي

— واذا كان عقد الزواج مزوراً ؟

فبهت فهيم ثم قال : — هذا ما لم يخطر لي

— اما انا فخطر لي ان آتي بثوب قسيس وقلنسوة وانت تأتي باي رجل ذي لحية فيلبس الثوب والقلنسوة

— الحق انك داهية . واذا عُرف الامر بعدئذ ؟

— لن يُعرف . ومتى صارت الفتاة في منزلك الخاص لا تعود تود الخروج منه ولو عرفت ان زواجها كان مزوراً ولا سيما اذا بقيت انا اقرأ النصح على رأسها

فسكت فهيم وفكر هنيهة ثم قال : — انك يا نديمة سر لا يدرك . ولكني اود ان اعلم سرك قبل ان اقدم على هذا المشروع فقولي لي ما علاقة هذه الفتاة بك ؟

فضحكت نديمة وقالت : — ابنتي

— تكذبين . قولي الحقيقة

— قلتها

— لا اصدق ان اماً تفعل هكذا

— واذا قلت لك انها ابنة اختي

— ولا ابنة اختك

— هذه هي الحقيقة . ولماذا لا تصدق . اليست الفتاة التي في المطرية خليلتك بعلم امها ورضاها ؟

— نعم ولكن لام تلك احوالاً اخرى

— مثل احوالي . تلك لم تكن زوجة شرعية وانا لم اكن زوجة شرعية لاحد وقد قضيت حياتي خليلة لواحد بعد اخر كما انت تقضيها الان وكما يقضيها كثيرون

— وتريدين أن تسير هيفاء في هذا السبيل ؟

— ماذا يضرها ان تسير فيه كما سرت انا فيه ؟ وهل تطمع بان تعيش افضل من عيشتي مع اخلائي وعيشة خليلاتك معك ؟

— هبي اني تركتها بعد حين

— لا تتركها الا وتترك معها ما بقيها الفقر

— أفليس الافضل ان تزوجيها زواجاً شرعياً من فتى كفء ؟

— لا اجد الفتى الذي اعيش معه ومعها كما اريد . فقد تعودت ان اعيش عيشة الرخاء

— اذاً تسعين الى مصلحتك

— لا اظنك تلومني . والا فما كنت اعنى بتربيتها حتى صارت وردة جميلة او ثمرة شهية . هل تلومني ؟

— لا ألومك

— طبعاً لا تلومني لان مبادئك تنطبق على مبادئي واحسب نفسي سعيدة باني توفقت الى صديق لا يستنكر مبادئي . فهل تستنكرها ؟ قل . انك حر الضمير

— لا اقدر ان استنكرها لاني جار عليها

— وكثيرون مثلنا يجرون عليها والدنيا لهؤلاء

فضحك فهيم قائلاً : — ماذا تعنين ؟

— اعني ان مايسمونه مبادىء ادبية وفضيلة لا يجتمع مع الغنى الا نادراً . دلني على واحد من اقرانك الاغنياء يسير في غير هذا السبيل

— لا اجد واحداً . ولهذا استغرب تمسك الناس بهذه المبادىء الادبية التي لا حرمة لها عند الاغنياء . فلماذا لا يلغونها حتى تتمتع كل طبقة بالحرية المطلقة ؟

فضحكت نديمة قائلة : — كانك غبي لاتدري ان اطلاق الحرية لجميع فئات الناس يزيل الحد الفاصل بين الغني والفقير وبين القوة والضعف وبين الاستعباد والعبودية . فلو تيسر ان يكون كل الناس احراراً لكان نصيبك من التمتع عشر نصيبك منه الآن . فلا تقدر ان تتمتع ما لم يتقشف عشرة اشخاص غيرك . وهذه المبادىء التي يسمونها ادبية ليست الا قيوداً للفقراء لكي يستحكم الاغنياء منهم لامتصاص دمائهم والتمتع باتعابهم

فقهقه فهيم قائلاً اراك تتكلمين كاشتراكية فلا انت عاملة ولا انا صاحب عمل . فلماذا تتعرضين لمسألة التنازع في الامور الاقتصادية . نحن نتكلم بمسألة المبادىء الادبية

— كل الامور مرتبطة بعضها ببعض . ترى الفقير بل المتوسط يقمع شهواته ويحرم

نفسه لذاتها ويلزم جانب الاستقامة حتى ينال سمعة حسنة ويذاع عنه انه فاضل . فالفضيلة هي رأس ماله الوحيد وبها وحدها يكسب ثقة معامليه . ولذلك تراه اذا قرب في سبيله من منتدى للفجور او الخلاعة او القمار تجنبه لئلا يقال عنه انه فاسق او خليع او مقامر فيخسر ثقة معامليه وبالتالي يفقد مسترزقه ويعد ملوثاً بالعار . واما المثري المستقوي بماله فيقفى الحسان كما يقفى الجياد ويتقلب بين الحانات واندية القمار كانه يتردد بين المعابد والمساجد وليس من يجسر ان يفتح فمه بمثلبة به . بل يضطر المقرّبون اليه ان يجلوه وينعتوه بجميع النعوت الحميدة كانه نموذج الفضيلة

— لا انكر هـذا الواقع ولـكني لا اجد علاقة بينه وبين موضوع اهتضام الاغنياء للفقراء

— بينهما كل العلاقة . فاذا كان كل الناس افاضل مستقيمين وكل منهم قنوعاً بحقوقه فلا يكون ثمت هاضم ومهضوم . ولـكن لما كان الناس اثنين متنازعين — الواحد شرير طماع والاخر فاضل قنوع — صار في وسع الاول ان يختلس حق الثاني حين يكون القانون غامضاً ومنفذ القانون غافلا . اما الثاني فلا يستطيع ان يختلس حق الاول لان الفضيلة شكيمة لضميره تكبح نفسه عن الاعتداء على حق سواه . فترى ان الاول حر والثاني مقيد وهما في ساحة نزاع فالاول مستحكم من الثاني طبعاً ولهذا استقوى الاول بما اختلسه من الثاني فصار ذاك غنياً وهذا فقيراً . وذاك سيداً وهذا عبداً وذاك فوق المبادئ الادبية وهذا تحت نفوذها

فبهت فهيم من تعليل نديمة وتحمس في الرد عليها قائلاً : — لا انكر ان الفضيلة قيد لذويها يضعفهم تلقاء قوة الاشرار . ولـكني لا اسلم ان الطمع يفضي الى الغنى دائماً ولا ان الفضيلة تقود الى الفقر . فبين الفقراء اشرار وبين الاغنياء افاضل

— ولا انا قلت ما لا تسلم به كما اني لا انكر هذا الاستثناء الذي تقوله . وانما اقول لك ان معظم الذين ادّخروا الثروات الطائلة في حياتهم لم يحرز الواحد منهم جنيهاً الاّ كان أحد السذج المتمسكين بالفضيلة قد اشتغل مجاناً شغلاً يساوي الجنيه . فاذا لم يوجد في العالم كثيرون مثل هؤلاء السذج فلا يمكن ان يجمع اولئك الطماعون تلك الثروات الطائلة

فقهقه فهيم قائلاً : « اذاً فلتحيَ الفضيلة »

فقالت نديمة باسمة : — لا تهزأ بقولي يا فهيم . نعم فلتحي الفضيلة وليكثر الافاضل السذّج لانهم هم الاغنام التي تقتات بها ذئاب البشر

— كانك تمثلين الاغنياء بالذئاب

— ليس الاغنياء كلهم ذئاباً . بل بينهم اغنام سمينة تأكلها ذئاب اخرى قوية . كما انه ليس كل الافاضل اغناماً بل فيهم ذئاب في جلود الاغنام يقفون في المعابد يضرعون ولكن لاله المال ويصلون وهم يفكرون في استنباط المكايد لغيرهم . هم الفريسيون الذين قال عنهم الناصري انهم يعفون عن البعوضة ويبلعون الجمل . فهؤلاء اشر الذئاب . والحمد لله انك لست منهم بل انت ذئب قوي لا يخشى ان يقتات جهاراً باغنامه

وهنا قهقهت نديمة ملء شدقيها وقهقه فهيم معها . ثم قال : — والله انك لفيلسوفة . وما كنت اظنك محنكة هذه الحنكة فمن اين لك كل هذه الخبرة يا نديمة ؟

فابتسمت قائلة : — لقد اختبرت العالم جيداً يا فهيم . وذقت حلوه ومرّه وكنت سيدة وامة وذئباً ونعجة

— ولكنك خبيرة جداً بشؤون الاغنياء

— لاني كنت خليلة غني

— اين ؟

— هنا في مصر

— من هو ؟

— لا اود ان اقلق راحته الان في رمسه . دعنا منه

— دعينا منه . نعود الان الى هيفاء . أليس لها اهل يهمهم ان يعلموا مصيرها ؟

— كلا لا تخف ليس لها اهل غيري

— ابوها ؟ امها ؟

— لا اب ولا ام

— عموم ؟ اخوال ؟

— لا يهتمون بامرها

— من هم ؟

— لا تسل عنهم

— اود ان اعرف اصلها وفصلها والا فلا اجسر ان اقدم على المشروع الذي اقترحته

— لا تعقد المسألة يا فهيم

— ماذا يضرك ان تقولي من هم ؟ اذا كانوا لا يهتمون بامرها فاود ان اعلم لمن انتسب فيما لو صارت هيفاء حليلتي ولو بالرغم مني

فاستبشرت نديمة بهذا الجواب وقالت : — اطمئنك . انا صارت هيفاء حليلتك فلا تخجل بمن تنتسب اليهم بل تفتخر فاطمئن ولا تستزدني اعلاماً

— يالله قولي لي من هم اهلها والسر بيننا فلعل لي في المسألة نظراً آخر

ففكرت نديمة هنيهة ثم قالت : — اخاف ان يضرني القول فاعذرني وثق اني لا اخدعك . فالفتاة تنتمي الى عائلة رفيعة الشان فان اتخذتها حليلة لا تندم . وان اردتها خليلة فلا يهمك نسبها ولا انت مسؤول . فثق بي وطاوعني . لست اخدعك

— لا افهم لماذا يضرك القول وانا اتعهد لك بشرفي ان لا ابوح بكلمة فثقي بي كما انك تطلبين اليَّ ان اثق بك

— يضرني القول لان اهل الفتاة بعد ان اهملوها كل هذه المدة الطويلة عادوا يسألون عنها . اما انا فبعد ان عانيت في تربيتها حتى اصبحت ثمرة يانعة لا اود ان اردها اليهم

— تودين ان تبيعي هذه الثمرة ؟

— نعم . ولا ابيعها بخسة ولهذا اقدمها لك . فلم أربِّ لغيري بل لنفسي واود ان انال جزاء تعبي

— اذاً كنت منذ الصغر تربينها لهذه الغاية ؟

— نعم ولهذا جاءت آية في الجمال . هل تنكر جمالها ؟

— الحق انها نادرة الجمال والا لملت علاقتي معكِ . فالفضل لك في جمالها اذاً ؟

— نعم نعم لان تربية الجمال فن . فلما رأيت ان جمالي زائل وادركت ان نهايتي قد تكون تعسة جعلت اعنى بهذه الفتاة حتى انفق ثمن جمالها في سبيل الاحتفاظ بسعادتي فلا اظن احداً يلومني على ذلك

— لا تلامين يا فيلسوفة . ولكن لماذا اهملها اهلها كل هذه المدة ؟

— لانهم لم يريدوا ان يتحملوا مشقة تربيتها بعد وفاة ابويها فتركوها لي حتى اربيها . ولما كبرت وصارت نافعة لهم راموا ان يأخذوها

— فكيف استطعت منعهم من اخذها ؟

— لم استطعه الا بالهرب بها الى هنا

— لعلهم يبحثون عنها هنا

— لا يدرون اين نحن ولن يدروا . وقد احتطت لكل شيء واصبحت في مأمن تام منهم

— يلوح لي انك ابدلت اسمك واسمها

فضحكت ندية وبقيت ساكتة فقال

— هل تعرف الفتاة اهلها ؟

— لو كانت تعرفهم ما كنت استطيع الاحتفاظ بها

— من هم يا ترى ومن اي بلد هم ؟

— ارجو ان لا تطلب ان تعلم اكثر مما علمت . ولنعد الى المشروع الان

— المشروع ؟ سافتكر به واجاوبك قريباً

الفصل السادس عشر

تاريخ قديم

في تلك الاثناء جاء الى مصر قسيس يدعى الاب امبروسيوس وقصد الى بطركخانة طايفته . وقال للبطريرك انه جاء بمهمة كبيرة فيها خدمة الانسانية وفائدة للكنيسة . فسأله البطريرك عن هذه المهمة

فاجاب : — جئت لابحث عن فتاة اوصى لها جدّها بميراث كبير وقد كلفني بان ابحث عنها بعد موته حتى اذا وجدتها وتولت ميراثها كان لي الف جنيه جزاء بحثي . وبالطبع تأول الالف جنيه للكنيسة فارجو من غبطتكم ان تساعدوني في البحث عنها

— حسنٌ . لا ندخر جهداً بذلك ولكن لا بد من الاطلاع على معلوماتك حتى نستطيع البحث . فمن هي الفتاة ومن هو جدها ؟

— جدها هو المرحوم الامير صادق الخزامي المثري الكبير في دمشق

— سمعت باسم هذا الامير فمن اين كانت له الامارة ؟

— امارته موروثة عن اجداده الخزاميين الذين كانوا امراء قبيلة نصرانية في حوران وقد هاجر الامير نعيم الخزامي الى دمشق واستقر فيها وحوّل ثروته اليها وانماها فاورث ابنه الامير صادق ثروة طائلة جداً

— كيف فقدت هذه الفتاة ؟

— لذلك قصة طويلة روى لي الامير صادق نفسه تفاصيلها ولا بد من سردها لغبطتكم . ترمل الامير صادق في اوائل عهد زواجه وتركت له امرأته غلاماً يدعى الامير خليل . ثم تزوج بعد ذلك ريّة ابنة الشيخ ضامر من مشايخ نصارى حوران الذين كانوا مقدمين بعد الامراء الخزاميين وكانوا يتمنون الانتساب اليهم فولدت للامير غلاماً

هو الامير ابرهيم . ولا يخفى ان المرأة قلما تحب ابن زوجها من امرأته الاولى ولا سيما اذا كان لها بنون . اما ريمة فلم تكن تحب الامير خليلاً فقط بل كانت تكرهه وكانت شريرة وداهية جدّا وتريد ان تحصر ارث زوجها الطائل بولديها كما ظهر بعدئذ

— يا لله من شرها !

— وقد شب البنون الثلاثة وكان الامير خليل ذليلاً جدّا لسوء معاملة امرأة ابيه له

— وهل كان ابوه الامير صادق راضياً عن ذلك ؟

— لم تكن معاملتها السيئة لابنه ظاهرة وكانت فائقة الدهاء حتى اعمت زوجها عن الحقائق فكانت تحول دون زواج الامير خليل كلما سنحت فرصة لزواجه كما انها كانت تحول دون تربيته التربية الصالحة فشب قليل العلم سيء السلوك . ثم زوجت ابنتها وبقي ابن زوجها الامير خليل بلا زواج الى ان صادف فتاة في قضاء البترون فتزوجها من غير ان يستشير اباه لانه كان يعلم ان ريمة تحول دون زواجه . فلما علمت ريمة بزواجه استشاطت واعلنت نقمتها عليه بدعوى انه تزوج فتاة من نسب دنيء فاضطرت اباه ان يطرده هو وزوجته من المنزل وان يعيش وحده وعين له راتباً صغيراً ليعيش به مع زوجته . فسكن الامير خليل مع زوجته في منزل بعيد مضطرّا ولم يعد يتردد على دار ابيه الا نادراً . ثم رزق الامير خليل غلاماً سماه يوسف فاشتعلت ريمة غيظاً مع ان ابنها رزق غلامين اسم الاول فضل واسم الاخر سليمان ولكنها كانت تروم ان لا يكون لنسلها شريك في الميراث

وفي ذات ليلة وافى الامير خليل الى دار ابيه مرتعباً . ولما سئل عن امره قال انه أحرج الى مشاجرة بعض الناس بدعوى انه سب السلطان وكادوا يقتلونه . ولكنه افلت من بين ايديهم بعد ان طعن احدهم بخنجر ولا يدري ان كان حياً

وبعد مفاوضة قصيرة قرّ رأيهم على ان يهرب الامير خليل من سوريا والا كانت حياته تحت خطر لا يدرأ واعطاه ابوه مبلغاً من المال وجواداً فهرب

— الى اين ؟

— قيل انه هرب الى بيروت وركب باخرة مسافرة الى بلاد اليونان

— وهناك ؟

— قال لي المرحوم الامير صادق ان ابنه الامير خليل تجند بعد حين في الحرب اليونانية العثمانية وقتل فيها . وحين هرب كان ابنه يوسف في التاسعة من عمره وكان

الغلام وامه كقذى في عيني ريمة فكانت تسيء معاملتهما جدا حتى ان حنة البترونية ام الغلام يوسف لم تعد تطيق البقاء في دمشق تحت رعاية الامير فرأت العودة الى اهلها في البترون . فابى الامير صادق ان تأخذ الغلام معها . فذهبت وحدها بعد ان زودها الامير بالمال القليل اشفاقاً عليها لانها كانت في بدء حمل حينذاك . ثم علم الامير صادق انها ولدت ابنة فارسل اليها بعض المال . وبعد ذلك لم يعد يقف لها على خبر لان ريمة كانت تحول دون ذلك

— يالله من هذه اللئيمة

— ما اكتفت بذلك يا مولاي بل كانت متيقظة من وجود الغلام يوسف فكان جده يبعده عنها داعماً الى المدارس . ولكن لما بلغ الغلام نحو الخامسة عشر من عمره كان في الصيف في منزل جدّه . فجاء الى الامير ذات ليلة انذار بان الحكومة علمت ان للفتى صلة بجمعية تركيا الفتاة وانها ستقبض عليه لانها وجدت مع آخرين اوراقاً تثبت عليه هذه التهمة . فاسرع الامير وارسله الى بيروت . ومن هناك سافر الغلام الى اوربا ومعه بعض المال . وبالفعل باغتت الحكومة منزل الامير ووجدت فيه بعض الاوراق المشتبه بها . ولو لم يدفع الامير الاموال الطائلة ويثبت اخلاصه للدولة وعبوديته لجلالة السلطان ما نجا من هذه الحادثة

— لكن لماذا لم يتلف الفتى الاوراق قبل هربه لكيلا يقع جده تحت الشبهة ؟

— هذا ما لم استطع ان افهمه ولا فهمه الامير . والذي لاح لي حين سمعت القصة ان في الامر دسيسة من ريمة زوجة الامير لانها كانت تود ان تدهور الغلام . ولما ذكرت هذه الملاحظة للامير امتعض وتنهد كأن ضميره قد خالجه بذلك . والذي اظنه ان ريمة نفسها دست الورق ووشت بالغلام

— او لا تظن ان مسألة الامير خليل بدسيسة أيضاً ؟

— ليس ببعيد أن تكون ريمة الشريرة قد دست اناساً يحرضون بعض المسلمين لكي يتحرشوا بالامير خليل حتى حدثت له تلك الحادثة المشؤومة التي ادت الى فراره

— ثم ماذا جرى بالغلام ؟

— كاتب جده برهة ثم انقطعت رسائله عنه أو ان ريمة وابنها كانا يمسكان رسائله عن جده وهكذا انقطعت اخباره

— والآن انت تبحث عن الفتاة ابنة حنة البترونية التي ولدت في البترون

— نعم لان جدها كلفني بالبحث عنها . وتحرير الامر انه منذ بضع سنين

استدعاني الامير اليه سرّاً وقال لي انه يشعر ان منيته قد دنت وانه يود ان ينقي ضميره قبل موته . وشكا لي سوء سلوك ابنه الامير ابراهيم وسلوك حفيديه فضل وسليمان فانهما شبا على سيرة رديئة وابوهما لم يحسن تربيتهما لانه هو نفسه سيء الاخلاق وكثير الموبقات ومن افعاله الشريرة انه كان في منزله فتاة تسلّم ولديه فضلاً وسليمان وهما صغيران فاستغواها . ولما قاربت تلد زوّدها ببعض المال وردها الى اهلها في بيروت . وكان لها ابن عم فجاء يطالبه بتعويض فاخذ منه مبلغاً كبيراً . وقس على هذه القصة قصصاً كثيرة . وابناه ينتهجان الآن منهجه . ومنذ اربعة اعوام هرب احدهما سليمان الى اميركا لانه كاد يؤخذ بخيانة للدولة ولم يعد احد يعرف مصيره . وفي ايام الامير صادق الاخيرة كان ابراهيم وابنه فضل يبذرقان ثروة ابيهما ويستدينان والامير صادق يتألم من سوء تصرفهما حتى كره ابنه وحفيديه ولهذا استدعاني سرّاً وكتب وصيته موصياً بثروته لابنه خليل ولاخيها يوسف اذا امكن الاهتداء اليهما

— ورعة ؟

— من حسن الحظ انها كانت قد ماتت والا لما استطاع الامير استدعائي لانها كانت تحول دون كل امنية له وتضع اصبعها في كل امر وكان يخافها جدّاً لانها كانت سليطة

— والوصية ؟

— معي . ها كها

فتناولها البطريرك وبعد ان قرأها مليّاً قال انها ناطقة بارادة الامير

— وهي بخطه والشهود احياء

— متى مات الامير ؟

— منذ بضعة اشهر

— هل بحثت عن الفتاة وامها في البترون ؟

— نعم ذهبت الى البلدة التي ارشدني اليها الامير واتفق ان اول من سألته عن حنة كانت ندرة الزعفران اخت حنة اي خالة الفتاة . وبعد مباحثة قصيرة قالت لي ندرة هذه ان اختها كانت تقيم في بلدة اخرى منذ عهد طويل وهي وطنها الاصلي . فذهبت الى البلدة الاخرى التي ارشدتني اليها ندرة فما وجدت حنه ولا ابنتها بل قيل لي هناك ان حنة ماتت منذ زمان طويل وان ابنتها مع خالتها ندرة الزعفران وهذه هي التي ربتها . فلما عدت الى ندرة لافهم مكرها علي وجدت انها رحلت بالفتاة خلسة . وبعد

التحري علمت انها سافرت بها الى القطر المصري لان ندرة هذه كانت في هذا القطر في اوائل صباها وما عادت الا على اثر موت اختها فتولت امر الفتاة وربتها كابنتها

— عجب لماذا مكرت هذا المكر . ولماذا رحلت بالفتاة ؟ . .

— ما زلت استغرب ذلك

— ماذا كلمها بشأن الفتاة ؟

— قلت لها ان اهلها يطلبونها ولكني لم اخبرها شيئاً عن الوصية وميراث الفتاة من جدها لئلا يبلغ الامر الامير ابرهيم وابنه فيعجلان بمحق التركة وقد يسعيان الى دهورة الفتاة . بيد اني احتطت لكل ذلك اذ اتفقت مع الشهود الذين شهدوا على صحة الوصية ان نكتم امرها الى ان نعثر بالفتاة

فلعب البطريرك بلحيته وهو يفكر ثم قال : — تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . ولعلك لو اسررت الامر لخالة الفتاة ما كانت تنكرها عليك وقد لا تكون ملوماً في الكتمان . ولكن لماذا هربت هذه الشقية بها ؟

— لم ادر لعلها ابت ردها الى اهلها بعد ان ربتها والله اعلم

ففكر البطريرك هنيهة ثم قال : — لا بد لنا من مساعد في البحث عن الفتاة وهو المسيو بولس المراني فانه من رجال الطائفة الذين يعتمد عليهم وله معرفة واسعة باحوال مصر

ثم تناول البطريرك التلفون وخاطب به المسيو بولس المراني

فقال الاب امبروسيوس : — وانما ارجو يا سيدي ان لا تروي الحكاية برمتها للمسيو بولس المراني وان رويتها له بالاختصار فلا تذكر له الاسماء لان كتمان الحكاية ضروري لحماية الثروة من مبددها كما لا يخفى على غبطتكم

فوعده البطريرك بالكتمان على قدر الامكان

الفصل السابع عشر

سفر التكوين

في تلك الاثناء كانت ليلة ساهرة في منزل الخواجه بطرس المراني ابي نجيب وليلى فكانت ردهة الاستقبال حافلة بجماعة من الاصدقاء نخص بالذكر منهم الدكتور صديق افندي هيزلي ابن خال ليلى وسليم افندي هيزلي ابن عم الدكتور صديق المذكور . وقد ورد ذكره قبل الان وعرف القارىء انه موظف في مصلحة التنظيم وهو الذي توسط

ليوسف برّاق في توظيفه بتلك المصلحة بناء على توصية من بولس المراني . وبالطبع كان ايضاً هناك بولس افندي المراني اخي الخواجه بطرس صاحب المنزل . هذا عدا افراد آخرين من رجال ونساء

وقد اعتاد الساهرون في منزل المراني ان يجدوا السهرة كفيلة ادبية اذ يتخللها بعض الوقت تلاوة قصائد او نتف ادبية جديدة او احاديث في مواضيع علمية او سياسية لان نجيب واخته كانا عشاق الادب . ولهذا كان معارفهما ممن يميلون الى الادب كثيرا او قليلا

ولا نطيل الحديث على القارىء فان مسامرة الساهرين في تلك السهرة أدت الى بعض القصائد الجديدة التي نشرت في بعض مجلات ذلك الشهر فتلا بعضهم بعضها على الحضور فكانت تروق للكثيرين منهم وفي اثناء ذلك قال نجيب المراني : — عندي شيء جديد . جديد بكل معنى الكلمة اريد ان اتلوه عليكم . فعسى ان يروق لكم

فقال صديق هيزلي : — هل عكفت على صناعة القلم يا نجيب . اخاف ان يكون حظك اخيراً حظ حملة الاقلام

— ما انا الا دخيل في فن القلم يا صديق فلا اتخذه صناعة بل حلية لصناعتي وانت تعلم ان القلم دفة لسفينة المحاماة

فقالت ليلى دعنا نسمع لنحكم ان كنت تحسن ادارة هذه الدفة

فتناول نجيب ورقة من جيبه واعتدل في مكانه وجعل يلقي المقال التالي خير القاء كانه يعظ في معبد . قال : —

سفر التكوين

في البدء تزوجت القوة المادة فولدتا سدماً وكانت الجاذبية ذكورة والدافعية انوثة . ثم نضجت السدم فكانت اجراماً وكان دورانها في افلاكها مداعبة

تلك قوة القوى وتلك مادة المواد

تفرقت القوة في نسلها كتفرق المادة في ذريتها

لكل نظام شمسي قوته القصوى ولكل ارض قوتها ولكل ذرة قوتها

كل ارض تحوم حول شمس هي امها حتى اذا اعرضت عنها جلبتها بجلباب من غمام . واذا مالت اليها كستها بثوب من ربيع . بيد انها لا تخرج عن دائرة قوتها بل كلما فقدت قوة تتقرب منها لتستمد منها قوة جديدة . والأم تدخر القوة القصوى

ثم تزوجت القوة الثالوث الهيدرو ـ كربو ـ نيتروجيني فولدا المبدأ الحيوي ـ البروتوبلاسم . وتزوجت القوة مجموع المبادئ الحيوية فولدا ـ « القلب »
بذلك التفرق تفرقت القوة القصوى . وبهذا التجمع تجمعت ـ « في القلب »

☆☆☆

كل قلب مركز لقوة قصوى . وهو يفرقها على المبادئ الحيوية التي تدور حوله في البدن دوران الاقمار حول سيارها
كل قلب عالم قائم بذاته . وعوالم القلوب اجرام تدور في افلاكها متجاذبة متدافعة
قوة القوى تلعب بالكل متجمعة متفرقة

☆☆☆

القوة منحلة — العدم
القوة متحدة — الحياة
القوة متمدّدة — العقل
القوة متقلصة — الشعور
ما بين التمدّد والتقلص — التناقض — السر الذي لا يدرك — « الحب »

☆☆☆

اين الفهم لإدراك نظام الاتحاد والانفصال او نظام التمدّد والتقلص ؟
واين القدرة للسيطرة على هذا النظام ؟
لو امكن الفهم لصح الاختيار
ولو وجدت القدرة لصحت الحرية
لا فهم ولا قدرة فلا اختيار ولا حرية
لقوة القوى الامر والنهي

☆☆☆

ماذا يشمل هذه الكواكب السوابح — فضاء

وما وراء هذا الفضاء — اللانهاية
وما الذي يحتوي هذه اللانهاية — قلب

***

ماذا كان من قبل — ازل
وماذا يكون من بعد — ابد
وماذا يشمل الازل والابد — سرمد
وماذا يشمل السرمد — دائرة حب

***

ما الحب — قوة تمدد القلب حتى يحتوي اللانهاية والسرمد . او تقلصه الى ذرة . او تنفصل عنه فيعود عدماً

***

رامت القوة القصوى ان ترقي الطبيعة فاستخرجت من السديم ارضاً ومن الارض حياة ومن الحياة شعوراً ومن الشعور قلباً ومن القلب حباً . فاذا بها تجد نفسها فيه . وهنا وقفت

***

واغترت الطبيعة بارتقائها فحاولت ان تتجبر على القوة . فاستخرجت من الحياة نفساً ومن النفس روحاً ومن الروح ملاكاً . فوجدته كتلة من حب

***

ورامت الحياة ان تتفوق على القوة والطبيعة معاً فحولت نفسها الى عقل والعقل الى ذكاء . ولما رام الذكاء ان يطوف بين الافلاك ويخترق اعماق المادة ليتفهم نواميس الطبيعة و يستخدمها لاسعاد الحياة وجد نفسه لا يفهم الا ناموس الحب

***

ورامت النفس ان تنافس الجميع فكست نفسها بالضمير ثم حلته بالفضيلة فوجدت انها تحليه بالحب

☆☆☆

ومتى بلغ الرقي حيث ابتدأ استتم دائرته . والدائرة لا تقبل مزيداً

☆☆☆

الحب وقوة القوى سرٌّ واحد

☆☆☆

القلب آلة الحب وبه يفعل الحب ما يشاء

يخترق قلوب الجبال ويطير باجنحة من بخار ويمشي على الثلج ويسرع مع البرق ويسبح في الاثير ويقيم العروش ويدحرج التيجان ويثير الحروب ويبسط السلام على الخليقة

☆☆☆

اذا استطعت ان تستنزل ملاكا الى الارض او ان يستصعدك ملاك الى السماء فاعلم انك تحب

اذا استطعت ان تعصي فؤادك فلست تحب

☆☆☆

القلوب جواذب دوافع . وبينها ما بين العناصر من الالفة والتنافر

القلب الاقوى حباً اغلب جذباً

اكثف الحجب اشف من الاثير للقلوب

للقلوب لغة واحدة — الخفوق

نبضات القلب كلماته . وامواج الاثير تنقلها الى القلب الذي يفهمها

قلب في الشمال وقلب في الجنوب فاذا تخافقا تفاهما

فما اسماك ايتها القلوب واعظمك

☆☆☆

يا قوة القوى انت المعبود الاسمى . ان القلوب خاضعة لنظامك المجهول . فاشغلها بقوتك لكي تتجاذب وتأتلف اذا كان مجدك بأتلافها

ولما انتهى نجيب من التلاوة طوى الورقة واجال نظره في الحضور فاذا كلهم سكوت كأن على رؤوسهم الطير فقال : — اظنها لم تعجبكم لانكم لم تصفقوا لها

فقالت ليلى مبتسمة : — وهل يصفقون بعد قراءة الكتاب المقدس

وقال الدكتور صديق هيزلي : — اقسم بالله انه ليس لقلمك قطرة في هذه المقالة — ان الذي كتبها انسان مثلي ايضاً

— من هو هذا الكاتب الفيلسوف الذي تلد قريحته هذه الحقائق الشعرية ؟

فضحكت ليلى وقالت : — الحقيقة والشعر لا يجتمعان

فقال الدكتور صديق هيزلي : — في هذه المقالة اجتمعا وهنا العجب . فبالله من كتب هذه النبذة يا نجيب ؟

— كتبها كاتب لا يعرفه احد كاتباً وهو يوسف براق

فقال سليم هيزلي : — لا استغرب ان تكون هذه النبذة من قلم يوسف لاني توسمت من احاديثه سعة العلم وحدة الذكاء . فلماذا لا ينشرها في احدى المجلات

— يلوح لي انه لا يهتم بنشرها . ولو لم اجدها بالصدفة عنده حين زرته أمس ما اطلعت عليها . ولما قرأتها اعجبت بها جداً ورغبت اليه ان يأذن لي بنسخها فنسختها

عند ذلك استأذنت ليلى من اخيها ان يريها الورقة فتناولتها منه وجعلت تتلوها وحدها واسترسل القوم بالاحاديث المختلفة وليلى لاهية بمطالعة المقالة . فقرأتها اولا وثانياً وثالثاً وهي تنعم النظر في كل جملة ولم تكف عن القراءة حتى جاء عمها بولس المراني وجلس الى جانبها قائلا :

— هل تأذنين لي ببعض اسئلة يا عزيزتي ليلى ؟

فاختلجت ليلى قليلا ظانة انه سيباحثها بامر لا تريده فقالت له : — باي موضوع ؟

— اود ان اسألك عن حقيقة الفتاة هيفاء التي كانت خادمة عندك فقد سمعتك مرة تقولين انها فارة من منزل امها لانها تريد ان تزوجها من رجل غني لا تريده . ثم ان الفتاة خرجت ذات صباح ولم تعد فهل عرفت اين ذهبت

— كلا . وانما رجحت انها عادت الى امها او ان امها عثرت عليها فاخذتها قسراً

— هل تعرفين اين تسكن امها ؟

— نعم كانت تسكن في منزل قريب منا في الشارع العباسي وقد ارسلت من يسأل عن الفتاة هناك فوجد المنزل فارغاً . لماذا تسأل عن هذه الفتاة ؟

— لامر يهم بعض الناس . هل انت واثقة ان المرأة التي تصطحبها امها ؟

— لم تقل الفتاة انها ليست امها . ولكن معاملتها لها تريب

— بماذا تريب ؟

— فهمت من الفتاة انها كانت ترغمها على معاشرة الرجل وكان الرجل يتطاول على الفتاة ولهذا نفرت منه واضطرت ان تهرب من عند امها

— هل تعرفين من هو هذا الرجل ؟

— اتذكر ان الفتاة ذكرت اسمه فهيم بك راغ ولكنها لا تعرف عنه شيئاً سوى انه غني جداً . وانما نفرت منه لانها ساءت الظن بقصده

الفصل الثامن عشر

شيء من التاريخ ايضاً

بعد ارفضاض الساهرين من السهرة ذهب الدكتور صديق هيزلي وابن عمه سليم معاً فقال صديق : — هل لاحظت الليلة امراً يا سليم ؟

— ماذا ؟

— في ليلى

— كانت صامتة مفكرة خلافاً لعادتها . هل اعدت عليها الكرة ؟

— في هذا الاسبوع خاطبها عمها بشأني كثيراً فاصرَّت على الرفض مع انها كانت فيما مضى لينة بعض اللين فلا ادري ما الذي غير فكرها

— هل انت واثق ان اباها واخاها راضيان تمام الرضى ؟

— لا ريب عندي بذلك وقد صرح لي ابوها انه يتمنى ان لا ترف ليلى احداً غيري ولا تحب سواي . واكد لي انه كل حين بعد آخر ينصح لها بالزواج مني . وكذلك اخوها نجيب لا يكل عن نصحها وهي لا تزال مكابرة . ولهذا كلفت عمها بولس ان يبحث معها ليكشف سرَّ ما بها

— فماذا فهم بولس منها ؟

— لم يستطع ان يفهم شيئاً سوى انها ترفض . ولما الحَّ عليها ببيان السبب قالت انها لا تريد ان تتزوج . ولما جعل يعظها بان الزواج لازم للفتاة نفرت منه وقالت انها لا تقبل نصح احد في امر يهمها وحدها

— هل تظن يا صديق ان الفتاة تحب شخصاً آخر

— لم يبق الا هذا الظن ولهذا سألتك ان كنت قد لاحظت امراً الليلة

— لم الاحظ الا انقباضها خلافاً لعادتها

— ومقالة يوسف براق ؟

— نعم لاحظت انها قرأتها طويلاً . وهل هي تعرفه ؟

— زار المنزل مرة واحدة فقط لاوائل قدومه على ما فهمت . وبعد ذلك كنت قد سمعت من نجيب انه لم يزره بعدها قط مع ان نجيب كان يلح عليه بالزيارة فيعتذر

— وهل تظن ان هذه الزيارة كافية لانشاء حب يشغل ليلى عن خاطب مثلك

— لا ادري ان كانت قد رأته بعد ذلك . والآن صرت اظن ان الذي وقاها من حادثة المركبة هو يوسف لانها لما سئلت عن الذي انقذها كنت حاضراً فانكرت معرفته ولكني شعرت بلعثمة في كلامها واكفهرار في وجهها . وتلاوتها للنبذة الليلة شغلت بالي ورجحت لي انها تحب يوسف هذا . افلا تقدر ان تستخرج شيئاً من صدر يوسف اثناء حديثك معه ؟

— سافعل ولكني لا ادري ان كنت استطيع علم شيء منه لانه متحفظ جدّاً في كلامه وليس عندي الا طريقة واحدة للبحث معه

— ما هي ؟

— هي ان اسأله صريحاً في الامر وارجح انه يضطر ان يجيب ولو تلميحاً لاني اعرفه لا يكذب فانا استعين بصدقه على كشف سرّه

— حسن . اود منك يا سليم ان تبذل جهدك في كشف سره ولا اظنك تبخل على ابن عمك بخدمة

— ما نحن ابناء عم يا صديق بل اخوان متعاونان فثق اني لا ادخر جهداً . ولكن هب ان الظن صحيح وان ليلى مولعة بيوسف وهو مولع بها فماذا تفعل ؟

— آه يا سليم لا ادري ماذا افعل ولكني ابذل جهدي في التفريق بينهما باي وسيلة وستكون بيني وبين يوسف براق حرب

— لا بأس من الحرب يا صديق وانا عونك فيها ولكن الحب ظافر

— ولكن الخصم الذي يحتفظ بمصلحته لا يسلم لخصمه الا بحرب والا فهو جبان وضعيف

— ولكن المصلحة شيء والحق شيء آخر فاذا كانت ليلى تحب يوسف براق كان صاحب الحق وكنت انت مغتصباً

صدقت ولكن الحق للقوة فاذا استقويت عليه صرت صاحب الحق

— لا تقدر ان تستقوي عليه الا بالحب . افما تعلمت درساً من مقالته الليلة ان القلب الاقوى حباً اكثر جذباً ؟ فاذا كان اقدر منك على استمالتها كان فائزاً عليك . فبماذا تحاربه بغير الحب ؟

— انا لا اكترث بالنظريات بل بالعمل

— ليس الامر نظريا بل هو عملي محض . فاذا كانت ليلى مولعة بيوسف براق ولا تحب سواه فماذا تفعل انت ؟

— ابذل جهدي في اسقاطه الى الحضيض بل الى العدم حتى لا يبقى في الوجود لا يوسف ولا براق فتضطر ليلى ان تقبل بي زوجاً اذ لا يبقى لها حبيب

— وهل تتزوجها على غير حب ؟

— افعل

— استغرب ذلك منك يا صديق وانت رجل عصري متعلم وتعلم ان الزواج بلا حب كالبيت بلا اساس . فلماذا تقدم على زواج كهذا لا تأمن مغبته ؟

— لي فيه مصلحة كبيرة

— اهم من مصلحة الحب الزوجي ؟

— قد تكون عندي اهم . على اني اؤمل ان تعود ليلى تحبني كما كانت تحبني قبلاً ولا سيما اذا خلا ذهنها ممن تحبه الان

ففكر سليم هنيهة وقال : — لا افهم هذه المصلحة التي تمكنك من ركوب هذا المركب الخشن فما هي ؟ قلها لي فما انا غريب عنك

فتردد صديق هنيهة وقال : — انك تطلب مني ان ابوح بسري

— لا بأس افما انا مستودع كل اسرارك ؟

— اقسم لي انك لا تبوح بسري

— اقسمت لا تخف . قل

— لا يخفى عليك ان ليلى ابنة عمتي و ....

— نعم ما هي ابنة بطرس المراني بل ابنة زوجته الثانية وما هي اخت نجيب لا من ابيه ولا من امه بل من كونها ربيت معه في منزل واحد كالاخت مع الاخ

— نعم . وهل تعرف اباها ؟

— اعرف ما تعرفه انت وهو ان امها سارة عمتك كانت زوجة رجل يدعى حنا فرزدق فترملت ولليلى طفلة ثم تزوجت بطرس المراني ولم تعد تلد وكان ابنه نجيب

طفلا فربى الزوجان الجديدان الولدين كاخوين

— هذا ما تعرفه انت ويعرفه كل واحد حتى بطرس المراني وابنه نجيب وليلى ولكن الحقيقة غير ذلك

— ما هي ؟

— هي ان عمتي سارة رحمة الله عليها لم تكن ارملة كما نظن . وحكايتها انها كانت قبلا معلمة لاولاد الامير ابراهيم الخزامي في دمشق فاستحواها هذا الزنيم . ولما كاد يشتهر حملها اعطاها ثلاث مئة جنيه وردها . فلما عادت الى اخيها ابي وعلم بمصيبتها لم يقنع بالثلاث مئة جنيه كتعويض لها من رجل غني كذلك الامير . فذهب الى دمشق وناقش الامير بالامر فاخذ منه الف جنيه اخرى واستكتبه وصية سرية من مقتضاها ان المولود الذي تلده سارة يرث حصة كاولاد الامير على شرط ان لا يظهر الوصية الا بعد وفاة الامير . وهكذا حفظ ابي الوصية معه ولم يطلع عليها احداً حتى ولا عمتي المسكينة لئلا يذاع سرها فيغضب ابراهيم الخزامي وتفسد الوصية . ثم انتقل حينذاك ابي بعائلته وعمتي الى مصر وادّعى ان اخته ارملة والبسها ثوب حداد . واستعان بالفلوس التي حصلها من الامير ابراهيم على تزويجها من بطرس المراني . فتزوجها هذا وهو يعتقد انها ارملة واستعان بفلوسها في اشغاله التجارية وصادف نجاحاً ولهذا تراه يحب ابنتها ليلى حتى الآن كحبه لابنه . وبقي هذا السر مكتوماً حتى توفي ابي رحمة الله عليه ففتحتُ وصيته فوجدت فيها نص هذه الحكاية والوصية التي اخذها من الامير ابراهيم الخزامي وهو ينصح لي بوصيته ان اتزوج ليلى لاكون شريكها بميراثها . وهو ميراث طائل لان للامير ابراهيم ابنين فليلى ترث خمس الثروة والخمس يقدر بنحو مئة الف جنيه . فهل ألام اذا سعيت الى الزواج من ليلى باي الوسائل

فبهت سليم لهذه الحكاية الغريبة وقال : — لا والله لا تلام . ان مئة الف جنيه ثروة طائلة وهي في يدك الآن

— وفي يدي وحدي لان ليلى لا تدري حتى الان بشيء من ذلك ولن تدري ولا أحد يدري غيرك

— وهبها درت فلا تصل يدها الى الوصية

— لا ادعها تدري الا بعد ان اعدم الحيل باقناعها فحينذاك اخبرها بالحقيقة بيني وبينها واقول لها ان المئة الف جنيه لا تكون لها الا وهي زوجتي

— حسن

— ولكني قبل ذلك اود ان استخدم كل الوسائل الاخرى لاقناعها . واود ان استعين بك يا سليم ولك مني الجزاء الذي تريده . ولا تظنني كاذباً اذا وعدتك بعشر ذلك المال جزاءً

— اني صديقك على كل حال يا ابن العم

الفصل التاسع عشر

احياء الموتى

وفي ذات مساء كان يوسف ماشياً في جهات الازبكية فشعر بيدٍ وقعت على كتفه فالتفت ورأى الشيخ الملتحي يقول له : — لا اظنني غلطاناً . صديق السجن ؟

— المسيو جورجي آجيوس ؟

— انا هو يا مسيو براق . توقعت لقاءك مراراً في قهوة الشيشة فلم تأتِ

— اتيت مراراً فلم اجدك

— لاننا لم نتفق على ميعاد . فاين تريد ان نجلس الآن اذا لم تكن مشغولاً لاني مشتاق اليك

— وانا مشتاق اليك . نجلس في قهوة الشيشة

— ما اكرم خلقك يا مسيو يوسف . لا تريد ان تحرمني بقية لذاتي

— انها لبشارة حسنة اذا كانت الشيشة بقية لذاتك ومن بقي يسكر ويقامر

— تركت السكر والقمار للشبان الاغرار وبقيت احرص على ما بقي في هذه الشيبة من القوة لاني صرت احسب للآخرة حساباً

— نعم الحساب . بقي عليك واجب يا مسيو جورجي

— وهو ؟

— هو ان تدل هؤلاء الشبان الاغرار على « الآخرة »

— دعهم في غيهم يعمهون . لا يتعظ المرء الا بنفسه . واذا نصحتهم حولوا النصح الى مسبة والصداقة الى عداوة . وانا لا ازال في حاجة اليهم . وفي صداقتهم نفع لي

— واي حاجة لك معهم ولا شغل لهم الا السكر والقمار ؟

— لولا سكرهم وقمارهم لكنت في غنى عنهم . لانهم وهم يبذرقون يضطرون الى الاستدانة تارة والبيع من املاكهم اخرى وفي كلتا الحالتين يحتاجون الى سمسار يتوسط

بينهم وبين الدائن او الشاري فانا هو ذلك السمسار

فاختلج يوسف وقال ممتعضاً : — لا اريد لك هذه الوظيفة يا مسيو جورجي

فاستغرب جورجي اجيوس وقال : — عجباً لماذا ؟ اعظم الدول اذا رامت ان تعقد قرضاً اجنبياً وسطت سماسرة في الامر فالسمسرة ليست حرفة حقيرة او دنيئة

وهنا كانا قد وصلا الى قهوة الشيشة فجلسا وقال يوسف : — ولكن سمسرتك لاولئك الاغرار غير شريفة فكانك تتوسط لهم في خرابهم فلا اريدك وسيلة الا للخير

فضحك جورجي اجيوس وقال : — اذا لم اتوسط انا لهم فيتوسط غيري . وامتناعي انا وغيري عن الوساطة بينهم لا يقيهم من الدمار لانهم قد تدمروا من قبل ونحن نساوم الان على الانقاض

— عجباً ألا يخطر لهؤلاء ان ثروتهم قد تفرغ قبل أن تفرغ اعمارهم

— كلا . لان اعمارهم فرغت قبل ان فرغت ثرواتهم فهم الان موتى . وما حاجة الميت الى الثروة ؟

فاعجب يوسف من اجوبة جورجي أي اعجاب وقال : — وهل يعلم هؤلاء المساكين انهم موتى ؟

— ومتى كان الموتى يحسون حتى يعلموا ؟

— اذا كانوا يحيون يعلمون . أفليس في وسعك احياءهم ؟

— لم اوتَ قوة عمل المعجزات

— لا انكر ان الامر صعب يامسيو جورجي ولكنه ممكن جداً . ألا تعتقد انك انت كنت ميتاً فحييت ؟

فابتسم جورجي وقال : — نعم وقد فعلت انت المعجزة باحيائي يا يوسف ولك عليَّ ....

— لا تقل شيئاً اذ لم افعل امراً سوى اني كنت واسطة لتنبيه القوة الحية الكامنة فيك . فهي كالماء المحبوس في الحوض وانا قد فتحت « الحنفيَّة » فتدفق الماء . وانت تستطيع ان تفعل هذه المعجزة لاصحابك اذا كنت تشاء ان يحيوا

— أشاء ولكن ما قولك اذا كان حوض حياتهم قد نضب وقد فتح « الحنفية » قبلي كثيرون فلم تقطر قطرة حياة

— جرب فتحها انت فلعل غيرك لم يهتد الى اسلوب فتحها الصائب . واذا مهدت لي السبيل فاساعدك في ذلك

فنهل جورجي نهلة عميقة من « الشيشة » ونفخ غيمة من دخانها ثم قال : — عبثاً ياصديق عبثاً تهتم في الامر. ولا ادري لماذا تهتم باحياء الموتى والدنيا تكاد تضيق بالاحياء. اما كفانا ما حولنا من الاحياء الذين يكافحوننا ونكافحهم حتى نحيي امواتاً لنزيد عدد المتكافحين في الدنيا . فدع الموتى في قبورهم

— لو كانوا موتى الجسد لتركناهم في قبورهم طبعاً ولكنهم موتى النفس فلنحيي انفسهم لنزيد جيش الخير قوة والا بقوا من جنود الشر . والقوة المالية التي لهم تقدرهم على التخريب والتدمير في بناء الهيئة الاجتماعية . الا تراهم يبذلون هذه القوة على احياء محالّ القمار والحانات والملاهي واماكن الفجور فكانهم ينفقون مالهم في صنع الاسلحة لتسليح الشيطان الرجيم . فاذا استطعنا ان نستميلهم الى جانب جنود الخير قوينا عوامل البناء في الهيئة الاجتماعية

— انهم موتى يا يوسف . موتى ولا جرثومة حياة فيهم فلا تتعب نفسك في احيائهم . بل دعهم يتمادون في فنائهم لكي تتحول هذه القوة المالية التي عندهم لغيرهم من العامة الذين هم احق بها منهم . فاذا احيينا انفسهم وتابوا عن الملاهي والحانات واندية القمار بقيت فلوسهم محبوسة في خزائنهم فدعهم في غيهم يعمهون . دعهم يسكرون ويقامرون لكي تتدفق تلك الاموال الى السوق فيذهب هذا السلاح من ايدي الاشرار الى ايدي الاخيار

فتنهد يوسف وقال : — آه . لو صح ما تقول . ولكن هذا السلاح يتحول من اشرار الى من هم أشرّ . يتحول من السكيرين الى بايعي المسكرات ومن القامرين الى ناصبي احابيل القمار

عند ذلك دخل رجل حسن البزّة واومأ الى جورجي ان يتبعه فخرج جورجي من القهوة اليه وتهامسا قليلا امام الباب . ثم تركه ذاك ومضى . وكان يوسف متشوّفاً الى الخارج فرأى ذاك الرجل يعود الى مركبة تنتظره في الشارع . ثم لمح في المركبة سيدتين وفي الحال عرف هيفاء احداهما ووقعت عينه على عينها . اما امها فكان نظرها يتبع ذلك الرجل حتى ركب معهما

الفصل العشرون

بين المال والعمل

فلما عاد جورجي سأله يوسف : — من هذا الرجل ؟

— يدعى جميل مرمور وهو وكيل رجل غني جدًّا يدعى فهيم بك رمّاح

— هل تعرف رمّاح بك ؟

— اعرفه قليلا لاني سمسرت له . هذا رجل قدير فقد جمع ثروة طائلة في بضع سنين وساعده الحظ اذ اغتنم فرصة المضاربات بالاراضي

— هل هو مصري ؟

— كلا لا اظن . واظنه سوريًّا ولكنه عاد من اميركا على ما فهمت من وكيله وكان معه بعض المال فجعل يضارب بالاطيان فكان من الرابحين . وهو يتنعم الآن فعنده مركبات وخيل واتوموبيلات وخليلات و ...

— خليلات ؟ أليس متزوجاً ؟

— ولماذا يتزوج مثل هذا والنساء كلهنّ له

— اذاً توافق على سلوكه هذا ؟

— وافقت أو لم اوافق . هذا هو شأن الكثيرين من الاغنياء يستطيعون ان يتمتعوا فيتمتعون

— كم خليلة لهذا الشرير ؟

— قيل لي ان له ثلاث خليلات

— انه لدنيء

— دنيء ؟ . هو الشريف الفاضل . واذا كلمته لا تقول الا « يا حضرة الفاضل » واذا كتبت له قلت « يا صاحب السعادة » . والفقير يمضي له « عبد سعادتكم » . واذا سافر كتبت عنه الجرائد « سافر سعادة الوجيه السري النبيل فهيم بك رمّاح » . واذا اكتتب بعشرة جنيهات لجمعية خيرية كتبت الجرائد « تفضل سعادة الاريحي الكريم المفضال فهيم بك رماح بعشرة جنيهات » . فهل هذا دنيء ؟ انا وانت دنيئان لاننا لا نملك قرشاً . وانت اذا سكنت في منزل فيه امرأة قالوا « انك ساقط » واما هو فيستطيع ان يأتي بخليلته الى الاوبرا على مرأى من الجمهور واذا زرته في مقصورته في الاوبرا وجب عليك ان تنحني احتراماً لخليلته

— والله لا أفعل واذا دخل مثل هذا الفاسق الى مجلس انا فيه لا أقف له . واذا تكلم بصقت في وجهه لان مثل هذا يجب ان يخجل وجهه في كمه اذا ظهر في مجلس

فضحك جورجي قائلاً : — اذا دخل فهيم رماح الى مجلس أدار الجلاس وجوههم عنك ولو كنت تلقي عليهم حكمة سليمان ووجهوا أنظارهم اليه ولو كان يهذي . واذا تكلمت في حضرته قالوا لك « صه . الكلام لمن هو أوجه منك »

— لا أحضر مجلساً كهذا

— المجلس الذي لا يتشرف بحضور مثل فهيم لا يعد مجلساً معتبراً

— اكتفي بهذا المجلس الذي أعده أشرف من مجلسه

— لا تجد فيه الا موتاً وأما المجلس الذي يكون فيه مثل فهيم فهو مجلس الاحياء . لان هؤلاء السراة مصدر الحركة الحيوية في الهيئة الاجتماعية وفي يدهم « زنبلكها » فاذا راموا أوقفوا حركة العالم

— انك متطرف يا جورجي . العالم بالعامة لا بالاغنياء

— العالم بالاغنياء لا بالعامة

— من بنى هذه البناية ؟ الفعلة والبناؤون وهم من العامة . ومن يجر مركبات النقل هذه التي تنقل البضائع ؟ العامة . ومن صنع هذه المصنوعات ؟ العامة . ومن اشتغل الخبز الذي تأكله وربى الخراف التي نطبخها ؟ العامة

— نعم ولكنهم فعلوا ذلك باموال المتمولين . يحبس هؤلاء أموالهم فلا يعود الصانع يستطيع ان يصنع ولا الزارع ان يزرع

— ولكن من أين هذا المال الذي في أيدي المتمولين هل هم خلقوه أم صنعوه . وما معنى المال أليس هو نتيجة عمل ؟ ألا تعلم ان كل قرش هو بدل عمل يساوي قرشاً ولولا العمل ما حصل القرش فالقروش تمثل أتعاب العمال . ولم يكن من قرش في الدنيا الا وقد بُذل بدله تعب في عمل . فاذاً الاموال نتيجة عمل العمال فالعالم بالعامة

— نعم الاموال نتيجة عمل العمال ولكن هذه الاموال في أيدي الاغنياء وهم المتصرفون بها فاذا أمسكوها وقفت حركة العمل ولم يعد العامل يجد مسترزقاً

— واذا أضرب العمال عن العمل لم تعد أموال الاغنياء ذات قيمة لانهم لا يقدرون ان يأكلوا ذهباً وفضة ونيكلاً ولا يلبسون بنك نوت (ورق عملة)

— ولكن العامة لا يقدرون ان يضربوا عن العمل لانهم يحتاجون الى نتيجة عملهم لكي يأكلوا ويلبسوا

— والاغنياء لا يقدرون ان يحبسوا أموالهم لئلا تصبح بلا قيمة

— نعم لا يوافقهم ان يحبسوها ولكنهم أقدر على حبسها من العمال على الاضراب عن العمل لان الغني اذا اضطر الى التوقف عن تثمير ماله يبقى ماله لسد حاجته فيستخدم عاملاً لزرع قمحه وصانعاً لنسج ثوبه وصنع حذائه . فماله قوته وهو يستخدم هذه القوة لأوده ومعيشته . وأما العامل فاذا أضرب عن العمل كان ملغياً قوته . فبماذا يعيش ؟

فسكت يوسف هنيهة ثم قال : — كانك تقول ان قوة العامل لا تستغني عن قوة المال

ولا تستطيع ان تبرز الا بهـا لان الناسج لا يقدر ان ينسج الا اذا كان بين يديه قطن ينسجه والقطن بمال فاذا لم يكن مال ليشتري قطناً فالناسج لا ينسج ....

— نعم وأقول أيضاً ان المال لا غنى له عن العمل لانه اذا وجد المال لشراء القطن فالقطن لا ينسج لنفسه بل لا بد له من عامل ينسجه فالمـال بلا عمل صفر كما قلت أنت ولـكنه أقدر من العمل فهو يستطيع ان يشتري القطن وناسجه معاً ولهذا قلت لك ان « زنبلك » الحركة في أيدي الاغنياء

— انك فيلسوف في الامور الاقتصادية فسر معي الى العمق فيها . ألا تسلم معي ان المال نتيجة العمل ولولا العمل لم يكن من مال

— أسلم

— اذاً هب ان المتمولين انقطعوا عن العمال أو ان المال انفصل عن العمل فالعمال يعملون من جديد لينشئوا مالاً جديداً يكون سبب الحركة بينهم

فضحك جورجي وقال: — انها لنظرية صحيحة ولـكنها لا تخرج الى حيز الفعل الا اذا محقت هذا العالم كله وخلقت آدم وحواء جديدين وانشأت عالماً جديداً . ولـكن ما دام العالم يشتمل على ١٥٠٠ مليون نسمة فـا هو حاصل الآن لا بد من حصوله . والعالم لا يستطيع ان يغير مجراه الا بويل عظيم على الانسانية أشد جداً من ويل تحكم المتمولين بالعمل

— اذا تسلم بتحكم المتمولين بالعمل

— نعم ولـكن لا مناص منه

— ألا تعتقد ان الاشتراكية هي الدواء الوحيد للشفاء من هذا التحكم

— نعم قد تكون الاشتراكية هي الدواء ولـكن العلاج بها اذا لم يكن تدريجياً كان قاتلاً كالدواء الذي تعطيه للعليل دفعة واحدة وهو مقسم الى جرعات متتابعة في مواعيد متباعدة

— انك فيلسوف اقتصادي كبير

— كما انك فيلسوف اجتماعي ادبي كبير

— كيف ادركت هذه الحقائق

— بالاختبار الطويل

— ولـكن الا تعتقد ان في هذا النظام الاجتماعي ظلماً وويلا على الانسانية

— اعتقد ولـكن لا مناص منه

— نعود الى فهيم رماح ونتخذه مثلاً ولا نقصده بالذات . هل يجوز لمثل هذا ان يجمع الاموال من اتعاب العمال

— جمعها بذكائه ومهارته

— بل ابتزها بذكائه ومهارته لانها لم تحصل الا لقاء تعب عمال. فكل قرش في يده يمثل تعباً في عمل قرش وهو لو رام ان يتعب في عمل ليحصل ثروته الطائلة ما جمع منها عشر معشارها في حياته ولو عاش الف عام

— نعم انه لم يتعب في مقابلها ولكنه جمعها أو ابتزها كما تقول وقد أصبحت ملكه

— أصبحت ملكه لان هذا النظام فاسد وهذا ما يؤيد مبادىء الاشتراكية التي تقضي بتوزيع الربح على قدر العمل

— أوافقك على ذلك والعالم سائر في مبادىء الاشتراكية هذه بحرب عوان بين المتمولين والعمال والحرب لمن غلب

— يسرني جداً اننا وصلنا الى حقيقة واحدة اتفقنا عليها . وما دامت هذه الحرب سجالا فلا بدع ان يغلب العمال على أمرهم حيناً بعد آخر ولكن الغلبة الاخيرة لهم

— عسى ان يصح هذا الحلم

— نعود الى رماح هذا . هل يجوز له ان يبذرق ثروته هذه على الزواني وعلى الخلاعة والفساد ؟

— لا يجوز له ولكن ليس من قوة تمنعه

— ما قولك لو انفق هذه الاموال في عمل نافع للعمران فينتفع هو ويسترزق معه عمال عديدون ؟

— حسن جداً ولكنه لا يفعل وليس من يستطيع ارغامه على ان يفعل . فهو لا يهتم بالعمران ولا باهله بل يدع العمران يهتم بنفسه وهو يهتم بلذته . هل تستطيع ان تنفي الانانية من البشر ؟

فتنهد يوسف وقال : — آه الانانية . الانانية . هي سبب هذا الويل على الهيئة الاجتماعية . لا أطيق تصورها

— أنصح لك يا أخي ان تعبدها والا فلا تستطيع ان تعيش ساعة في هذا العالم

— حماني الله من شرور الانانية والطمع

— اني أشفق عليك يا اخي

— اشفق عليك من كره الانانية والطمع لانك سائر في تيارها حتما اذ لا تستطيع

ان تعيش في المريخ او في زحل بل على هذه البسيطة . وأينما ذهبت كنت بين الانانيين والطامعين والنمامين والماكرين والمنافسين والمزاحمين فاذا لم تزاحم طامعاً مخادعاً ماكراً كنت مطبوعاً بك مخدوعاً مدفوعاً الى الوراء في حين اندفاع سواك الى الامام فتقع بين أرجل من هم ورائك

في هذه اللحظة خطرت ليوسف حادثته في البنك الاميركاني وقال : — صدقت صدقت . ولكن أنى لي تغيير مبادئي وقد غرست في نفسي

— اني أنذرك بويلات متتابعة . فانت محتاج الى اختباري فتعلم مني دروساً

عند ذلك كشف جورجي ساعته فقال له يوسف : — اظنني شغلتك عن شغل

— اني انتظر جميل مرمور هذا لانه وعدني ان يأتيني الى هنا لشغل بيننا

— أظنه شغل سمسرة

— لا . لا اظن بل قال لي انه سيباحثني بمشروع خطير لي منه فائدة كبرى ولهذا انتظره هنا . صه . ها هو

فلما دخل جميل نهض يوسف وودع جورجي وخرج

الفصل الحادي والعشرون

الاتفاق على مكيدة

قال جميل لجورجي : — هيا بنا الى السفنكس بار يا جورجي

— تبت عن الشرب

— اظنها توبة افلاس فهلم . فان معي من الاصفر الرنان ما يسكر عشرين

— كلا . لو شئت اشرب لاسكرت الفاً فدعنا هنا وهات ما عندك

— لا اعرف ان اتكلم الا شارباً فهلم

— قلت لك لا أذهب . هل تريد ان تلقي عليَّ خطاباً ولا تستطيع ان تجود بالخطابة الا شارباً ؟

فضحك جميل وقال : — ان الموضوع الذي سأكلمك به يليق به الشرب

— هات قل فاني افهم صاحياً اكثر مني سكراناً

فسكت جميل هنيهة ثم قال : — هل تريد ان تملأ جيبك من الاصفر الرنان باضحوكة ؟

— ليس غريباً في هذا البلد ان تجني الاضاحيك اموالاً . فما هي اضحوكتك ؟
تمثيل دور صغير في مرسح صغير وعلى حضور قلائل
- ما هو هذا الدور ؟
— هو ان تلبس ثوب كاهن وتكلل زوجين
فاحجم جورجي قائلاً : — انك تنصب لي فخاً
— لا والله بل اريد ان اكسبك مئة جنيه . فما قولك ان تكسبها وانت تقف وقفة كاهن نحو ربع ساعة ؟
— لا والله لا اقف وقفة كهذه ولو دفعت لي الفي جنيه
— انك مجنون
— لماذا لا تمثل هذا الدور انت ؟
— لاني بلا لحية وتعرفني العروس
— اذاً الدهاء على اهل العروس
— بل على العروس وحدها
— واهلها ؟
— ليس لها في الدنيا الا ام وامها تريد ذلك
— ولكن لماذا هذا الزواج المزوَّر ؟
— لان العريس لا يريد زواجاً والعروس لا تريد الا زواجاً
— اظن العريس فهيم بك
— نعم
— فضحك جورج قائلاً : — ألم تكفه الخليلات الثلاث ؟
— لو عرف الرابعة قبلهن لاكتفى بها لانها آية في الجمال ولم تزل صغيرة
— وامها تريد ان تجعلها رابعة الخليلات ؟
— نعم لانها ربتها لهذا الغرض وقد صادفت الرفيق الثمين
— تبًّا لها من ام
— ما نحن هنا في موقف وعظ يا جورجي بل في موقف شغل وقد وددت ان اخدمك هذه الخدمة
— ان تغريني على ارتكاب جناية ؟
— جناية صغيرة ولكنها لا تظهر . والاجرة وافرة

— هل تعد المئة جنيه اجرة وافرة ؟ هب اني حوكمت

— ان حوكمت تحبس شهراً . أفلا تحبس شهراً بمئة جنيه

— قد احبس عاماً ولهذا لا اقبل اقل من الفي جنيه

وبعد جدال طويل تم الاتفاق بينهما على الف جنيه ثم قال جورجي : — متى اكون كاهناً ؟

— بعد غد الساعة العاشرة مساءً في منزل العباسية . بيد اننا نلتقي هنا نحو الساعة التاسعة فاصطحبك الى المنزل حيث تجد كل شيء مدبراً

— والدفع ؟

— نقداً بين لبس بدلة الكهنوت والاكليل

— اذاً الى الملتقى

— بقي امرٌ جوهري جدًّا يا جورجي

— ما هو ؟

— يجب ان تتلقن بعض الصلوات بالعربية لكي تفهم العروس الصلاة ولا يخالجها ريب بصحة الاكليل كما لو كانت الصلاة كلها باليونانية فقط

ففكر جورجي هنيهة ثم قال: — الحق اني لم افطن للصلاة . فلا بد من اعداد كتاب صلاة الاكليل

— الكتاب موجود ولكنه باليونانية ونحن نود ان يكون بعض الصلاة بالعربية. ولهذا يجب ان نجتمع غداً لكي القنك صلوتين او ثلاثاً بالعربية

ففكر جورجي وقال : — لقد شاخت ذاكرتي وتصلبت فلا تستطيع ان تطبع فيها صلاة ولا ترنيمة

— اذاً ما العمل ؟ لا مناص من تلاوة بعض جمل بالعربية . فيجب ان تطرّق ذاكرتك لكي تلين ويمكن ان نطبع عليها صلاة والا فالمشروع فاسد والاتفاق منقوض

— انت قلت انك تملأ جيبي دراهم بلا تعب فما بالك تريد ان تتعبني بحفظ صلوات غيباً وتطرق ذاكرتي ؟

— انت طلبت اجرة كثيرة أفلا يحق لي ان اطلب عملا قليلاً ؟

ففكر جورجي هنيهة وقال : — اذاً هات كتاب صلاة بالعربية وارحني من التلقين

— وما الفائدة من الكتاب ولا قارىء ؟

— اقرأه

— لسنا في مزاح

— قلت لك اني أقرأه فلا أمزح

فدهش جميل وقال : — انك يوناني فمتى تعلمت العربية

— تعلمتها هنا وأقرأها

— لا اصدق

ثم ناوله جميل جريدة وقال اقرأ لارى

فقرأ جورجي بكل فصاحة. فازدادت دهشة جميل وقال : — عجيب امرك يا هذا. كيف تعلمت العربية وانت يوناني ؟

— ليس هذا شغلك

— حسن اذاً أنت الكاهن الوحيد الذي يقوم بعقد الاكليل

لقد تيسر كل امر والحمد لله . بالله قم معي فاني اود ان اشرب كاساً . واذا شئت ان لا تشرب فلا تفعل

الفصل الثاني والعشرون

التاريخ يثبت بعضه بعضاً

في هنيهة كانا في السفنكس بار جالسين في زاوية يشربان معاً لان جورجي لم يستطع الصبر عن الشرب وهو يرى نديماً يشرب . وبعد حديث قصير كانت الخمرة تلعب في رأسيهما فقال جميل باسما : — والله لا اقدر ان اعتقد انك يوناني يا جورجي ولا اصدق انك تعلمت القراءة العربية هنا ولفظك للعربية ينم عليك فبالله قل لي . اما انت سوري ؟

فضحك جورجي وقال : — كيف تظن اني سوري لا مصري ؟

— لان في بعض كلامك كلمات تدل على سوريتك

— ذلك لاني سكنت مدة في سوريا

— لا يقنعني هذا البرهان فبالله اصدقني اما انت سوري ؟

— لماذا تبحث معي بهذا الموضوع ؟

— من قبيل العلم بالشيء فقط . وماذا يضرك ان تقول لي الحقيقة وانا صديقك الحميم ؟

— وهب اني سوري

— اذاً لا تنكر ذلك

— لم اعترف به الا الان

— وما الداعي لانكارك جنسيتك بتاتاً ؟

— لاني اصبحت يونانياً بكل معنى الكلمة

— ولكن هذا لا يستوجب ان تنكر اصلك

— لا يستوجبه ولكني اقول لك الحق اني اكره سوريا واهلها

— وهل تفضل اليونان على السوريين ؟

— الف ضعف

— بالطبع انت تحكم حسب رأيك وحدك ولا بد ان تكون قد صادفت سوء بخت في سوريا حتى كرهت اهلها

— بل قد صادفت شقاءً

— وكاد جورجي يجهش بالبكاء فقال له جميل : — لقد صدق ظني . اراك متألماً ولا بد ان تكون قد بليت بكيد عدو

— لا والله بل قل بكيد اهل

— يالله . مهما كان كيد الاهل فلا يبلغ حداً يؤلمك هذا الالم

— انك لغبي . فما قولك بالمرأة التي تريد ان تزوج ابنتها زواجاً كاذباً . أي كيد للفتاة اعظم من كيد امها لها ؟

— صدقت . فهل كادك اهلك بزواج لم ترده ؟

فضحك جورجي قائلاً : — لا اعد هذا كيداً

— ماذا يفعل الاهل اعظم من ذلك ؟

— يضطهدون حتى الموت

— لا اصدق ذلك

— كم مرة تزوج ابوك ؟

— مرة واحدة

— لو تزوج بعد امك زوجة أخرى لكنت تفهم وتصدق

— فهمت فهمت الآن يا جورجي ؟ وقد صدق ظني فقد بليت بكيد عدو . والد الاعداء المرأة اذا عادت . اذاً مصيبتك من زوجة ابيك

— نعم . والويل لمن يتزوج ابوه امرأة بعد امه

— بالله . ماذا استطاعت هذه الزوجة ان تفعل من الشر لك بوجود ابيك ؟

obeikandl.com

— دهورتني ودهورت عائلتي

— عائلتك ؟

— نعم زوجتي وابني وجنين في بطن زوجتي

— بالله كيف تستطيع امرأة ان تفعل ذلك ؟

— متى رامت المرأة شرًّا تخدمها الاقدار

— ماذا فعلت تلك الملعونة ؟

— دست اناساً يختصمون معي فادعوا زوراً اني شتمت السلطان وراموا أن يقتلوني وما نجوت من بين ايديهم الا بعد ان طعنت احدهم طعنة بخنجر . وهربت الى منزل ابي فاعطاني جواداً ومئة ليرة وقال « اهرب » فهربت الى بلاد اليونان . وبعد ذلك صرت اكاتب ابي فكان اخي يجاوبني عنه ففي جوابه الاول قال لي ان الذي طعنته مات واني اذا رجعت لا اسلم من القصاص . وفي جوابه الثاني قال لي ان امرأتي ماتت مجهضة . وفي جوابه الثالث قال لي ان ابني مريض مرضاً خطراً . كل ذلك كان في بحر عامين . وبعد ذلك كنت اكتب فلا انال جواباً . فتاكدت ان زوجة ابي دهورت كل عائلتي لكي يخلو الجو لابنها . فقلت اكون ملعوناً اذا ذكرت وطني واهلي بعد . وقد ضاق بي العيش في بلاد اليونان فلما شبت الحرب بين تركيا واليونان تطوعت في جيش اليونان بغية ان اقتل ولكن الله ابى الاَّ ان يبقيني لاستتم شقائي

وفي اثناء الحرب ابدلت نمرتي بنمرة جندي قتل جنبي اسمه جورجي احيوس فاعلنت نظارة الحربية اسمي بين القتلى ولعل الخبر بلغ الى اهلي واعتقدوا اني قتلت . فانا الان لست ذاك السوري الذي هرب مضطهداً بل انا جورجي احيوس اليوناني . فهل تنسى منذ الان هذه الحكاية ؟

— اتعهد لك اني لا اذكرها لاحد

— اكد انك اذا ذكرتها لاحد حتى لفهيم ذكرت اسرارك التي اعرفها واصغرها سر هذا الزواج الكاذب.. فحاذر ياجميل حاذر

فضحك جميل وقال : — اذاً لا تخف . اني اتعهد لك بان لا افوه بكلمة لاحد . ان قصتك يا جورجي مؤثرة جدًّا . أو لا تعلم شيئاً عن اهلك الان ؟

— لم اعد اسأل عنهم ابداً ولا اريد أن اتقرب الى من يعرفهم لان كرهي لهم شديد جدًّا

— انك مظلوم يا جورجي

— ولهذا تعلمت ان اكون شريراً والاَّ ما كنت اوافقك على تمثيل دور الزواج
— ولكن لماذا تصر على كتمان امرك
— هذا شأن من شؤوني فلا تتداخل به

وهنا انتهى الحديث وافترق المؤتمران على وفاق ولقاء

ولا بد ان يكون القارىء قد فهم الان ان جورجي اجيوس هذا هو نفسه الامير خليل الخزامي الذي اضطهدته ريمة زوجة ابيه فهرب الى بلاد اليونان وهو ابو يوسف وابو هيفاء ايضاً

الفصل الثالث والعشرون

حيلة كأنها صدفة

في اليوم التالي كانت هيفاء منهمكة بعض الانهماك بالاستعداد لزواجها . تقول بعض الانهماك لان امها كانت تهيىء كل شيء وتدبر كل امر فاشترت لها الحلى والملابس . ولكن بقي لهيفاء بعض امور فانشغلت بها في ذلك النهار

ولما كانت الساعة الثالثة سمعت قرب المنزل تطبيلاً وتزميراً فخرجت الى الشرفة لترى ما الخبر وخرجت امها معها لانها لم تكن تفتر عن مراقبتها فرأتا زمرة من الغوغاء يلاعبون قروداً في عرض الشارع

فقالت ندية : — ألا تزالين ناقصة العقل تستفزك هذه الاضاحيك السخيفة . تعالي

— لقد مللت الشغل اليوم وأود ان اتنشق الهواء النقي واستريح قليلاً فدعيني وبعد هنيهة اعود

فعادت ندية الى الغرفة . وبقيت هيفاء مطلة وما هي الا هنيهة حتى نظرت يوسف براق يمر على اللاعبين ووقعت عينها على عينه وكادت تفهم من نظرته امراً فتتبعته بنظرها حتى رأته توارى وراء الجدار الذي يسور الحديقة المجاورة المنزل وقبل ان ترد نظرها رأت شيئاً ارتمى من فوق الجدار الى الحديقة ولكنها لم تقدر ان تفهم ما هو . ثم ما لبثت ان رأت يوسف قد ظهر من وراء الجدار وعاد من وراء اللاعبين وهي تتبعه بنظرها وتومىء الى جهة الجدار لتفهمه انها رأت الشيء الذي ارتمى . ثم رأته توارى

عند ذلك دخلت وأعطت الخادم قرشاً ليرميه للاعبين . وبعد بضعة من الساعة نزلت هيفاء الى الحديقة ومشت الى حيث ارتمى ذلك الشيء فلم تجد الا علبة قديمة وسخة من علب « البويا » التي يستعملها ماسحو الاحذية . فلم تعبأ بها في اول الامر ولكنها

لما لم تجد غيرها انحنت وتناولتها وفتحتها فوجدت فيها ورقة صغيرة . ففتحت الورقة وقرأت فيها ما يأتي :

« أود ان أراك فكيف استطيع ؟ ومتى ؟ واين ؟ انتظر جوابك في هذه العلبة فضعيها على زاوية الجدار وفي أول الليل آتي وآخذها »

في اول الليل تناول يوسف براق العلبة عن الجدار وفتحها فوجد فيها ورقة فقرأها على نور مصباح الشارع هكذا

« المراقبة شديدة فسأحاول ان اراك الليلة نحو الساعة الثالثة صباحاً وراء المنزل عند جدار الحديقة »

. . . . . .

في الوقت المعين كان يوسف عند ذلك الجدار فرآه يعلو نحو قامة . فنقل اليه حجراً كبيراً من حجارة كانت هناك ووقف على الحجر حتى صار رأسه مشرفاً على الحديقة

بقي عدة دقائق مطلا حتى رأى شبحاً ينسل فلما اقترب الشبح قال همساً : — هيفاء ؟

— من هذا ؟

— انا يوسف . تقدمي لا تخافي

فتقدمت الفتاة حتى صار رأسها تحت رأسه وقالت : — كيف اهتديت الى منزلنا ؟

— اذا كان احد الناس يأتي الى منزلكم ويأوب منه فليس عسيراً ان اهتدي اليه

— من هو هذا الذي تعنيه

— الذي كان معكم في المركبة امس أرشدني الى منزلكم

— يستحيل ذلك

— طبعاً يستحيل ان يفعل لو توقف الامر على ارادته

— فهمت . تعني انك تتبعته الى هنا من حيث لايدري . ولكن كيف اهتديت اليه بعد ان ركب معنا ؟

— عاد لمقابلة الرومي الذي كنت اجالسه في القهوة فعقدت النية على ان اتتبعه الى حيث يذهب ففعلت

— ولكن كيف عرفت ان هذا المنزل الذي دخل اليه منزلنا لا منزله ؟

— لم اعرف ذلك حتى رأيتك في الشرفة تتفرجين على لعب القردة

— ان مرورك في ذلك الحين لصدفة غريبة

— ليست صدفة

— اذاً ماذا ؟

— انا دفعت لقادة القردة نصف ريال جزاء ان يأتوا ويلعبوا تحت شرفة هذا المنزل حتى اذا كنتِ فيه اشرفتِ من الشرفة . فصحت حيلتي كلها

— يا لها من حيلة جميلة . والآن تود ان تسألني عن رسالتك لليلى . فقد وقعت في يد أمي فظنت انها لي

— لا . لا وقت لمثل هذه الاسئلة الآن . فاخبريني عن حالك وعلاقتك بفهيم رماح

— غداً اكون زوجة شرعية له اذ لم اعد استطيع غير ذلك

— حاذري ان تفعلي

— ويلاه لماذا ؟

— لانه خليل ثلاث ساقطات

— ماذا تقول ؟

— كذا علمت وكذا تأكدت فحاذري ياهيفاء . ان امك تسوقك الى هاوية من الويل عميقة

— رحماك . ماذا افعل ؟

— ارفضي الزواج

— لا استطيع ما دمت تحت سيطرة امي . فبربك انقذني

— ارفضي ولا تخافي

— والاضطهاد ؟ . لا استطيع احتماله

— هل تريدين ان تتركي امك ؟

— اين احتمي ؟

— اذا شئت فانا ادبر امرك

— متى تدبره وغداً الساعة العاشرة مساءً يكون الاكليل ؟

— هل تستطيعين ان تنسلي غداً في الليل من المنزل وانا اكون على استعداد لاختطافك والطيران بك ؟

— الى اين ؟

— الى حيث تكونين في مأمن من كل شر . فهل تثقين بي ؟

— اثق ولكني اخاف ان لا تستطيع الخروج من المنزل ولا لحظة لان المراقبة شديدة

— حاسني الكل منذ الان واظهري سروركِ ورضاكِ عن الزواج حتى يثقوا بك ويخففوا من المراقبة عليك . وفي السهرة اغتنمي فرصة واخرجي ومتى صرت خارج المنزل تفلتين من ايديهم

— حسن . اذا انتظرني غداً بين التاسعة والعاشرة وراء الحديقة فاني اخرج من الباب الخلفي الى الحديقة . فهل تستطيع ان تصعدني على الجدار ؟

— استطيع . فلا تترددي في الهرب اذا . لا تخافي . عودي الى مخدعك الان

الفصل الرابع والعشرون

فرار العصفور من القفص

في مساء اليوم التالي كان جميل مرمور وجورجي آجيوس في مركبة تنطلق بهما الى العباسية وكان جورجي في ثوب قسيس . وكانت الساعة التاسعة حين دخلا فرأى جورجي العروس في ثوب الاكليل والعريس فهيم بك رماح في ثوب رسمي

وكان اول ما فعله جورجي ان هنأ العروس قائلا : — اني اهنئك بهذا الزواج السعيد يا ابنتي فان مثل عريسك نادر جداً فعسى ان تحبيه وتحرصي على قلبه فتعيشين سعيدة ان شاء الله

فقالت هيفاء : — ان لدعائك تأثيراً في سعادتي يا ابانا

ثم نظر جورجي الى فهيم فابتسم هذا له . اما جميل مرمور فكاد يفلت من فكيه عنان ضحكه . فنظر فيه جورجي عابساً ثم قال : — اين الاشبين والاشبينة ؟

فقال فهيم : — اما الاشبين فهو المسيو جميل والاشبينة ام العروس

— لا ارى ام العروس

فقالت هيفاء : — لا تزال تلبس ثوبها . اني ذاهبة لاستعجلها يا ابانا

ونهضت هيفاء وخرجت فقال جورجي : — سبحان من اعطى ومن سوى . اين حظيت بهذه العروس الجديدة يا رمّاح بك ؟

— التقادير ساقتها اليَّ يا أبانا

— بارك الله عليكما . اين الضريبة المقدسة يا جميل ؟

— ها هي في كتاب الصلاة . ومتى انتهى الاكليل تأخذ الكتاب بما فيه

— لا اريده تحويلا على بنك

— واذا كان البنك مصادقاً عليه فما قولك ؟

وتناول جورجي الكتاب وفتحه فرأى التحويل عند فصل صلاة الاكليل فابرقت اسرته وقال : — ماذا تنتظرون ؟

— ننتظر ام العروس

عند ذلك وقف جميل واطلّ من الباب وقال : — ياست ندمة اعجلي

وما هي الا هنيهة حتى دخلت ندمة تتجلى بثوبها الانيق فقالت : — اين هيفاء ؟

فقال فهيم : — ذهبت الى حجرتك لتعجلك

فبغتت ندمة وقالت : — لم أرها

فوقف الكل قائلين : — اذاً الى اين ذهبت ؟

وتراكضوا في غرف المنزل وسألوا الخادمة والخادم فقالا لم نرها

فقالت ندمة : — لقد هربت الشقية . كيف هربت ولم نعلم ؟

فقال الخادم : — اظن اوتوموبيلا اخذها لاني سمعت دويه منذ دقيقة

فصفقت ندمة كفاً على كف قائلة : — لقد خدعتني هذه الشقية

فقال جورجي : — اذا كنتم لا تستوثقون من رضى العروس فلماذا تستدعون كاهناً للاكليل ؟

وكان فهيم قد قبض على الكتاب واخذ التحويل منه ووضعه في جيبه وقال لجورجي : — خذ هذه عشرة جنيهات الآن جزاء تشريفك ومتى استوثقنا من الفتاة نستدعيك ثانياً

فتناول جورجي الجنيهات العشرة وقال : — اني مستعد لكل خدمة من هذا القبيل يا رماح بك . اين تظنون ذهبت الفتاة فانا استردها

— لا ندري الان شيئاً ولكننا لا بد ان ندري . فهل تود ان تتولى البحث عنها ولك الجزاء الذي تريده ؟

— افعل بكل سرور ولي امل عظيم بالفلاح

وبعد مناقشة في الامر افترق المجتمعون متفقين على ان جورجي يبحث عن الفتاة

الفصل الخامس والعشرون

استطلاع اسرار

في احدى الليالي كان جورجي احيوس يطوف في جهات الازبكية فمال الى دكان بائع تبغ ليبتاع فما وقع نظره على البائع حتى صاح : — يوسف ! ماذا تفعل هنا ؟

— اما يوسف فاكفهرّ وجهه قليلاً وقال : — ابيع سكاير

— هل اشتريت هذا الحانوت ؟

— كلاّ وانما اخدم بالاجرة

— يالله . امثلك يحترف هذه الحرفة ؟

— هل هي حرفة دنيئة ؟

— قد لا تكون دنيئة ولكنها زهيدة الاجر

— العمل بالاجر الزهيد خير من البطالة

— عهدي بك موظفاً

— نعم ولكني عزلت من وظيفتي

— لماذا ؟

— عزلت بتهمة الاختلاس

— لا اصدق

— ولا انا اصدق

— اذاً كيف ذلك

— كنت موظفاً في مصلحة التنظيم وكنت موكلاً بالدفع لبعض العمال وبالقبض منهم . واتفق ذات يوم أن جاءني شخص ودفع ٤٠ غرشاً وعليه ان يدفع خمسين وطلب اليّ ان اقيد الخمسين مدفوعة وانه لا يبطئ بدفع العشرة الباقية بعد ساعة . وعلى سلامة نيتي طاوعته . ولكن قبل ان تأتي الساعة جاء المفتش واطّلع على الحساب فوجد الفلوس ناقصة عشرة . طبعاً فاخبرته الحقيقة . فقال في الصندوق عجز ولا بد من عمل محضر . فقلت ها الغروش العشرة من جيبي وانا آخذها من العامل . فلم يشأ ان يسمع لقولي بل كتب المحضر ورام ان يسلمه الى النيابة . فرأيت اني ذاهب الى السجن حتماً . فرجوت المفتش ان يتمهل حتى يأتي العامل . وبعد الرجاء الطويل رضي . اما العامل فلم يأتِ الاّ بعد ميعاده بساعة وليس معه نصف ريال فاستحلفته بالله وبرسله فاقرّ بالحقيقة تماماً . فعدت اتوسل الى المفتش ان يمزق المحضر بدعوى اني سليم النية . ففكر المفتش طويلاً وقال : — لا اشك بصدق نيتك ولكن لم يعد في وسعي استبقاؤك في وظيفتك فاكتفي بعزلك منها

فاسفت جدّاً وجئت ابرهن له اني مظلوم فاقنعني بان القانون لا يسوغ بقائي في الوظيفة . فرجوت منه ان يعطيني كتاب توصية لكي اطلب وظيفة في دائرة اخرى من

دوائر الحكومة فضحك وقال : — « اصبحت محروماً من الوظايف في كل دوائر الحكومة لان القانون ينص على ذلك » . فانظر كيف يخضع الناس للقوانين المدنية الصماء ويدوسون بكل جسارة القوانين الادبية

— ذلك لان القوانين المدنية مكتوبة على الورق والحكام موقعون عليها ومكلفون بتنفيذها فهي كسلاح بايديهم بعضهم ضد بعض ولولا هذا السلاح ما قامت قائمة لحكومة . واما القوانين الادبية فاي صاحب نفوذ أو سلطة سنها ومن هو مكلف بتنفيذها

— كل الهيئة الاجتماعية سنتها

— ماذا تعني بالهيئة الاجتماعية ؟

— عامة الشعب

— فالعامة الذين سنوها هم مكلفون بتنفيذها وهم ينفذونها بالفعل ولكن فيما بينهم فقط . اما الخاصة فهم فوق هذه القوانين ولهذا لا يخضعون لها ولا يخضعون الا للقوانين المدنية المكتوبة التي وقع عليها الحكام

— الحكام الذين من طبقتهم . صدقت صدقت فهم يسنون القوانين حسب رغبتهم فاذا غلط مستخدم صغير مثلي غلطة زهيدة على سلامة نية عوقب بالطرد ولكن الموظف الكبير قد يغلط الاغلاط الفظيعة الكبرى ويبقى راسخاً في وظيفته

— نعم لانه يفعل ما يروم متحايداً مخالفة القانون فلماذا لا تفعل انت كذلك

— لا اريد ان افعل ابداً

— اذاً لا تسخط اذا عزلت من وظيفتك

— كيف لا اسخط وانا لم اذنب ؟

— اذنبت بانك قيدت ما لم تقبض . او لم يخطر لك ان المفتش قد يباغتك

— لم ار وجه المفتش الا في تلك اللحظة

ففكر جورجي هنيهة وقال : — ألم تغلط هذه الغلطة قبلاً ؟

— هي الاولى والاخيرة

— عجيبة هذه المصادفة . هل علم احد بغلطتك هذه قبل ان يعلم بها المفتش ؟

— لا ادري ولا اظن احداً علمها الا ذلك العامل

— هل كنت وحدك في مكتبك ؟

— كلا بل كان معي سليم هيزلي الذي يشتغل على مكتب آخر في نفس الغرفة

— الا تظن انه هو الذي وشى بك سرًّا ؟

— لا اظن لان سليماً رجل طيب القلب جداً وكلانا صديقان حميمان وهو يتقرب مني جدًّا

— اقول لك يا يوسف انك مخدوع بهذا الصديق وغلطك انك تركن الى الناس

— يستحيل ان يكون سليم واشياً بي

— لا يستحيل يا يوسف . وهل تقول لي ما هي معارف سليم؟

— معارفه ليست قليلة

— وانت تضاهيه ؟

— لا اكون متبجحاً اذا قلت اني افوقه ولكنه يشغل وظيفته جيداً

— اقول لك ان سليماً هذا هو الذي انتهز الفرصة للوشاية بك ولا يبعد ان يكون قد تواطأ مع العامل نفسه لكي يوقعك في الشرك ذلك لان سليماً يخاف ان تتفوق عليه فود ان يبعدك ولم يجد غير هذه الوسيلة لابعادك

— ولكنه هو الذي توسط لي

— ليس هذا ببرهان فقد يشي بك وان توسط لك قبلا . لانه حين توسط لك قبلاً لم يخطر له انك تكون خطراً عليه

فبهت يوسف لهذا التعليل وقال : — اذاً سليم مثّل دور المسيو سرّار في البنك

— ما هو دور البنك ؟

فروى له يوسف ما جرى له في البنك . ولما انتهى من الرواية قال له جورجي : — أو ما تعلمت من دور البنك درساً نافعاً ؟ فلماذا تركن الى الناس ؟ ولماذا لا تحتاط منهم ؟ الناس عقارب صغيرة لاسعة فلا تركن الى أحد حتى ولا لي

فاشتدت بهتة يوسف وقال : — ما كان يخطر في بالي ان الناس يفعلون الشر العظيم لاجل النفع القليل . هل تطاوع سليما ذمته انه يقتل مستقبلي لمجرد انه يخاف ان اتفوق عليه في مكتبه وانا لا انوي شيئاً من ذلك

فضحك جورجي وقال : — سامحني اذا قلت لك انك ساذج يا أخي ولم تدرس حرفاً واحداً في مدرسة العالم فادرس واستفد . انما وجدت خدمة غير الخدمة في هذا الحانوت الحقير ؟

— قلت لك اني أصبحت محروماً من وظائف الحكومة . وأما الدوائر المالية ونحوها فما طرقت باباً منها الا رأيته مسدوداً في وجهي

— لانك لا تعرف كيف تزاحم فما الابواب مقفلة في وجهك ولكن المزاحمين

سدوها . كان يجب ان تستمر في السعي وتزاحم ولا تحط نفسك الى حرفة كهذه

— قضيت اسبوعاً وانا اسعى فملت البطالة وأخيراً علمت ان صاحب هذا المحل يحتاج الى مستخدم فخدمت عنده

— حسن ان تشغل بعض وقتك هنا والوقت الآخر في السعي الى خدمة أخرى

— الوقت الآخر ؟ وهل عندي وقت آخر ؟ اني هنا من الصباح حتى الساعة الثانية بعد نصف الليل . فمتى اسعى ؟

— يالله . كيف ترضى بذلك ؟

— ماذا أفعل وهي شروط صاحب المحل ؟

— كم يدفع لك أجرة ؟

— اربعة جنيهات في الشهر

— اربعة جنيهات ؟ بالله كيف تطيق ذلك ؟ ماذا أفعل ؟

— الافضل ان تبقى بلا عمل حتى تجد خدمة افضل

— لا أستطيع البطالة طويلاً

— اذا كنت في حاجة الى بعض الدريهمات فاسلفك ولا تقنط . هذه ورقة بعشرة جنيهات ولا أطالبك بها فردها متى تيسرت

فرد له يوسف الورقة باسماً وقال : — اني ممتن لك يا جورجي عظيم الامتنان فما انا في حاجة الآن

— اذاً يجب ان تترك هذا المحل

— لا أستطيع تركه لان عليَّ واجبات

— تقول انك عازب فاي الواجبات عليك ؟ هل عندك خليلة ؟

فضحك يوسف مزمهرًّا وقال : — نعم ولكنها ليست كالخليلات

— كيف ذلك ؟

— دعنا من هذا الموضوع

ففكر جورجي هنيهة وقال : — لماذا لا تخبرني عن واجباتك فاني صديق لك وأريد ان اكون عونك فمن هي هذه الخليلة

— لا تقل خليلة بل صديقة بل ارجو الاَّ تطلب مني ان أخبرك عن شؤوني الخاصة

— لا أطلب ذلك الا لاكون معواناً لك فاخبرني يا يوسف وثق بي

— تضطرني ان أبوح لك بسر

— لا بأس فليس قصدي ان أفشي أسرارك فاود ان تقول هل هذه الصديقة في محنة وأنت تساعدها ؟

— شيء كذلك

— اذاً أود ان أشاركك في مساعدتها

— بارك الله فيك ان ما معي وما اكسبه يكفيني ويكفيها الآن

— كانك تريد ان تحرمني الاجر وانا أود ان أفعله فبالله لا تردني عن عمل خير وهو أول ما أفعله في حياتي

فتردد يوسف في الجواب فقال له جورجي : — بالله تقول ما حكاية هذه الصديقة

— هي فتاة قاصرة كانت امها تهتم ان تزوجها من رجل لا تريده واخيراً كادت تتغلب عليها . وقد علمت ان الرجل لا يليق ان يكون زوجاً للفتاة لانه سيء السيرة جداً فسميت وانقذت الفتاة وخبأتها في مكان امين وانا اعولها

— حسنٌ جدًّا . خذ العشرة جنيهات للفتاة

— اكثر الله خيرك . قد لا نحتاج اليها فان اعوزتنا اخذتها منك

والحّ عليه جورجي جدًّا ان يأخذ الورقة فلم يأخذها فقال ليس من الحكمة ان تكابر وان تبقى سجيناً هنا بل الافضل ان تستعين بها الآن لكي تكون حرًّا وتسعى الى خدمة اخرى

— اسعى بالمكاتبة

— لا تنجح

— لا باس

— انك لعنيد

— لا تؤاخذني

— اذاً انا اسعى لك بخدمة اخرى . ولكن اين اودعت الفتاة ؟

— لا تسألني فلا اقول . دع هذا سرًّا من اسراري التي لا تقال

وقي جورجي يحتال عليه حتى يعلم مقرّ الفتاة فلم يستطع . وفي اثناء المناقشة تقدم شارل فبغت يوسف اذ رأى انه هو صديق الهيزلي . ولما اشترى صديق علبة سكاير عاد الى مركبة كانت تنتظره في الشارع فلمح يوسف فيها ليلى واخاها نجيب . فرام ان تنشق الارض وتبتلعه ولا سيما اذ وقعت عينها على عينه

الفصل السادس والعشرون

مصير الفيلسوف

في ذلك المساء كان الدكتور صديق هيزلي مجتمعاً بليلى في منزلها منفردين اذ كان ابوها لاهياً بامواله واخوها غائباً

فقال لها صديق : — هل رأيتِ الذي يبيع السكاير في تلك الدكانة الصغيرة ؟ وهل عرفته ؟

فامتعضت ليلى قائلة : — رأيته وعرفته فماذا ؟

— وددت ان تري هذا الفيلسوف الذي تعجبين بعمله وفلسفته وتعلمي ماذا يكون مصيره

— اذاً انت تعمدت المرور بنا من هناك لكي تريني ....

— نعم لكي أريك يوسف براق خادماً في دكان سكاير . وربما رأيته غداً في حانوت بدال وبعد غد يمسح الاحذية

— لا أدري لماذا تود ان تريني كل ذلك

— لكي تعلمي مصير الفلسفة والفلاسفة

— ولكن هذا المصير لا يحط من قدر العلم والمعرفة فهل تنكر ان هذا الفتى نابغة في ذكائه ومعرفته ؟

— قد يكون كما تقولين ولكن هل تعلمين ماذا يقول الناس عنه ؟

— كلا لا أود ان أعلم

— يقولون انه مجنون

— قد يكون الناس صادقين لان بعض ضروب الجنون اغراق في الذكاء وهو خير من الاغراق في البله

فضحك صديق وقال : — فليأكل علماً ويشرب معرفةً ويلبس ذكاءً ويسكن مستشفى المجانين

فابتسمت ليلى قائلةً : - لو كان كما تقول ما كان يشتغل ليعيش من تعبه

— وهل يليق بالفيلسوف ان يكون خادماً في حانوت سكاير حقير ؟

— ليست الخدمة مهما كان نوعها لتشين الفيلسوف . وما نشأ النوابغ الاّ من الطبقات الوضيعة

— نعم ولكنهم كانوا يصعدون واما فيلسوفك فينزل تدريجاً . كان اولاً كاتباً في بنك فما لبث ان طرد منه طرداً لسخافة عقله وانتفاخ اوهامه . ثم تعين في مصلحة التنظيم في وظيفة حسنة فما لبث ان عزل لهفوة نجمت عن جهله احوال العالم وحرم بسببها التوظف في دوائر الحكومة . ثم طاف بجميع الدوائر المالية وغيرها فلم تشفع فيه فلسفته بل كانت الابواب المفتوحة لغيره تقفل في وجهه لان كل ملمحة من ملامحه تعرب عن جنونه . وبعد قليل يكتشف صاحب دكانة السكاير جنونه فيطرده . ومتى أقفلت في وجهه ابواب الرزق يلجأ الى مستشفى المجانين الذي هو نهاية مصيره لا محالة . ولو كان نابغة كما تزعمين ما نبذته اوربا التي هي ارحب مضمار لتسابق النوابغ

فهزت ليلى كتفيها قائلة : — يعرف شأنه

— بالطبع يعرف شأنه ولكني وددت ان اعلمك حقيقة فيلسوفك الذي تطنبين بمقالته وما هي الا كلام لا وزن له لا كوزن اثيره

فضحكت ليلى وقالت : — وتريد ايضاً ان تمحق علمه وفضائله كما تمحق مستقبله

— وتقولين فضائله ايضاً ؟

— نعم فان مبادئه العلمية والفلسفية هي أم الفضيلة

فقهقه صديق وقال : — انك مغرورة جداً بل مخدوعة بعلمه ومعارفه فهي لم تثمر الا الرذائل

فعبست ليلى قائلة : — لا تتم بالرجل وهو غائب

— ليته حاضر الان فاستجوبه عن سيرته أمامك ومهما بالغ في الانكار تتفضح منكراته

— يا لله ! تعزو للرجل منكرات ايضاً !

— اذا كان قد اختطف الفتاة هيفاء التي كانت خادمة عندك واحتظاها في مكان مجهول واهلها يبحثون عنها وهو ينكر علاقته بها افلا تعدين هذا منكراً ؟

فانتفضت ليلى وامتقع وجهها وبقيت صامتة هنيهة ثم قالت : — انك تمين الان يا صديق

فضحك صديق وقال : — ان كنت امين فسينفضح ميني واذا شئت ان تحققي صحة قولي فابحثي عن الفتاة فاذا وجدتها كان لك من اهلها جزاء

— اذا كانت الفتاة مختفية من وجه اهلها فلأن امها تريد ان تزوجها ممن لا تريده زوجاً ولهذا فرت من عند امها وخدمت عندي وهي والحق يقال انبل من ان تكون خادمة

— لماذا لم تبق خادمة عندك ؟

— لعلها علمت ان امها اوشكت ان تهتدي اليها ففرت الى مكان آخر حيث تبالغ بالتخفي

— نعم تبالغ بالتخفي لانها تستحي ان تقول لك انها خليلة يوسف برّاق

فانتفضت ليلى وقالت : — متى عرفته وعرفها حتى يكونا خليلين

— عرفته وعرفها قبل ان تعرفيها والحب بينهما ليس جديداً فقد كانا جارين يتغازلان من شباكيهما

فازداد وجه ليلى امتقاعاً وبعد هنيهة قالت : — كيف عرفت كل ذلك ؟

— عرفته من كثيرين واخصهم صديقه جورجي اجيوس الرومي . هل اقتنعت ان فلسفة فيلسوفك لا تثمر فضيلة ؟

— ماذا يهمني وماذا يهمك ؟

— اود ان لا يهمك امر هذا المجنون السافل ولكن يسوءني ان تصرفي قلبك عني اليه اذا لم يكن لاجل نفسك فلاجل نفسي

— لاجل نفسك ؟

— نعم وهل تجهلين حبي لك يا ليلى ؟

فبقيت صامتةً الى أن قال : — اود ان تفكري يا ليلى عسى ان ترى خطاك واغترارك بما تتوهمينه من محاسن هذا الفتى . تصوري ماذا يقول عنك الناس اذا . . .

— اذا ماذا ؟

— لا اود ان امدح نفسي ولا سيما لانك تعرفيني معرفة القريبة للقريب فاذا تريدين ان يكون من تبتغينه زوجاً ! أعالماً ؟ فلا اظن ان علم الطب وما يتصل بهِ من العلوم امر يخلو من الفخر . اديباً فاضلاً ؟ انت تعرفين سيرتي ومكانتي بين الناس . غنيًّا ؟ اني اغنى مما تتصورين فاذا صرتِ ربة بيتي كنت ملكة في مملكة واسعة . تحف بك بطانة كبطانة الملكات . تسكنين قصراً . ترفلين بالدمقس . تحلين بأثمن الجواهر . تتزاورين مع الاميرات . فبماذا تطمعين بعد ؟

— لا اطمع بشيء من ذلك

— اذاً ما هي امنيتك ؟

— امنيتي ان اكون سعيدة النفس

— اجعلكِ سعيدة النفس كما ترومين

فبقيت ليلى صامتةً الى ان قال : — هل حاسبت ضميرك ؟

— حاسبته من زمان

— وماذا تقولين الآن بعد اطلاعك على هذه الحقائق ؟

— اعتبرني غير موجودة وافعل ما يروق لك

فحظت عينا صديق وقال : — يا للعناد . انك لغبية لا تعرفين مصلحتك — ولا ترين خطاكِ حتى تتألمين من ويله

— لا تشفق عليَّ

— لا استطيع ان اقسو يا ليلى لاني احبك فوق كل حب

— اتأسف ان هذا الحب ضائع بي فليتك تحوله الى فتاة تكون اكثر الفة بك مني

— اذاً لا الفة الا بينك وبين الفيلسوف

— دعني وشأني ولا تزعج نفسي

وبعد سكوت هنيهة قال صديق : — اني اتركك الآن لئلاَّ تتمادي في عنادك . فلعلك متى فكرتِ تعودين الى صوابكِ

فقالت وهي في ملء الكآبة : — اتركني اتركني

فنهض صديق وتناول يدها وهمَّ ان يقبلها فاختطفت يدها من يدهِ مكتفية بالمصافحة فخرج بين يأس وامل

الفصل السابع والعشرون

ما اسهل الغدر على الصديق

في ذات مساء جاء جورجي اجيوس الى يوسف براق وقال له : — اريد ان تستأذن صاحب هذا المحل بالتغيب الليلة

— لماذا ؟

— لاني اود ان تذهب معي لزيارة رجل كبير والتعرف به لانه يهتم الان بمشروع عظيم ويحتاج فيه الى مثلك . فاذا قابلته فلا بد ان تعجبه ويكون لك معه حظ كبير . وقد مهدت لك السبيل فاستأذن بالتغيب صاحب الدكانة متى عاد

— ولكن صاحب المحل لا يأذن

— استعف وامض ولا تسأل عنه . فهل تبقى رهيناً في هذه الدكانة الحقيرة

— من هو هذا الرجل الكبير ؟

— سأخبرك عنه حين نذهب معاً وسأنتظرك الساعة العاشرة في قهوة الشيشة فلا تتردد في مطاوعتي . لا اقدر ان اتأخر دقيقة الآن . الى الملتقى

ولما كانت الساعة العاشرة التقى يوسف بجورجي في قهوة الشيشة فقال هذا له « هيا بنا لئلا يفوت الوقت » فمشى الاثنان معاً الى جهة الحديقة. وكان هناك اوتوموبيل ينتظرهما وفيه رجل وحوذي. فصعدا الى الاوتوموبيل وفي الحال درج بهما . فقال يوسف : — الى الآن لا ادري الى اين انا ذاهب

فقال جورجي : — الى المستر هنري ميس الاميركي. وقد جاء هذا الرجل حديثاً الى مصر لكي يؤلف شركة زراعية كبرى والمسيو فوتيوس هنا (مشيراً الى الرجل الآخر) يقدمك اليه لانه يتكلم الانكليزية

وكان يوسف بين الاثنين فشكر المسيو فوتيوس خدمته

وما هي الا دقيقة حتى رأى يوسف ان الاوتوموبيل يدرج في شارع عباس . وما أوغل الاوتوموبيل في هذا الشارع حتى شعر يوسف ان كفين من حديد قبضتا على ذراعيه من ورائه فعلم انهما كفا المسيو فوتيوس . فدهش ورام ان يصرخ فشعر ان كف جورجي قبضت على عنقه أيضاً وان اسفنجة مبتلة وضعت على انفه ولم يعد يستطيع حراكا . وفي نصف دقيقة فقد وجدانه

***

لم يع يوسف من سباته الا بعد حين وأول ما شعر به ان يديه لم تزالا مقبوضتين فحاول الافلات فخانته قوته لان فعل الكلوروفورم لم ينقض تماماً . وكان يفتح عينيه ويغمضهما فلا يرى الا ظلاماً في الحالتين . ثم ما لبث ان فهم انه موثق اليدين والرجلين ولم يشعر بوجود احد غيره في ذلك المكان فقال في نفسه : — اذا لم اكن موؤداً حياً وكان قضائي عادلين يبقى لي امل بالخلاص لاني لم أرتكب وزراً ولم اسيء الى احد

ثم ما لبث ان سمع حركة وصليل مفتاح في باب ورأى ومضات نور ضئيلة فتنهد الصعداء . وعند ذلك انفتح الباب فرأى يوسف شخصاً مقنعاً بقناع لا يشف عن وجهه وفي يده الواحدة مصباح ضئيل النور جداً وفي يده الاخرى كرسي صغير . فجال يوسف نظره في المكان فاذا هو غرفة فارغة ليس فيها شيء غيره

ثم اوصد الرجل المقنع الباب وجلس على كرسيه امام يوسف وبقي صامتاً والهلع يأخذ من فؤاد يوسف فقال هذا بصوت خافت : — هل انت عزرائيل ؟

فاجابه المقنع : — كلا بل انا نائبه

— من انت ؟

— انا من لا تعرفه ولم تره قط ولن تراه بعد الان

— اذاً لماذا انت مقنّع ؟

— اني مقنع حتى اذا رأيت وجهي في المستقبل لا تعرفني

— اذاً لم يزل لي مستقبل

— نعم ولكن مستقبلك في يدك فاذا اجبتني على ما أسألك بالصدق تعود من حيث اتيت

— والاّ ؟

— فتهلك حيث انت ولا يعلم بك الا اسماك النيل

فخفق فؤاد يوسف جزعاً وقال : — سل

— اين اودعت هيفاء ؟ . قل الحقيقة لانه لا يطلق سراحك الا متى عادت هيفاء الى اهلها

ففكر يوسف هنيهة ثم قال : — وهل ترغم هيفاء على زواج من لا تريده ؟

— ليس هذا شأنك

— ذلك شأني لان لي شرطاً كما لك شرط . فهل يطلق سراحي حالما تهتدون الى محل هيفاء

— لا اقدر ان اعدك بذلك وانما انا مكلف بالاستعلام منك عن مقر هيفاء الحقيقي . وغيري مكلف باستردادها

— وبتزويجها من ذلك الزنيم ؟

— لا ادري

— اذاً لا أدلكم عليها

— اذاً تموت الليلة . وستموت معذباً

ثم نهض الرجل المقنع وهمّ بالخروج كأنه انجز مهمته فصاح به يوسف : — دمي على رؤوسكم يا لئام

— لا تصخب ولا تصرخ فليس من يسمع

— الى اين يا لئيم ؟

— سأعود مستعداً لاهلاكك لان مهمتي لم تنته

— والحكومة والبوليس والقضاء ؟

— احتطنا لكل شيء فما نحن اغبياء
— اين جورجي اجيوس ؟
— لا اعرفه
— من تعرف ؟
— لا اعرف انساناً ولا الهاً
— افما انت انسان ذو قلب ؟
— صرت عزرائيلاً بلا قلب

فاشتد جزع يوسف وقال : — رحماك يا هذا لا اطلب منك كثيراً . اطلب امراً صغيراً جدا وهو ان ترسل لي يهوذا الذي سلمني فاذا كنت لا تعرفه فالذين تعرفهم يعرفونه

— لا تنتظر ان ترى هنا غيري فاستعد للقاء ربك

وخرج الرجل موصداً الباب وراءه وعادت الظلماء تتكاثف على صدر يوسف

الفصل الثامن والعشرون

تطريق فؤاد صلد

بعد ساعة من الزمان حسبها يوسف عاماً انفتح الباب ودخل منه جورجي اجيوس وفي يده المصباح والكرسي ثم جلس . فلما تبيّنه يوسف جحظت عيناه وقال محرّقاً الارَّم

— رح اشنق نفسك
— لماذا ؟
— كذا فعل يهوذا قبلك
— انا ارقى من يهوذا
— لم يجسر يهوذا ان يرى سيده بعد تسليمه
— لذلك انا ارقى منه فهو ابتدأ ولم يكمل اما انا فاكمل ما ابتدأت
— ماذا عساك ان تفعل بعد تسليمي ؟
— ماذا بعد التسليم غير الصلب ؟
— اذاً نحن عدوان

— بل نحن صديقان كما كان يهوذا والمسيح قبلنا
— ولكن الفرق بين يهوذا والمسيح كان عظيما جداً
— والفرق بيني وبينك اعظم
— كيف ذلك ؟
— كان المسيح ويهوذا انسانين
— ونحن ؟
— احدنا حيوان
— اذاً تعترف انك حيوان
— لو كنتُ حيواناً لشنقت نفسي كما فعل يهوذا بعد تسليم سيده
— اذاً انا الحيوان ؟
— نعم . وانا الانسان
— كيف ذلك ؟
— لان الانسان شرير والحيوان صالح . الانسان يكذب والحيوان يصدق . الانسان يظلم والحيوان يرحم . الانسان ينتقم والحيوان يسامح . الانسان غادر والحيوان امين . فانت سيء الحظ لان صديقك انسان فليتك انسان. فما كنت تركن اليَّ . او ليتني حيواناً فما كنت اغدر بك
— اود ان اصوغ منك حيواناً
— يستحيل عليك ان تحول النحاس الى ذهب
— بكم بعتني يا جورجي ؟
— بقدر ما اخسرتني
— ماذا اخسرتك ؟
— اخسرتني الفاً وخمس مئة جنيه
— بعتني باغلى من المسيح
— لاني اذكى من يهوذا فاعرف كيف اساوم
— هل قبضت الثمن ؟
متى انجزت مهمتي اقبض ثلاثة آلاف جنيه
— تغدر بي لاجل ثلاثة آلاف جنيه ؟
— بل لاجل حياتي

— هل حياتك في خطر ؟

— كلا وانما قوتي في خطر من ضعف الهرم . فبثلاثة الاف جنيه اكسب آخرتي . اما نصحت لي ان استعد لآخرتي ؟ فها انا استعد لها

— ابهذا القدر تستعد لها ؟

— لم اجد اسهل من هذه الوسيلة

— تقول متى انجزت مهمتك تقبض الثمن . فمتى تنجزها ؟

— متى عادت الفتاة الى امها

— اذاً كسبك يتوقف على تسليمي الفتاة

— وحياتك أيضاً تتوقف على هذا التسليم

— تعني اما حياة الفتاة لها او حياتي لي وآلاف الجنيهات لك

— بل الكل معاً او لا شيء

— تعني ان نضحي بحياة الفتاة لكي اخلص انا وتكسب انت

— لا خطر على حياة الفتاة ولا نضحي بها

— نعم نضحي بحياتها الادبية

— ستتزوج الفتاة رجلاً وفير الثروة وتكون في نعيم لم تحلم به

— ان ما تعده انت نعيما تعده هي جحيما والا ما نفرت من هذا الزواج

— لم تنفر الا لانك اريتها الوجه المظلم في هذا الزواج . فلو اريتها الوجه المنير ما نفرت بل كانت تتمتع باحلام النعيم الذي ستصل اليه

— لم ارها الا الحقيقة ناصعة فرأت الوجهين وادركت ان الظلمة أبدية ثابتة وان النور ومضة زائلة . ولهذا نفرت من تلقاء نفسها

— انت ظلمت هذه الفتاة

— بماذا ظلمتها ؟

— هي تمثال من شمع وانت طبعت عليه مبادئك

— ابهذا ظلمتها ؟

— نعم لان مبادئك تؤدي الى الشقاء . راجع تاريخ حياتك القصير في مصر وقل الى اي سعادة ادت بك هذه المبادىء . فلو تركت الفتاة بين يدي امها تطبع في خلقها مبادئها لكانت الفتاة وهي زوجة ذلك الغني تشعر انها في نعيم تحسدها عليه الوف الفتيات

— ظلت امها تطبع مبادئها فيها خمسة عشر عاماً وانا لم اطبع فيها من مبادئي الا مدة ساعة فلو لم تكن مبادئي اصح ما ....

— ما زالت الفتاة طينة ليّنة يسهل نسخ القديم منها وطبع الجديد فيها . ردها لامها فتنسخ منها ما طبعته انت وتطبع ثانية ما نسخته

— لم تستطع امها طبع شيء بل كانت تحسن التمويه على عين بصيرتها فلما ازلت انا هذا التمويه رأت الفتاة الحقيقة من نفسها ففرت من نصائح امها

— ما هذا التمويه الذي ازلته انت ؟

— اخبرتها ان للرجل ثلاث خليلات فاذا تزوجته كانت رابعتهن

— بهذا ظلمتها . لانك لو تركتها في عماها لكان في وسع الرجل ان يضع على بصيرتها غشاء فوق غشاء من عيشة الرخاء فتشعر انها في نعيم دائم انت تحرمها منه الآن ولذلك اقول انك ظلمتها

— اتعد عيشة الفجور نعيماً ؟

— نعم . سل الرفيقات الثلاث يخبرنك عن نعيمهن فلو خُيرت احداهن بين مرافقة الرجل والسماء لاختارت مرافقته

— نعم لانها لا تعلم ما هي سماء الحياة الادبية فهي معذورة اذا فضّلت المعلوم على المجهول . فلو خيرت فتاة انطبعت فيها مبادىء الحياة الروحية بين هذه الحياة مع القلة وبين حياة الفساد مع الثروة لفضلت تلك

— كأنك تقول لي « لكل امرئ من دهره ما تعودا »

— نعم

— اذاً لماذا لم تترك هيفاء تتعود الحياة الاخرى الجسدية ؟

— لانها تعودت الحياة الروحية اولاً فاذا جربت الاخرى وجعلت اخيراً تقابل بينهما شعرت انها سقطت في شقاء هائل لا تعود تستطيع الخلاص منه . فانا اريد ان انجيها من هذا السقوط

— اتعد عيشة الغنى والسعة شقاء وسقوطاً ؟

— نعم . سل اي واحدة من اولئك الرفيقات هل تريدين ان تعيشي عيشة زوجية طاهرة ليس فيها استعباد للسعة ولفضل الرفيق الذي لا يرضيه شيء — تتنهد وتقل لك « آه لو يمكن ذلك ! » ؟ فهل تنكر انه يستحيل ؟ نعم يستحيل لانها سقطت الى هاوية عميقة ولا يمكن ان تصل اليها يد لتنتشلها . افلا تعد ذلك سقوطاً هائلاً

ففكر جورجي هنيهة وقال : — ولكن هذه القاعدة ليست مطّردة افلم تر امرأة تركت الحياة الزوجية الطاهرة واتخذت الحياة الجسدية الفاسدة ؟

— نعم ولكن سلها ذلك السؤال بعد ذلك تجبك نفس الجواب

— قد تجيب نفس الجواب وقد تجيب عكسه

— ان اجابت عكسه كان لها بعض العذر وكان لذلك سبب ولكن ليس جوابها سنّة ما دامت هناك ساقطات يتحسرن على النهوض

— كأنك تقول لي ان النساء صنفان صنف يندم وصنف لا يندم

— نعم والصنف الاول اغلب وهيفاء منه واما اريد ان اقيها الندم على زلة القدم

— ما انت مسؤول عن الفتاة

— بل انا مسؤول لاني تعهدت لها بالخلاص والاخلاص فلا انقض عهدي

— هل تريد ان تتزوجها

— لا . لا

— اذاً انصح لك ان تسلمها

— لن اسلمها

— اذاً اتأسف انك لم تقبل نصائحي والاخير منها أثمنها

ونهض جورجي وحمل فانوسه وكرسيه وهمّ ان يخرج فصاح به يوسف قائلا : —

جورجي

— نعم

— تعال اجلس

فجلس جورجي قائلا : — جلست . ماذا تريد ؟

— اليس لك قلب

— كان لي . واما الآن فانا بلا قلب

— انا ارد قلبك اليك

— لا اريد استرداده لاني بلا قلب اسعد حالا مني به

— لقد نسيت لذة القلب يا جورجي

— لم أنس لوعته

— اذاً لم يزل لك اثر قلب . فبالله قل لي كيف فقدت قلبك

— فقدته مع بنيّ وزوجتي

— هل تريد ان يكون لك بنون ؟
— لا
— لا تجاوب بلا تعليل
— لماذا اريد ان يكون لي بنون ؟
— لكي تعيش بقية العمر اسعد منك الآن
— كيف اعيش اسعد مني الآن ؟
— بحب البنين
— ابعد هذه الشيخوخة استطيع ان احب ؟
— تحب حبًّا اعظم من حب الشبيبة
— وهل بقي من العمر ما يكفي للزوجة والبنين ؟ انك تدفعني الى تعاسة
— اي تعاسة هذه ؟
— تعاسة ان ارى زوجة واطفالا لا استطيع ان اعولهم مع نفسي فاموت منغصاً وتعيش عائلتي بعدي شقية . لا . لا . ان نصحك معكوس النتيجة
— وما قولك اذا كنت اباً لاولاد كبار لا ينفصك تركهم ولا يشقون بعدك ؟
فضحك جورجي قائلا وهل تظن اني احب اولاداً ليسوا من دمي ؟
— لماذا كنت تحب بنيك ؟
— لاني ربيتهم وبذلت روحي لاجلهم فاحبوني
— واذا كنت الآن تبصق على الثلاثة آلاف جنيه لتخلص حياة فتى الجسدية وحياة فتاة الروحية فكم تظن يكون حبهما لك ؟

ففكر جورجي مطرقاً وبقي صامتاً فقال له يوسف : — اود ان تتصور كم يكون حب يوسف وهيفاء لك . لا تستطيع ان تتصور ذلك طبعاً

فرفع جورجي نظره الى يوسف وقال متنهداً : — الحق اني لا ادري
— انا اصور لك ذلك . هل تعرف حكاية الاسد ؟
— ما هي حكاية الاسد
— قيل ان اميراً كان يحب فتاة وكانت الفتاة تحب سواه ففرَّت من امام وجهه وتاهت في البراري فارسل عصابة وراءها . فلجأت الفتاة الى كهف وباتت فيه فلما طلع الصباح استيقظت على انين مخيف فرأت في جانب من الكهف اسداً مضجعاً يتألم كأنه يموت . فجزعت في اول الامر ورامت ان تنسل من الكهف ولكنها رأت العصابة التي

تطاردها فخافت ان تقع في ايديها وفضلت ان تقع فريسة للاسد على ان تكون فريسة للامير فتقدمت اليه ورأت في رجله شوكة كبيرة . فادركت سر انينه . فشددت قلبها وتقدمت الى رجله واستخرجت الشوكة منها وهو ينظر اليها . ولما استراح الاسد خرج من الكهف فطاردته العصابة وتغلبت عليه واسرته . وبعد ذلك لم تستطع الفتاة فراراً من وجه العصابة فوقعت في يد الامير . ولما عجز الامير عن استمالتها اليه امر ان تربط الى عمود في رحبة مسورة بالحديد وان يطلق الاسد عليها . وكان ما امر . فهل تعلم ماذا حل بالفتاة ؟

— هل اعرض الاسد عنها ؟

— بل حل وثاقها . اليس ذلك عجيباً

فقال جورجي مكفهراً ليس عجيباً لان الاسد حيوان يذكر الجميل والامير انسان مفترس

— حسن . فما قولك بحيوانين ارق من الاسد قلباً وكم يكون حبهما لك اذا انقذت حياتهما

— يكون شديداً طبعاً

— فما قولك اذاً ان تنقذني وكلانا ننقذ هيفاء ونعيش انا وهيفاء معك كولدين لك ونعنى بك كأب حتى آخر نسمة من حياتك

فكاد جورجي يجهش بالبكاء ثم تجلد وقال : — ما زلت يا يوسف خياليًّا وتريد ان تمثل تمثيلاً . اذا كنا انت وانا حرّين لنمثل هذا الدور فهيفاء ليست حرّة بل هي مقيدة بأم لا تزال حية

— لقد صدقت انها حية تلسع فما هي ام هيفاء

— صفها ما شئت واما هي فتعتقد انها تخدم ابنتها

— قلت لك ليست هيفاء ابنتها ولا تلك المرأة الفاجرة امها . بل هي خالتها وقد لا تكون خالتها ايضاً

— ماذا تقول ؟

— اقول ان هيفاء قالت لي انها تعرفها خالتها وانما تلك المرأة السليطة تدعي الان انها امها

— الا تعرف هيفاء امها الحقيقية ؟

— كلاَّ . لا تعرف امها ولا ابها ولم تعِ على هذا العالم وشقائه الا وهي في حوزة

تلك الفاجرة وهي ادعت لها انها خالتها لا امها . فلا يبعد ان لا تكون خالتها ايضاً . ولهذا اقول لك ان هيفاء تقدر ان تحرر من رق تلك الفاجرة بمجرد ارادتها

فسكت الاثنان هنيهة ثم قال جورجي : — قد اصبحتُ رجلاً شريراً يا يوسف فلماذا تحاول عبثاً ان تشتق مني رجلاً طيباً . لا طيب من الخبيث

— لا بد انك كنت قبلاً رجلا طيباً فليس مستحيلا أن تعود الى أصلك . فاصل الشوكة بزرة في وردة ثم نضجت فازهرت وردة ايضاً

فبقي جورجي ساكتاً هنيهة ثم وقف يريد الخروج فقال له يوسف : — اذا قررتم تنفيذ قضائكم عليَّ فلي عليكم شرط واحد

— ما هو ؟

— هو ان تنفذ القضاء انت وحدك

— تعني انك تريد ان تجمع كل الجمر على راسي

— لا بل اريد ان لا تمتد الي يدٌ دنسة فهل عندكم فرق اذا كان الموت واحداً ؟

ففتح جورجي الباب فقال له يوسف : — ارجو منك معروفاً واحداً

— ما هو ؟

— هو ان لا تدعني ارى غيرك

فاقفل جورجي الباب وهو يكفكف دموعه

الفصل التاسع والعشرون

الضمير المستتر

بعد حين كان جورجي وجميل مرمور في حانة سفنكس بار . فقال جورجي لقد انجزت مهمتي يا جميل وخدمتكم خدمة لا يخدمها سواي فاين بقية الالف وخمس مئة جنيه ؟

— ولكن الفتاة لم تعد بعد

— ليس هذا شأني . على م اتفقنا ؟

— على تسليم الفتى . فلا انكر

— لقد سلمته فاود ان تبرّوا بوعدكم

فضحك جميل قائلاً : — لك حق . هذا تحويل بقيمة السبع مئة والخمسين جنيهاً الباقية ولكن لم نزل في حاجة اليك

— اني مستعد لكل خدمة . ولكل خدمة ثمن

— لا يبخل فهيم بك بثمن

— اذاً نشرب كاسين على حسابي

— وبعد ان تساقيا هنيهة قال جورجي : — اني استغرب بذل فهيم بك الجزيل لاجل هذه الفتاة . ويظهر انها نافرة والفتى الذي يخفيها عنيد لا يود ان ينم عن مقرّها

— اما هي فلا بد ان تلين . اما الفتى فتى احس بالتعذيب يقرّ

— ولكني لا افهم لماذا لا يكل فهيم عن طلبها والحسان كثيرات ؟

— لا يكل عن طلب هيفاء مهما بذل حتى ولو تزوجها فعلا زواجاً شرعياً

— اذاً يحبها حباً مفرطاً ؟

فقهقه جميل وقال : — وهل مثل فهيم بك يحب كما تعني ؟

— اذاً . لماذا هذا الحرص عليها ؟

— له مصلحة كبيرة

ففتح جورجي عيني بصيرته وقال : — لا بد ان تكون المصلحة مالية لاني اعرف ان فهيم بك لا يهمه قبل شهواته الا المال

— لقد حزرت يا شقي

— اذاً الفتاة غنية

— جدًّا

— ليتني طلبت جزاء اكثر بدل تسليم يوسف براق

— يكون لك جزاء مضاعف اذا استطعت ان تضع الفتاة وفهيم تحت يدي الكاهن

— قد استطيع . ولكني لا افهم كيف ان الفتاة غنية وهي وامها تعيشان على حساب فهيم بك كالحلم على الشجر . أفلا تدري الفتاة انها غنية ؟

— ولا امها تدري بذلك ايضاً

— كيف درى به فهيم بك ؟

— اراك تتمادى في اكتشاف الاسرار يا جورجي فاقصر

— يالله ! وهل بيني وبينك اسرار ؟ اما اطلعتك على اسراري ؟ . . ولكن حاذر يا مرمور ان تبوح باسراري لاحد لئلا تكون نقمتي منك لا تطاق وانا اعدك اني لا ابوح بسر من اسرارك

— اتفقنا على الكتمان . ولكن هذا السر لا يهمك

— الحق انه لا يهمني ولكني لا اود ان اقف عند لغز ولا احله

— وماذا يفيدك حله ؟

— قد يفيدني في البحث عن الفتاة . يمكن ان اتوسم منه ما يرشدني الى وسيلة لمعرفة مقرّها . فقل لي كيف عرف فهيم بك ان للفتاة ثروة طائلة وهي وأمها لا تعرفان ؟

— لاحظت ان اخاه او بعض ذويه في سوريا كتب اليه في ذلك . وفهمت من خلال حديث فهيم ان كاهناً جاء الى القاهرة ليبحث عن الفتاة لانه ظهر لها ميراث كان مجهولاً

— اذاً فهيم ومن كتب له يعرفان نسب الفتاة المجهول ويعلمان انها غنية ؟

— اراك تحاول ان تسرقني يا شيطان

— لا والله . واي مأرب لي من سرقة اسرارك . بيد اني اود الاطلاع على كل الحقائق المتعلقة بالفتاة حتى يسهل عليّ البحث عنها . ففهيم اذاً يعرف اصلها وفصلها اكثر منها ومن أمها . لان الميراث يتوقف على النسب فاذا كان ذاك مجهولاً فلأن هذا مجهول ايضاً

— الحق لا ادري . لاني لا اعرف كل اسرار فهيم وهو على ما يلوح لي جعبة اسرار . وانما لاحظت انه يعرف عن خصائص الفتاة ما لا تعرفه هي ولا امها . والارجح ان امها لا تعلم شيئاً عن هذا الميراث

ففكر جورجي هنيهة ثم قال :— ألا تعلم ماذا يعرف فهيم بك عن نسب الفتاة ؟

— لا . ولكن يخالج ظني انه اكتشف علاقة نسب بينه وبين الفتاة . وهي وامها تجهلان هذه العلاقة

— تقول ان كاهناً يبحث عن الفتاة ؟

— نعم

— ونحن نبحث عنها ؟

— نعم

— فهل تعرف هذا الكاهن ؟

— اعرفه

— قل لي من هو وانا ابحث معه عن الفتاة ومتى اهتديت اليها اجرها اليكم قبل ان يدري بها

— فكرة حسنة جداً . تستعين بمعلومات الكاهن

— نعم نعم
— اذاً اذهب الليلة الى البطركخانة واسأل عن الاب امبروسيوس ولكن اياك . .
— لا تخف لا يفهم شيئاً . ولكن الجزاء ؟
— اطلب
— الفي جنيه
— خذها مني مضاعفة اذا زوجت الفتاة من فهيم . . .
— آخذ الفين حال رد الفتاة
— والفين بعد الاكليل
— هات يدك
تصافحا

ذهب جورجي الى البطركخانة قبل الغروب وطلب مقابلة البطريرك فاستقبله غبطته فقال جورجي علمت يا سيدنا انكم تبحثون عن فتاة فهل تقولون لي ما اسمها ؟
— لماذا ؟
— لاني اقدر ان افيدكم عنها شيئاً
— اسمها هيفاء على ما نظن
— واسم امها ؟
— يقال ان اسمها نديمة الصارم فهل تعرفها ؟
— لا وانما اعرف من يعرف الفتاة وربما كان يعرف اين هي ؟
— حسناً . ولكن من قال لك اننا نبحث عن هذه الفتاة ؟
— علمت بالصدفة أن الفتاة مخبأة لكيلا تقع في يد غبطتكم ولهذا جئت لكي اتفق معكم على البحث عنها اذا كان لي اجرة

فوجم البطريرك قليلاً ثم قال : — لا بأس اذا كنت تستطيع ان ترشدنا الى الفتاة نكافئك . ولك ان تذهب الى المسيو لويس المراني وتتفق معه بهذا الشأن لانه مفوض به

ثم اعطاه عنوان بولس المراني . ولما خرج جورجي تناول البطريرك بوق التلفون ليخاطب بولس المراني . . .

الفصل الثلاثون

المفاجأة

قضى يوسف براق في ذلك السجن المظلم مدة لم يعرف قياسها اذ لم يكن عنده قياس للوقت فما عرف الليل من النهار ولا ميز بين اليقظة والكرى لانه كان متصل الاحلام والاوهام فيهما . وقد زاره ذلك الرجل المقنع مرة واحدة فقط اذ اطعمه وجبة واحدة واعاد استنطاقه مكرراً الوعيد والتهديد ويوسف مصر على الانكار

واخيراً جاء الرجل المقنع ثالثة وقال : — هذه هي المرة الثالثة والاخيرة فاذا لم تقرّ قضيت على نفسك بنفسك فماذا تقول الآن ؟

— اقول كما قلت اولاً

— اذاً تريد ان تموت ؟

— لست اول من مات مظلوماً

— عجيب عنادك . الا تحب نفسك ؟

— احبها جدًّا ولكني افتدي بها حياة روحية

— اذاً مت هنا محترقاً والمنزل يحترق معك فلا يعلم بك احدٌ

ثم ادخل الرجل حزماً من القش الى الغرفة الضيقة ودق وتداً حديدياً في وسط الغرفة وربط يوسف فيه وهو موثق ثم وضع كيساً صغيراً في جانب الغرفة واثبت عليه شمعة وانارها ثم قال ليوسف : — لم يبق لك من العمر الاَّ بقدر عمر هذه الشمعة فمتى ذابت ولم تبق الا ذبالتها احرقت ما في هذا الكيس وهو مادة قابلة الاشتعال ولكن بلا انفجار ومتى احترقت هذه المادة ألهبت هذه الحزم واحترقت انت معها . واخيراً يحترق البيت كله ولا تستخرج انت منه الاَّ رماداً. ولا يشعر احد باحتراقه الاَّ بعد ان يفوت الوقت الذي يمكن فيه اطفاؤه لانه في غيضة بعيدةٍ عن المنازل

— رمادي ينمُّ عن جنايتكم

فضحك الرجل المقنع وقال ان المنزل مستأجر باسم يوسف براق فاذا نمَّ رمادك عن الاحتراق ثبت انك احترقت قضاء وقدراً او منتحراً

— لله من شركم . ويوم الدينونة ؟

— لا نعرفه

وبقي الرجل المقنع واقفاً كانه ينتظر توسلاً من يوسف ولكن يوسف قال له : — هل انتهت مهمتك ؟

— نعم

— اذاً اخرج يا لئيم

فخرج الرجل واوصد الباب وكان يوسف ينظر الى الشمعة وهي تذوب تدريجاً حتى صارت نصفها فانفتح الباب ودخل الرجل المقنع وقال : — هل حاسبت ضميرك ؟

— حاسبته فماذا تريد ؟

— اريد ان اعلم ان كنت قد ارعويت

— اخرج يا لئيم ولا تقف امامي

فخرج الرجل المقنع قائلا : — اذاً مت . لن اعود اليك بعد

لم يبق من الشمعة الا قيراطان ويوسف يشجع نفسه وهو يقول في نفسه : — اني رجل طيب القلب فان لم يكن لطيبتي فائدة في هذا العالم فلأمت وخير لي ان انتقل الى عالم آخر من ان ابقى فيه

ولكن الشمعة ما زالت تذوب وفؤاد يوسف ينهلع وكان احياناً يقول في نفسه : — « ليت هذا الشرير يعود » ثم يتشجع ويقول : — لا . لا اتنازل عن مبدئي. فلتعش روح هيفاء وليمت جسدي . واخيراً قال ملء صوته — : ايهاذا المقنع تعال لعلنا نتفاهم

فلم يسمع جواباً ولا انفتح الباب فقال : — اذاً هؤلاء اللئام لا يمزحون بل يعنون ما يقولون وما يفعلون

فحاول النهوض من مصرعه مع انه موثق اليدين والرجلين ولكن الخوف اذا امتزج بالأمل ولد القوة . فانتفض يوسف من مكانه انتفاض النمر وهو يثب . فانقلع الوتد من مكانه . ودحرج يوسف نفسه حتى قرب من الكيس وادار ظهره اليه وجعل يرفع يديه من وراء ظهره حتى يصبح الحبل المتوتر حول ساعديه فوق اللهيب . كان يفعل ذلك المرة بعد الاخرى لكيلا يلسع اللهيب ذراعيه المكتوفتين حتى احترق وتر من الحبل قليلاً فانتفض ثانية وثالثة فانقطع وتر من الحبل . وما زال ينتفض حتى انحل وثاق يديه . ثم حل وثاق رجليه ورفع الشمعة عن الكيس ووضعها على الارض بكل هدوء وتناول الكيس وفتحه فاذا هو مملوء رملا . فقال باسماً متنهداً : — لا يجسر هؤلاء الطغام ان يحرقوني فهم متهددون فقط . لا بد ان يأتي هذا المقنع ايضاً وسيكون بيني وبينه صراع . فالى متى ادّخر هذه القوة العضلية ؟ اني مصارعه لا محالة

وتناول يوسف الحبل وجعل يقلبه بين يديه . ثم تقدم الى الباب فوجده موصداً بقفل منيع فحاول ان يفتحه فلم يستطع

ثم سمع حركة فكمن وراء الباب والحبل في يديه . ثم سمع صليل المفتاح في الباب فتحفز للوثوب على من يدخل . وما ان انفتح الباب حتى انقضّ يوسف على الداخل وطوقه بذراعيه يريد ان يصرعه لكي يوثقه . ولكنه دهش اذ وجد نفسه يضم امرأة — ليلى !

فما لبث ان حلّ ذراعيه عن صدرها وتراجع الى الوراء وهو ينظر اليها وهي تنظر اليه وصدرها يرتفع لحظة وينخفض اخرى فوق فؤادها الخافق

الفصل الحادي والثلاثون

مشاجرة الكبرياء والانفة

وكان اول من تكلم يوسف فقال : — ايصدق ظني اني اسيرك هنا ؟

— انّى لي ذلك ؟

— لو اردتِ !

— لو قدرتُ !

وبعد سكوت هنيهة قال يوسف : — ما الذي جاء بكِ الى هنا ؟

— الطيش

— ماذا تقصدين ؟

— اياك اقصد

— ماذا تريدين ؟

— لا ادري

— من ارشدكِ اليّ ؟

— الخفقان

— كيف قدرت ان تصلي الى هنا ؟

— قوة القوي قدرتني

— ألك صلة بهؤلاء الطغام ؟

— صلة حديثة

— والان ماذا تريدين ؟

— اريد ان نخرج من هنا
— الى اين ؟
— الى حيث لا يدري بنا احد

ومشت امامه فتبعها واقفلت الباب واوصدته . ثم صعدا في سلم ولما انتهت السلم رأى يوسف نفسه في رحبة منزل . فعلقت ليلى المفتاح في مسمار في الحائط وفتحت باباً فرأى يوسف منه نجوم السماء . ثم خرجا من هذا الباب فاوصدته ليلى وحينئذ رأى يوسف نفسه في حقل رحيب والمنزل في وسطه والمنازل الاخرى بعيدة عنه جداً . ثم مشيا في الحقل الى ان بلغا شارعاً ندرت الابنية على جانبيه وكان هناك اوتوموبيل ينتظرهما فصعدت ليلى اليه وصعد يوسف بعدها وهما صامتان . وفي الحال اطلق الحوذي العنان للاوتوموبيل فسار بسرعة البرق هنيهة قصيرة . ثم استوقفت ليلى الاوتوموبيل ووضعت في يد الحوذي قطعتين من فضة وقالت للحوذي : — استمر في سبيلك

فاستأنف الحوذي سيره ومشت ليلى في شارع آخر ويوسف يتبعها كما يتبع الكلب الامين سيده الى ان بلغا قهوة فدخلا الى الغرفة القصوى منها وجلسا في زاوية فيها ولم يكن في تلك الغرفة احد

بقيا صامتين نحو دقيقتين ثم قال يوسف : — لم افهم شيئاً . فقالت : — ولا انا افهم
— لماذا استخرجتني من سجني ؟
— لماذا كنتَ سجيناً ؟
— عُوقبتُ لاني كنت افتدي روحاً طاهرة
— اين تلك الروح ؟
— اذا كنتِ تصرين على الاستعلام فرديني الى سجني
— تعني انك لن تقول
— نعم لن اقول
— لا بأس انت حرّ . فهل تأذن لي بسؤال آخر ؟
— اسألي
— لماذا اخبأتها ؟
— لكي اصونها
— ممّاذا ؟
— من السقوط الهائل

— اي سقوط هذا ؟
— سقوط النعجة الوديعة بين مخالب الذئب الدنس
— ليتك تفصح لانَّ الفهم محدود
— ان الذي يبتغي الزواج من هيفاء خليل ثلاث نساء وهو يطمع ان يجعلها رابعتهنَّ
فارتجفت ليلى وقالت : — اذاً لستَ محتفظاً بها ؟
— بل احتفظ بها احتفاظ الاخ باخته
— وهي ؟
— تحتمي بي احتماء الاخت باخيها
— كيف عرفتها ؟
— أنتِ عرَّفتني بها
فسكتت ليلى هنيهة ثم قالت : — لا ادري ان كان يحق لي هذا السؤال
— متى عرفت السؤال ارى ان كان يحق لك ان تسأليه
— هل الفتاة عزلاء في منزل وحدها ؟
— كلاَّ بل هي بين طاهرات مثلها
— وكنت تزورها طبعاً ؟
— لا لم أرها الاَّ ساعة اودعتها في حصنها المنيع
فتنهدت ليلى الصعداء وقالت : — اصفح عن جسارتي
ثم نهضت وهي تقول : — « بونسوار »
فقال وعيناه تجحظان : — يا للكبرياء
— من ترمي بهذا السهم ؟
— ارمي من ترتد عنها السهام متكسرة
— ولكنه سهم سامٌّ مؤلم
— الكبرياء لا تتألم
— تتألم اذا كان رامي السهم الانفة
— الانفة تقلِّص والكبرياء تمدُّد . الانفة مفعول والكبرياء فاعل . فلو لم تكن كبرياء لم تكن انفة
فسكتت ليلى مفحمة ثم قالت : — ولكن الشعور شاهد صادق
— عاذا يشهد ؟

— يشهد بان الكبرياء متألمة فهي اذاً اضعف من الانفة

— اذا كان الشعور شاهداً صادقاً فما هو قاض عادل حتى يحكم بين متنازعين بل هو يشهد مع جانب على آخر . فهل تسمعين الشاهد الذي يشهد من جانب الانفة

— ماذا يشهد ؟

— يشهد بان الانفة متروكة والكبرياء تاركة . الانفة قاعدة والكبرياء واقفة

فلاحت بين شفتي ليلى ابتسامة خفيفة كانت تحت توردها كبقية شعاع بعد شفق ثم قالت بعد سكوت قصير : — تريد ان اقعد ؟ . قعدت

وجلست على كرسيها كما كانت اولاً فقال لها : — لا قوة لارادتي فيما هو وراء دائرة ذاتيتي فاذا لم تريدي انت فلا استطيع ان اقعدك

— ولكنك اردت انت فقعدت أنا

— المجاملة تؤلم احياناً يا ليلى فاذا كنت تؤثرين الذهاب فارتاح لما تؤثرين

— اذاً لا يروق لك بقائي

— الكبرياء تراوغ الآن

— انت تقول انك ترتاح الى ذهابي

— ما زالت الكبرياء تراوغ . قلت ارتاح الى ذهابك اذا كنت تؤثرينه وترتاحين اليه . وما ترتاحين اليه يروق لي اكثر مما لا ترتاحين اليه

— من قال لك اني لا ارتاح الى البقاء ؟

— لانك لم تريديه

— من قال لك اني لا اريده ؟

— انت قلت اني اردت انا فقعدت انت

— معنى ذلك ان ارادتينا اتفقتا

— ليتك قلت ذلك اولا فكنت تنقذيني من ألم المجاملة

— لا افهم كيف تؤلم المجاملة

— لانها تمويه على الحقيقة

— ليست كذلك دائماً فقد تكون مبالغة في الحقيقة

— اذا كانت المجاملة الحقيقية مكبرة كانت الكبرياء متشامخة والتشامخ يقتل

ففكرت ليلى هنيهة ثم قالت : — نعم الكبرياء قاتلة . هل نسيت يوم زرتنا ؟

— لن انسى

— ماذا تسمي رفضك دعوة اخي للغداء معنا ؟

فتراجع يوسف الى الوراء مرتبكاً واعمل ذهنه في الرد ولكن ذهنه خانه فسبقته ليلى قائلة : — كبرياء قاتلة

فقال لها : — لم انس ايضاً اني تتبعتك الى منزلك مصادفة

— ودخلت الى المنزل ؟

— مصادفة ايضاً لان اخاك صادفني فاضطررت ان ادخل معه

— ولا تسمي هذا كبرياء ؟

— لم انسَ ايضاً ما كان في الترام

— ولا انا نسيته

— اذاً هل كنت تودين ان اتحوّل الى صنم لا يحس ؟

— اذاً هل كنت تبغي ان تجمع جمر نار على رأسي

— لماذا ؟

— لانكَ لم تصفح عني

— بعد ان خاشنتكِ ؟

— استحق . لاني تجاسرت عليك

— اذاً انت نادمة على هذه الجسارة ؟

— نعم

— ما زلت تنكرين كبريائك

— بل انت لا تزال تنكر كبرياءك والاَّ لبقيت حتى بعد الغداء

— لو بقيت ؟

— ما كنت اندم على جسارتي لاني أفهم انك صفحت عني

ففكر يوسف هنيهة ثم قال : — اذاً انا كنت ارفض سعادتي . اعترف اني اخطأت يا ليلى ولكني لم ادر اني مخطىء الاَّ الآن

— لانك متكبر وبقيت متكبراً

— كيف

— هل نسيت حادث سبلندد بار ؟

— لم انسه

— ماذا تسمي رجوعك منه حال وصولنا اليه ؟

— عدت وجلست وراء زجاج الباب

— توهمتك هناك . فماذا تسمي ذلك ؟ كبرياء طبعاً

فسكت يوسف مفحماً . ثم قال : — تحاشيت ان يسؤك وجودي

— وهذا ضرب من ضروب الكبرياء . ثم ما قولك بتركك اياي بعد حادث المركبة ؟

— لم انم ليلئذ يا ليلى فلا تذكريني بذلك الليل

— ذلك عقاب الكبرياء . وما قولك بعدم زيارتك ايانا واخي كان يتوسل اليك لاجل زيارة ؟

— فسكت يوسف فقالت ليلى : — يا للكبرياء

وبقي يوسف صامتاً لانه لا يحسن التمحك . ثم قال بعد هنيهة : —

اتتذكرين الآن رسالتك ؟

— اتذكرها جيداً حرفاً حرفاً

— الا تسمينها كبرياء ؟

— لا بل انفة . اما قلت انت انه حيث لا كبرياء فلا انفة ؟ وانا اقول متى ظهرت الكبرياء تظهر الانفة . فاين جواب رسالتي ؟

— بقي مع هيفاء ووقع في يد امها فظنت انه مني لهيفاء واني اغازل الفتاة

— هل عدمت وسيلة اخرى لارسال جواب سواه ؟

— ارسلت

— مع من ؟

— مع اخيك

فاختلجت هيفاء اذ بدر الى ذهنها في الحال ان قصده من « سفر التكوين » ان يكون كرسالة خاصة اليها باسلوب ضمني فقالت : — قرأته ولكن ما ادراني ان يكون لهيفاء لا لي

فنظر يوسف اليها جاحظ العينين وقال : — اذا كنت لم تعلمي انه لك فما هو لك

— كيف اعلم وهو خطاب مطلق لضمير مطلق

— اذاً ليس لك . ليس لك يا ليلى

— اذاً لهيفاء

— لا . لا . ولا لهيفاء

— اذاً لمن ؟

— اذا لم يكن لك فما هو لاحد

— هل يمكن ان يكون لي ؟

— نعم

— كيف ؟

— ماذا شعرت حين تلوته ؟

— شعرت بخفقان لم اشعر بمثله في حياتي

فتنهد يوسف الصعداء وقال : — اذاً هو لك وقد فهمت ولكنك تنكرين . فماذا تسمين هذا الانكار ؟ كبرياء طبعاً — فيا للكبرياء !

فسكتت ليلى هنيهة ثم قالت : — اذاً الامر بين كبريائي وكبريائك فدعنا نرى أي الكبريائين اشمخ واقتل . هل تذكرني بفعل فعلته يماثل فعلك في سبلندد بار ؟

— لو كان في وسعك ان تفعلي مثله لعلك لم تتردّدي

— من قال لك انه ليس في وسعي

— انت مقيدة بجماعة دائماً فلا تخرجين وحدك

— كلاّ لست مقيدة بل لي الحرية ان افعل ما اروم وابي واخي يوافقان على كل ما افعل لانهما يعلمان سرّ من ربياها

— حسنٌ ولكن لم يتفق ان تكوني وحدك حتى اذا صادفتني تنفرين او تقربين

— من كان معي يوم حادث الترام ؟

— خادمتك هيفاء

— فما هي رقيبة

— فاذا ؟

— اما التقينا ؟

— الصدفة جمعتنا

فضحكت ليلى فقال لها : — لماذا تضحكين ؟

— اضحك لاني لو لم اتهر الحوذي حتى يسرع مرافقاً الترام الذي كنت انت فيه ما تعرضت لذلك الخطر الهائل بانقلاب مركبتي

فنظر يوسف فيها قائلاً : — ليلى سامحي كبريائي

فقالت : — وما قولك بوجودي هنا الان ؟

فبهت يوسف وبقي صامتاً

بعد هنيهة قال يوسف : — ليلى

— نعم

— هل من قياس لرحمتك ؟

فابتسمت قائلة : — لا

— ولا قياس لاثمي . ومهما كانت رحمتك عظيمة فاثمي اعظم واود ان اكفر عما يزيد من اثمي على رحمتك فهل استطيع ؟

— نعم تستطيع بان تتم « سفر التكوين »

— لا شيء بعد اللانهاية يا ليلى

— نعم لا يزال ما قبلها وما بعدها فارغين فاملأهما

— لقد فرغت معرفتي فعلميني بماذا املأهما

— بان تعنون « سفر التكوين » وتوقع عليه الان

فابتسم يوسف قائلاً : — الان ؟

— نعم الان . ها السفر

ثم تناولت من صدرها كيساً من حرير بديع الصنع وفتحته فظهرت فيه ورقة فتناولها يوسف وفتحها فاذا هي نسخة من « سفر التكوين » بخط ليلى . فسطع محياه نوراً ونظر اليها فاذا بها تقدم له قلماً سيالاً فتناوله وكتب في رأس الورقة : —

الى القوة الفاعلة — ليلى

ثم وقع عليها هكذا : —

الذرَّة المنفعلة

يوسف

فتناولت ليلى الورقة منه ونظرت فيها وهي تزمهرُّ ثم قالت له : — هذا سفر التكوين يا يوسف فاين سفر الرؤيا الذي يتم به الكتاب المقدس ؟

— لقد مرَّ زمان الرؤيا ونحن في ساعة الدينونة ياليلى فكيف اعلم انك غفرت اثمي ؟

فمدت له يدها مرتجفة فتناولها وقلبه ينتفض ووضعها على فمه . وكأن القوة فارقتهما حينذاك فكانا كمثالين صاغتهما الطبيعة مرة في عمر الابدية ولم تعد تعرف كيف تصوغ مثلهما ثانياً . ولولا حركة في الغرفة المجاورة ما استطاعت يده ان تفلت يدها ولا يدها يده

وبعد هنيهة قال يوسف : — وماذا بعد هذا يا ليلى ؟

— ماذا بعد تجاذب الجرمين ؟
— الالفة
— اذاً كلانا واحد
— وليس في العالم ما يزيدنا الفة فنحن في لغة الطبيعة زوجان
— بلا اكليل ؟
— الاكليل للاجساد لا للارواح . للمواد لا للقوات
— اذاً نحن زوجان بالروح
— نعم لا بالمادة
— لا تهمني المادة يا يوسف
— اذاً نحن في غبطة لا يدركها سوانا

الفصل الثاني والثلاثون

كيف اهتدت ليلى الى يوسف

انتهت المناجاة الروحية بين ليلى ويوسف فهمت ليلى ان تنهض لتنطلق فقال لها : — الى اين ؟
— تعود المادة الى حيزها
— للمواد نصيب من التفاهم ايضاً فقبل ان تفارقيني اود ان اعلم من أرشدكِ اليّ
— الذي اعطاني مفتاح سجنك
— اذاً تعرفينه ! فمن هو ؟
— انت تعرفه وهو صديقك اليوناني
— كيف عرفتِ انه صديقي
— لاني رأيته معك غير مرة
— فاحمرّ يوسف خجلاً لانه تذكر حين لمحها في المركبة مع أخيها من حانوت اللفائف اذ كان جورجي اجيوس يكلمه فاحجم عن التمادي في هذا الموضوع وقال : — كيف اتصل اليوناني بكِ ؟
— جاء في هذا المساء الى منزلنا يسأل عن عمي لانه يعتقد ان منزلنا منزله وعمي يسكن في الطبقة التي فوقنا . ولم يكن في المنزل احد غيري . وحالما رأيته عرفته اليوناني

الذي يعرفك . فوددت ان أستقط منه اخبارك لاني قصدت مرة الى حانوت اللفائف فلم أرَك فيه . فسألت صاحبه فقال انك خرجت ولم تعد . فقلقت عليك وصرت اود ان ارى من يعرفك لكي اسأل عنك . فلما رأيت ذلك اليوناني استبشرت . ولما دخل رحبت به فقال : « اود ان ارى المسيو بولس » . فقلت له : « لم يأتِ بعد فماذا تريد »

قال — « اود ان اخاطبه بامر »

فقلت — « ما هو الامر الذي استطيع أن افيدك شيئاً »

فقال — « علمت انه يبحث عن فتاة »

فقلت — « نعم فهل تعرف عنها شيئاً ؟ »

قال — « اعرف »

فقلت — « وتريد ان تقول لعمي ما تعرف »

فقال — « نعم بل اذا شاء اشاركه بالبحث عنها »

فقال يوسف : — ولماذا يبحث عمكِ عن الفتاة ؟

فقالت ليلى : — لان قسيساً جاء من الشام لهذا الغرض ومعه وصية تنطق بميرات عظيم لها

— يا للعجب !

واستمرت ليلى تروي قصتها فقالت : — فسألت اليوناني « هل تريد ان تقول لي ماذا تعرف عن الفتاة »

فقال — « اعرف شخصاً يعرفها »

— والحق اقول لك يا يوسف انه اول ما خطر لي ان هذا الشخص الذي يعنيه هو انت

فقال يوسف : — لماذا خطر لكِ هذا الخاطر

— لانه بعد ان ذهبت الفتاة من عندي لم اعد اسمع بخبرها فاسأت الظن بك . لا تنقم فالحق عليك

— لقد تفاهمنا يا ليلى فلم يبق من داع للنقمة . ثم ماذا ؟

فقلت لليوناني : — « وانا اعرف من يعرفها فمن هو الذي تقول انه يعرفها »

فتردد في الجواب قائلاً — « اود ان اقول هذا لعمكِ وحده »

فقلت — « لا بأس من ان تقول لي ايضاً لاني اعرف كل شيء وعمي يقول لي كل شيء »

قال — اذاً انت تبحثين مع الباحثين »

فقلت — « نعم لأن الفتاة كانت عندي بضعة ايام قبل اختفائها »

ففكر الرجل هنيهةً ثم قال — « اظن انك تعنين بالذي يعرف الفتاة الفتى يوسف برّاق »

قلت — « نعم وهل هو من تعنيه انت ؟ »

قال — « نعم »

قلت — « وبالطبع سألت يوسف برّاق عنها »

قال — « سألته فابى ان يجيب »

فقلت — « هل انكر انه يعرف اين هي ؟ »

فقال — « بل اقرَّ انه هو الذي خبأها ولكنه لا يريد ان يدل عليها »

فقلت — « اذاً هو محتظيها »

فقال — « كلاّ . بل هو ينكر ذلك »

فقلت — « اذاً لماذا يخفيها ؟ »

فقال — « لا ادري قصده »

فقلت — « لو كنت اجتمع بيوسف لحظة واحدة لكنت اكشف اسراره . فهل تدلني اين اجده ؟ »

فسكت الرجل وبعد هنيهة قال — « لا ادري »

ولكن سكوته رابني فقلت — « لا تنكر عليَّ . تعرف اين يوجد . فاذا كنت تقول لي اعدك اني استخرج منه الحقيقة بسؤال واحد »

فقال — « لا ادري على ماذا تتكلين في استجوابه . فقد جربت كل طريقة فلم انجح »

فقلت — « اما انا فواثقة بالنجاح كل الوثوق لان لي طريقة ليست لغيري . فأين اجده ؟ »

ففكر الرجل هنيهة ثم قال — « اود ان اعرف امراً . هل انتم واثقون ان الفتاة التي تبحثون عنها هي نفس الفتاة التي خبأها يوسف ؟ »

فقلت — « نعم هي نفسها وتدعى هيفاء وامها تدعى نديمة الصارم . وقد عرفنا انها مختفية عن امها ولم يبق علينا الاّ ان نكتشف مقرها »

فقال — « وهل عرفتم ان يوسف براق خبأها ؟ »

فقلت — « نعم ولهذا نبحث عن يوسف براق واذا لم نجده فنبحث عنك لانك تعرفه »

فقال يوسف — هل كنتم تعلمون كل ذلك حقيقة ؟

فقالت ليلى — كلاّ وانما انا استخرجت هذه الحقائق من اليوناني بدعوى اني عارفة اكثر مما يعرف . والحقيقة اننا لم نؤكد حتى الان ان كانت هي نفسها الفتاة المقصودة وانما رجحنا ترجيحاً يقارب التاكيد . ومتى اجتمعنا بالفتاة امكننا ان نستجوبها لنعلم شيئاً عن حقيقة امها وما اذا كانت امها فعلاً او خالتها لان تلك المرأة لديعة لم تزل سرّاً . ولهذا لما عرفت من قول جورجي انك انت خبأتها صرت اود الاجتماع بك بدعوى البحث عن الفتاة . ولما اكدت لليوناني اني استطيع استخراج الحقيقة منك اذا دلني عليك فكر هنيهة طويلة ثم قال — « اقدر ان ادلك عليه ولكن لي شروطاً »

فقلت — « ما هي شروطك ؟ »

فقال — « لا ادري اذا كنت تستطيعين القيام بها »

فقلت — « استطيع ان انفذها حرفا حرفا مهما كانت »

قال — « هل تقسمين انك تبرين بوعدك »

قلت — « ابر واقسم »

قال — « لا اقدر ان اقول لك شروطي هنا »

فقلت — « اين اذاً »

فقال — « في اي مكان غير هذا . فهل تستطيعين ان تخرجي من هذا المنزل وبعد ذلك نذهب الى حيث تشائين »

قلت — « اخرج اذا كان الخيار لي »

وفي الحال نهضت وارتديت ثوبي بسرعة وخرجت مع الرجل وانا بين الخوف والامل والشك واليقين . ومشينا الى جهة شارع عباس وهو يمشي الى جنبي فقلت : — « قل شروطك »

قال — « قبل كل شيء اقسمي لي انك لا تقولين كلمة مما اقول لك »

قلت — « اقسم لك اني لا اقول »

قال — « ان اهل الفتاة اعني امها وخطيبها يبحثان عنها كما تبحثون انتم . وقد اعتقدوا ان يوسف اختطفها واحتظاها . ولهذا سوغوا لانفسهم امراً قد لا يسوغ وكلفوني بهذا الامر لقاء مبلغ كبير فاغتررت بالمبلغ وانفذت الامر ولا سيما لانه لا اذى فيه لاحد

ولكن فيه مصلحة لهم . . »

فخفق فؤادي لهذا الخبر ولكني لم ابدِ جزعاً وقلت — « اذا كان الامر كما تقول فيحق لهم ان يفعلوا كل وسيلة للاهتداء الى الفتاة . فما هذا الامر ؟ »

قال — « طلبوا اليَّ ان اتملق يوسف لانهم علموا اني صديقه وان اقوده اليهم باي حيلة فاحتلت عليه واخذته اليهم موثقاً فجعلوا يستجوبونه متوعدين تارة وواعدين اخرى فلم يفلحوا باستجوابه »

فقلت : — « ولماذا لم يعرضوا الامر على دائرة البوليس ؟ »

فقال : — « لانهم اعتقدوا ان يوسف ينكر كل شيء فلا تفيدهم دائرة البوليس امراً ولعل عندهم اسباباً اخرى لا اعلمها . ففضلوا ان يأسروه ويتهددوه وهكذا كان »

فقلت : — « ويوسف لا يزال اسيراً ؟ »

فقال : — « نعم وانا الذي سلمته ولو لم اكن قد قبضت المبلغ الوافر لندمت »

فقلت : — « والان ماذا تشترط عليَّ اذا ارشدتني الى سجنه ؟ »

قال : — « اشترط عليك اولا ان تشترطي على يوسف ان يغتفر لي ولا سيما لاننا لم نقصد اذاه بل مجرد استجوابه . وما كان التهديد الا تهويلاً فقط »

فقلت : — « حسن . اعدك بذلك »

فقال : — « وله بعض المبلغ الذي قبضته اذا اراد . بقي لي شرط آخر وهو انه متى اقر بمكان الفتاة تخبرينني عنه حتى ادلّ اهلها عليها وآخذ المبلغ الاخر الموعود به وبعد ذلك لكم ان تفعلوا ما شئتم »

قلت : — « واعدك بذلك فاين يوسف الان ؟ »

فتناول مفتاحاً من جيبه وقال : — « هذا مفتاح بُان للمنزل قد اختلسته لمثل هذه الحاجة فخذيه الان واذهبي الى المنزل وهناك لا تجدين احداً الان غير يوسف فافعلي ما تستطيعين »

قلت : — « هذا هو المفتاح . فاين المنزل ؟ »

فضحك وقال : — « ما هو القسم الذي تقسمينه انك تبرين بالوعد ؟ »

فاقسمت له يميناً مغلظة حتى وثق بي تمام الثقة فدلني على المنزل ووصفه لي وصفاً دقيقاً وقال — « إذهبي الان اذا كنت تريدين اذ لا تجدين هناك غير السجين »

فقلت — « اين اراك بعد الان ؟ »

قال — « لا تريني بعد الان الا في غرفتي في فندق (كذا) فان كنت تبرين

بوعدك تجدينني هناك »

— ولما افترقنا استأجرت اوتوموبيلا وجئت اليك

فتنهد يوسف الصعداء وقال : — والآن هل تبرين بوعدك لجورجي

— لقد انتهت مهمتي يا يوسف لاني لست باحثة عن هيفاء فدع الباحثين عنها يبحثون حتى يجدوها

— اذاً لا تذهبين الى جورجي ؟

— بل اذهب اليه واقول له ان يوسف لم يقل لي اين الفتاة ولا اكون كاذبة اذا قلت له كذلك . فهل قلت لي يا يوسف ؟

— وهل تريدين ان تعرفي اين هيفاء

— لا

— الآن اعجب بكبريائك يا ليلى

ثم افترقا جسدين لا روحين

الفصل الثالث والثلاثون

هي تعد وهو يفي

في ذلك الحين كان جورجي اجيوس في غرفته وهو يفكر في ماذا تكون نتيجة ثقته بليلى فخطر له الظن السيء اولا وقال بنفسه : — «هب ان البوليس درى بالحادثة فانا انكر ولا شاهد علي الا ليلى وحدها وشهادة واحد لا تكفي . وفي وسعي نفيها بدعوى ان ما تدعيه من ثقتي بها غير معقول . اما جميل مرمور وحوذي فهيم فلا يجسران ان يشهدا لانهما شريكان في الجريمة . وهب انهما أمسكا واقرّا فالجأ الى قنصليتي وهناك اسعى بتخفيف عقابي وجل ما تفعله القنصلية انها تنفيني وانا مشتاق الى اثينا فاذا ذهبت اليها بالف وخمس مئة جنيه اعيش اميراً . ثم يحتمل ان هذه الفتاة تبر بوعدها لانها عاشقة ليوسف على ما ارى والعشق اساس الفضيلة احياناً . فاذا صدق ظني وصدقت ثقتها وصدق وعدها عرفت اين هيفاء فادلّ عليها وآخذ الفاً وخمس مئة جنيه اخرى . وان خاب فألي هذا فما انا خاسر . ولذلك لا اندم على كل ما فعلت . وماذا يهمني ان يتهمني جميل مرمور بالخيانة وهو لم يقيدني بقيد ؟ حسبي ما نلت من الجزاء على اسر ذلك الفتى الساذج وحسب ذلك الفتى وجلاً . وما الفائدة من التهويل عليه وهو مصرّ

على الانكار وقد يُعرفُ مقر الفتاة عن غير يدي لانه يبحث عنها غير واحد . اذاً انا فعلت حسنا بتسليم المفتاح للفتاة ليلى . فما انا نادم . لست نادماً . كفى هذا الفتى المسكين خوفاً »

وفيما هو مستغرق في هذا التفكير قُرع بابه فقال : — لقد صدق ظني . هذه ليلى لا محالة

فنهض وفتح الباب وبغت اذ رأى يوسف داخلا فابتسم له قائلا : — اهلا بيوسف الصديق الحميم اني منتظرك

— تنتظرني أم تنتظر ليلى ؟

— بل انتظرك انت

— ولكن الميعاد ليس بيني وبينك بل بينك وبين ليلى وانت تعلم انك سجنتني

— وهل تظنني غبياً لا اعلم ماذا تكون نتيجة تسليم المفتاح لليلى ؟ لهذا قلت اني انتظرك انت لا ليلى

— ولكن كيف وثقت هذه الثقة بليلى ؟

— لاني وددت اطلاق سراحك

— لماذ لم تطلق سراحي انت ليكون كل الفضل لك ؟

— لان لي شروطاً لم اقدر ان اقنعك بالتعهد بها ولكني استطعت اقناع ليلى فتعهدت بها

— وكيف تثق ان ليلى تبرّ بوعدها

— وثقت لاني علمت انها تحبك والتي تحبك لا تستطيع ان تحنث بيمينها ولا سيما اذا اقسمت بك

— وهب انها حنثت بيمينها

— لا اصدق

— ولكن هب انها لم تستطع ان تعلم مني شيئاً عن هيفاء

— يستحيل عليك ان تكتم الامر عنها اذا سألتك

— ولكني لم اقل لها لاني لست مقيداً معها بشرط بل هي مقيدة معك والشرط الذي بينكما لا يطلق علي

— اذاً لا تطلق ليلى سراحك ولا تبوح بامرك لانها تعهدت لي بذلك . فاذا كانت قد اطلقت سراحك من غير ان تستعلم منك عن هيفاء فهي خائنة

فامتعض يوسف لهذا الجواب المؤلم وقال : — ليلى لا توصف هذا الوصف

— اذاً علمت منك عن مقر هيفاء وستقول لي لا محالة

— ولكنها لم تسألني ولم تشأ ان اقول لها

— عجيب امرها كان يجب ان تسألك وان تقول لها او ان لا تطلق سراحك والا فهي خائنة

فافحم يوسف هذا الجواب وفكر هنيهة وقال : — الا تريد ان تتنازل عن شرطك هذا ؟

— كلاَّ كلا

— اذا انا ابر بوعد ليلى حتى لا تكون خائنة

— حسن جداً فاين هيفاء ؟

— ماذا تفعل متى علمت ؟

— ادل عليها امها فتذهب وتأخذها اليها ثم اقبض الالف والخمس مئة الجنيه الاخرى

— وهل تتعهد لي بعد ذلك أن لا يرغم احد هيفاء على الزواج من ذلك الزنيم ؟

— لست ملزماً ان اتعهد بشرط

ففكر يوسف هنيهة . فقاطع جورجي تفكيره قائلا : — مابالك غبياً هكذا ؟ . ماذا يضرك ان اكسب الفاً وخمس مائة جنيه من غير ان يصاب احد باذى ؟

— لا يضرني . ولكن كيف ذلك ؟

— اقول لك كيف ذلك اذا تعهدت لي بأمر بسيط وهو ان لا تخبر احدا غيري عن مقر الفتاة

— هب اني تعهدت . فماذا تفعل ؟

— متى عرفت مقر الفتاة اخبر امها فتأخذها اليها وفي الحال اقبض الالف والخمس مئة الجنيه وعلى الاثر اخبر فريقاً آخر يبحث عن الفتاة لا بد ان تكون ليلى قد اخبرتك عنه . وهذا الفريق يخلص الفتاة

— لا اضمن ان هذا الفريق يستطيع ان يأخذ الفتاة من تلك المرأة التي تدعي انها امها لان الفتاة لا تزال قاصرة ولا وصيّ عليها الا التي ربتها وقبل استخراجها من تحت وصايتها تكون هذه المرأة الداهية قد زوجتها من ذلك الوغد الزنيم بالحيلة او بالتهديد

— ولكن مسألة الفتاة في يد البطركخانة الآن . والبطركخانة تستطيع ان تمنع اي قسيس من ان يكللها

— وهذا الامر غير مضمون ايضاً لان البطركخانة قد لا تستطيع ان تجد سبباً لمنع الاكليل اذا تراضى العروسان او قد يلجأ العروسان الى بطركخانة اخرى . ولهذا لا آمن على الفتاة اذا وقعت في يد تلك الشيطانة ثانية

— بقيت وسيلة اخرى وهي ان تخطف الفتاة ثانية

— قد لا انجح في المرة الثانية كما نجحت في المرة الاولى

— انا اتعهد لك بخطفها

— فابتسم يوسف قائلاً : — لقد علمتني ان لا اركن اليك

— لك حق . فما قولك اذا اعطيتك تحويلاً على البنك الذي فيه دراهمي بقيمة الف وخمس مئة جنيه كضمانة

— حسن ولكن كيف اعلم ان لك هذه القيمة في البنك

— هذا تحويل بيدي على البنك بالقيمة والبنك مصادق على التحويل كما ترى فالمال لي حتما وليس من يستطيع ان ينازعني فيه

— حسنٌ هات تحويلاً باسمي

فكتب جورجي التحويل وقال : — خذ . فأين الفتاة ؟

فتناول يوسف التحويل وقال : — الفتاة في دير الراهبات . . .

— حسنٌ بقي ان تعدني ان لا تخبر الفريق الآخر عن مقر الفتاة وانا اعدك اني احفظها قبل ان يعقد زواجها واسلمها اليك

— وتخبر الفريق الاخر عن الفتاة على اثر تسلّم امها لها

— اعدك اني افعل لاني سأقبض التحويل الاخر حالاً

ولما خرج يوسف من عند جورجي اجيوس قال : — لم يزل هذا الفتى ساذجاً والا لطلب مني مصادقة البنك على التحويل الذي اعطيته اياه لاني غداً اقبض المال قبل ان يضطر يوسف ان يقدم تحويلي الى البنك

الفصل الرابع والثلاثون

* * *

في صباح اليوم التالي كان جورجي اجيوس اول من قبض المال من البنك ثم ذهب تواً الى جميل مرمور فلما استقبله هذا بادره قائلا : — لست استغرب خيانتك

يا جورجي والحق عليّ اني لم آخذ منك ميثاقاً او ضمانة

— لماذا ترميني بالخيانة يا جميل وبيننا علائق شغل دائمة ؟ فمتى خنتك ؟

— اما انت الذي اطلق سراح يوسف برّاق؟

— نعم . لاني نلت وطري

— هل اقرّ ؟

— نعم فاستدع ام الفتاة الى هنا حالاً

— اين الفتاة ؟

— متى اتت ندعة الى هنا اقول

بعد هنيهة من الزمان كانت ندعة هناك فقال لها جورجي : — الفتاة في دير الراهبات فهل تستطيعين استخراجها من هناك ؟

— يا لله ألا استطيع استخراج ابنتي من بين ايدي اناس لا حق لهم بامسا كها ؟

— لعل الرئيسة تعللت ببعض حجج وابت ان تجمعك بالفتاة

— ابلغ دائرة البوليس في الحال

— حسن . وهبي ان الفتاة ابت ان تعود معك ؟

— متى اجتمعت بها اسحرها فهي طوع بناني

— هبي انها كابرت

— لا تزال قاصرة فاقدر ان آخذها بالقوة

— حسن . اين الجزاء ؟

— متى صارت الفتاة في البيت يدفع لك جميل التحويل

— اذاً انتظرك هنا

— لماذا ؟ انا ارسل خبراً الى جميل اني تسلّمت الفتاة

— بل اود ان اراك هنا لامر لا اقوله الا بعد ان تستردي الفتاة

— حسن . انتظرني العصر هنا

ولما كانت الساعة الثالثة بعد الظهر كان جورجي في منزل جميل مرمور ينتظر ندعة بفروغ صبر فما اخلفت ميعادها

وفي منتصف الساعة الرابعة كانت هناك متهللة فقال جورجي : — ماذا فعلت

استخرجت الفتاة من الدير بعد مشاجرة مع الرئيسة حتى اني هددتها بان اقيم القيامة على رأسها

فالتفت جورجي الى جميل قائلا : — التحويل

فدفع جميل اليه تحويلاً بالف وخمس مئة جنيه عليه مصادقة البنك فطواه جورجي ووضعه في جيبه ثم قال لنديمة : — اما تحتاجون الى خدمة اخرى مني ؟

— لا نستغني عن خدمتك يا مسيو جورجي فمتى احتجنا اليك ابلغك جميل

— ألستم عازمين على تزويج الفتاة ؟

— نعم الليلة ان شاء الله

— فانا القسيس الذي يكلل اذاً

فابتسمت نديمة وقالت : — هل تقدر ان تأخذ اذناً من بطركك

— انا البطرك والقس

— نريد ان يكون الزواج شرعياً . فنذخرك الى خدمة اخرى يا مسيو اجيوس

— اذاً لا حاجة لكم بي في مسألة الزواج ؟

— كلا

— حسن . الى الملتقى اذاً

الفصل الخامس والثلاثون

ملتقى الاسرار

خرج جورجي وهو يقول في نفسه — اذا لم تكن لهؤلاء الاشرار حاجة بي بعد فلعل للبطرنكانة حاجة بي . وما دمت مستودع اسرار فلماذا لا ابيع اسراري بثمن

وما مالت الشمس الى المغيب حتى كان جورجي في حضرة الاب امبروسيوس في البطرنكانة فقال له الاب : — قال لي غبطة البطريرك انك تعرف شيئاً عن الفتاة التي نبحث عنها

— بل اعرف اشياء

— اني ممتن لك كثيراً اذا قلت لي ما تعرف

— لا تؤاخذني يا ابانا اذا قلت لك ان لكل شيء ثمناً

فاحجم الاب امبروسيوس قائلاً : — نعم لخدمة الانسانية ثمن عظيم يا ابني وهو ملكوت السماوات

— ولكننا لا نستطيع يا ابانا ان نبلغ ملكوت السماء قبل ان نمر في ملكوت الارض ولا نقدر ان نمر فيه بلا اكل وشرب وملبس ومأوى

ففكر الكاهن هنيهة ثم قال : — لا اقدر ان ادفع لك شيئاً يا ابني لان الخدمة ليست لي بل للفتاة فمتى قضيت الخدمة لها تدفع هي لك وانا اتعهد لك اني اقنعها بالدفع

— كم تدفع ؟

— لا ادري ولكنها قد تدفع كثيراً

— ولكني لا استطيع ان اقبل وعداً مبهماً

— اذاً دع معرفتك لك يا ابني لانه ليس في وسعي ان افعل اكثر مما اقول

ففكر جورجي هنيهة وقال : — لا باس . اني اثق بوعدك يا ابانا فاذا تريد ان تعرف عن الفتاة

— اين هي ؟

— كانت مختفية . ومنذ ظهر اليوم اصبحت في منزل امها

— من هي امها ؟

— نديمة الصارم . الا تعلم ذلك ؟

— نديمة الصارم ؟ وهل انت واثق انها امها ؟

— يقال انها امها ويقال ايضاً انها خالتها

— وهل تعرف شيئاً من تاريخ هذه المرأة ؟

— لا . ولكن لماذا هذه الاسئلة وهي خارجة عن الموضوع ؟

— لاني اود ان اعلم ان كانت هذه الفتاة هي نفس الفتاة التي نبحث عنها

— اذا قلت لي شيئاً عن الفتاة التي تبحث عنها فقد اقدر ان افيدك ان كانت اياها

— الفتاة التي ابحث عنها بلا ام وقد ماتت امها وهي طفلة فربتها خالتها ولكن خالتها لا تدعى نديمة الصارم

— اذاً ماذا تدعى ؟

— تدعى ندرة الزعفران

فاختلج جورجي قليلاً وقال : — واسم ام الفتاة ؟

— حنة الزعفران

فانتفض جورجي وخفق فؤادهُ وتلهب وجهه فقال له الاب امبروسيوس : — اراك تتغير لوناً . فماذا ؟

فامسك جورجي عواطفه وقال : — اظنني اعرف تاريخ هذه المرأة . هل كانت ام الفتاة هنا في مصر

— لا ولا تعرف مصر بل كانت في سوريا وماتت فيها ولكن اختها ندرة كانت في مصر ثم عادت الى سوريا وربت الفتاة هناك واخيراً جاءت بها الى مصر

— واظنها كانت قبلاً هنا تسير سيرة سيئة

— نعم . هل كنت تعرفها في ذلك الحين ؟

— لا وانما كنت اعرف عنها انها كانت خليلة رجل هنا على ما قيل لي

— ولكن نود ان نتحقق ان كانت هي ندرة الزعفران نفسها

— اما هي اخت حنة ؟

— نعم . فهل تعرف حنة ؟

— اظن اني اعرفها واتأكد اذا قلت لي زوجة من كانت حنة

فتردد القسيس وقال : — اراك انت تستعلم مني لا انا استعلم منك

— الغرض اننا نتعاون في التحقيق يا ابانا . هل كان اسم زوجها خليلاً ؟

— نعم خليل. اراك تعرف شيئاً . فهل تعرف زوجها خليلاً ؟

— اذا لم اكن غلطاناً فهو ذو لقب امير اليس هو الامير خليلاً الخزامي ؟

— هو هو بعينه يا ابني فكيف تبرهن ان ندرة هذه هي ندرة نفسها ؟

— اوكد انها هي لاني اعرف اختها حنة في سوريا نفسها اذ قضيت مدة هناك وكنت اسمع ان لها اختاً في مصر سيئة السلوك

— ولكن هذا لا يكفي برهاناً على انها هي فقد تكون امرأة اخرى والفتاة فتاة اخرى وهذا ما نود ان نتحققه ونتأكده فهل كنت تسمع ان لاخت حنة اي لندرة اسماً آخر في مصر غير اسمها

— لم اعلم شيئاً من ذلك . ولكن دعنا نتوسع في التفاهم. هل تعرف ان كان للفتاة قريب غني هنا ؟

— لا . لماذا تسأل هذا السؤال ؟

— لاني فهمت ان الذي تبتغي خالتها ان تزوجها اياه هو قريبها . فهل تعرف اقرباء الفتاة كلهم ؟

— اعرفهم كلهم . وكلهم في دمشق الا احد ابني عمها فهو في اميركا

— فاختلج جورجي وقال : — وهل انت واثق انه لا يزال في اميركا ؟

كلا . لا ادري

— اما سمعت انه جاء الى مصر ؟

— كلا البتة ولعله جاء الى مصر سراً

— هل من داع لاتيانه سراً

— نعم هناك داع كبير فهو قد هرب من سوريا هرباً الى اميركا ولا يحسن العمل في اميركا كسائر المهاجرين السوريين فلا يبعد ان يكون قد جاء الى مصر . فما هو اسم الرجل الذي يريد ان يتزوج الفتاة ؟

— يسمي نفسه فهيم بك رماح ولكن لا عبرة بالاسم فقد يكون الرجل متنكراً باسم آخر اذا صح ظننا

— كيف تصفه ؟

— ولا عبرة بالوصف لانه يقدر ان يغير شكله فهو الان ذو لحية صغيرة مستدقة الى اسفل ويلبس قبعة سوداء ونظارة ويدعي انه جاء ببعض الثروة من اميركا واشتغل هنا بمضاربات الاطيان فربح ربحاً جزيلاً . ولكن قد يكون كاذباً بدعاويه حتى بلحيته وقبّعته ونظارته. فلماذا هرب هرباً ؟

— كان يشتغل في سياسة البلاد ويطلب بعض المناصب. ولا يخفى عليك ان الذي يشتغل في السياسة في سوريا يكون اعداؤه اكثر من اصدقائه . اما صاحبنا فكان اعداؤه من ذوي النفوذ في الاستانة فنصبوا له مكيدة هائلة كادت تؤدي به الى البوسفور لولا ان هرب . فقد وشوا به انه من رجال تركيا الفتاة . والذي تقع عليه هذه الشبهة في تركيا لا يكون نصيبه الا الهلاك اذا وقع في يد الحكومة

— ولكن لنفرض ان المسمى هنا فهيم رمّاح هو ذلك الرجل . . . لم تقل لي ما اسمه يا ابانا ؟

— اسمه الامير سليمان الخزامي

— لنفرض ان الامير سليمان هو فهيم رماح فلماذا يتنكر في مصر وهو في مأمن من الحكومة العثمانية ؟

— هذا ما اعترض به على افتراضك

— ألا تظن ان هناك داعياً آخر لتنكره ؟

— لا يخطر لي داع آخر الا انه لا يريد ان يتظاهر قريباً لاهله لئلا تضايقهم الحكومة بسببه لانهم قاسوا بسببه في اول الامر اضطهاداً لا يطاق فكان اخوه وابوه يتبرآن منه ويدّعيان انهما قاطعاه تمام المقاطعة . ولكني ارجح انهما كانا يرسلان اليه الاموال بالآلاف سرًّا وقد باعا قسماً كبيراً من الثروة الطائلة

— ان هذا السبب الذي تظنه ظناً يا ابانا لهو سبب وجيه ولا يبعد ان يكون الامير سليمان قد جاء الى مصر رأساً متنكراً أو جاءها بعد ان قضى مدة قصيرة في اميركا وأخوه وابوه يحولان الثروة الى مصر تدريجاً لان فهيم رماح هذا الذي تفرض انه هو الامير سليمان الخزامي قد جمع ثروة طائلة في مدة قصيرة هنا فلا يعقل انه يستطيع جمعها في هذه المدة وهو رجل غريب البلاد

— ان تعليلك في محله يا ابني ولكن لا بد من البحث والتحقيق حتى اذا ثبت ان هذا هو الامير سليمان وثبت ان الفتاة قريبته فلا يبقى شك بان الفتاة هي من نبحث عنها

— اما انها قريبته فامر ارجحه لاني علمت انه يبتغي الزواج منها مهما تكلف لاجله لانه علم سراً ان للفتاة ميراثاً كبيراً لم تدر هي به بعد

فاختلج الكاهن وحملق بجورجي قائلاً : — لم يبقَ عندي شك بانه هو الامير سليمان ولكن كيف عرف بامر ميراث الفتاة ؟

— يقال انه وردت له كتابة سرية بذلك من اخيه او احد معارفه

— عجيب كيف عرف اخوه بذلك ؟ لعل الشهود على الوصية افشوا سرّها

— اذاً في الامر وصية من ابي الفتاة ؟

— كلا لان اباها مات قبل ان يدري هل له ابنة

— كيف ذلك ؟

— لا بيها قصة طويلة لا محل لسردها الآن

— قل لي بالاختصار يا ابانا لان معرفة هذه الامور ضرورية للتحقيق

— مسكين ابوها فقد قاسى اضطهاداً لا يطاق من مكايد زوجة ابيه وأخيه ابنها وآخر المكايد اضطرته ان يهرب الى بلاد اليونان وهناك تطوع في الجيش اليوناني وقتل في حرب الدولة العلية مع اليونان وكانت زوجته حاملاً حين هرب . ولما كانت زوجة ابيه تضطهدها رحلت حاملا الى بيت اهلها في قضاء البترون وهناك ولدت الفتاة ولم يعد يعلم احد ماذا حل بها بعد ذلك

وكان جورجي يبالغ في كتمان عواطفه ليخفي حقيقته فقال :

— اولم يكن لها اولاد آخرون ؟

— كان لها صبي وكان جده يبعده في المدارس لينجو من اضطهاد زوجته ولكنه لم ينج من كيدها فنصبت له مكيدة هرب بسببها الى اوربا وبعد ذلك اهمله عمه بالرغم من

تساؤل جده عنه فاختفى خبره . رحمة الله على الامير خليل فقد قاسى هو وذريته من جور تلك الداهية ما لم يقاسه ايوب الصديق

وكان جورجي يزمهرّ والعرق ينضح من جبينه وهو يمسحه فقال له الكاهن : — ما رويت هذه القصة لاحد الا تأثر منها فلا استغرب تأثرك يا ابني

— اذاً الوصية التي ذكرتها لي من . . . .

— من جد الفتاة . فان ما قاساه من سوء سلوك ابنه الامير ابراهيم وحفيديه فضل وسليمان حمله على ان يوصي بثروته لحفيدته التي نبحث عنها الان ولاخيها ان ظهر في الوجود . وقد كلفني ان انفذ الوصية بعد موته لانه كتمها خوفاً من اضهاد ابنه له واوصاني ان لا اظهر الوصية حتى اجد الفتاة . وقد مات الامير منذ مدة ولهذا تراني الآن ابحث عن الفتاة وقد سقتني في الحديث الى افشاء هذا السر لك لاني توسمت فيك معيناً قديراً في البحث فارجو منك . . .

— كتمان السر . اني اكتمه يا ابانا . اكتمه حتى بعد ظهور الحقيقة لاني تأثرت جداً لهذه القصة الغريبة فاتكل علي في تحقيق أمر الفتاة . كن مطمئناً . لقد اهتدينا اليها وسنخلصها من مخالب الذئاب

— هل علمت لماذا هربت بها خالتها الى هنا ؟

— علمت علمت . علمت انها ربتها لتقدمها ضحية لصنم الرذائل والشهوات وقد وجدت هذا الصنم وهي تنوي ان تزوجها منه

— اذا كان الامر كذلك فـ . . .

— فماذا ؟

— من يستطيع منع هذا الزواج ؟

— انا

— لماذا ؟

— لأن الفتاة لا تريد رجلاً يجعلها رابعة خليلاته

— تعوذ بالله

— اعذرني الآن يا ابتاه فاني مضطر ان افارقك في الحال . ولا تتعب نفسك بعد الان فان الفتاة ستكون بين يديك محمية من الغادرين

الفصل السادس والثلاثون

افلات العصفور ثانية

كانت الساعة الثامنة مساء حين قُرع الباب على يوسف براق في غرفته وهو يكتب على مكتبه

فنهض يستقبل القادم وفتح الباب فدخل منه جورجي احيوس كالمجنون وقال : —

خفت ان لا أجدك هنا

— اراك مضطرباً فماذا ؟

— هيفاء تحت خطر

— ماذا تقول ؟

— ستتزوج الليلة

— لذلك الزنيم ؟

— له

فقال يوسف متهدداً : — حياتها الروحية اوحياتك الجسدية

— وعدتك يا يوسف وها انا ابر بوعدي . ولكني اريد يدك

— ها يدي فماذا افعل ؟

— اذهب واستأجر اوتوموبيلاً . ها عشرة جنيهات ولا تخل بعشرين او مئة أو الف اذا لزم الامر

— ثم ماذا ؟

— خذ الاوتوموبيل وانتظر قرب منزل نديمة . ومتى خرجت الفتاة ضمها فيه وخذها الى منزل في شبرا . هذا وصفه مدوّن على الورقة بكل وضوح حتى لا تضل عنه . وهذا مفتاح باب المنزل . ليس فيه احد . فامكثا فيه ريثما أعود اذا لم استطع ان ارافقكما . اتركا الاوتوموبيل عند محطة كبري الليمون وبعد أن يبرح الحوذي اركبا مركبة الى شبرا

— حسنٌ . هل انت واثق بالنجاح

— اني واثق . فلا تخف

* * *

في الساعة التاسعة دخل جورجي الى منزل نديمة فوجد هناك نديمة وابنتها

وجميل مرمور وفيهم رماح . فلما دخل رحبوا به . واما هيفاء فخلقت فيه وكانت دلائل الكآبة بادية عليها وكل لمحة من ملامحها كلمة تدل على نفورها وعلى تململها من الضغط الواقع عليها . اما نديمة فتقدمت واسرت اليه قائلة — ما الذي جاء بك الان ؟

— اذا لم تدعوني فادعو نفسي لاكون شاهداً

— أخاف ان توجس هيفاء منك لاني اراها تحملق فيك كانها عرفتك

— الناس يتشابهون يا سيدتي وانا اتجاهل فلا تخافي . أما جاء القسيس بعد ؟

— سيجيء بعد ساعة على الكثير

بعد هنيهة خرج جورجي الى غرفة الحمام لقضاء حاجة وعاد وما هي الا بضع دقائق حتى صاح الخادم « حريقة حريقة » فهرع الكل الى المطبخ فوجدوا اللهيب يندلع من بعض الحطام فاشتغلوا بالاطفاء

عند ذلك اغتنم جورجي الفرصة وقال لهيفاء في ابان اضطرابها : — ان يوسف ينتظرك خارج الدار ليخلصك من الجحيم الذي تذهبين اليه . ان القسيس الذي سيكللك ليس قسيساً بل هو عامي مثلي وزواجك لايكون شرعياً بل حيلة . فاسرعي واخرجي ولا تخافي

فما ترددت هيفاء أن خرجت ودخل جورجي في الحال يساعد البقية على اطفاء الحريق . وما هي الا بضع دقائق حتى تغلبوا على الاطفاء وعلموا ان سره انقلاب مصباح البترول فجعلت نديمة تحرق الارم على الخادم والخادمة لان اهمالهما كان السبب . واما هما فكانا يتبرآن ويقسمان وكل منهما يلقي التبعة على الاخر

ولما عادوا الى البهو لم يجدوا هيفاء فبحثوا عنها في المنزل فلم يجدوها فصاحت نديمة : — ان هذه الفعلة فعلة تلك الشقية اذاً . وقد رامت ان تحرق المنزل بنا لكي تهرب . اذا وقعت في يدي فامزقها تمزيقاً

فقال جورجي : — انكم لمغفلون . أما درستم المسألة اول مرة . فلماذا لم تحتاطوا ؟

فقالت نديمة : — اننا في حاجة اليك الان يا جورجي

— اذاً مجيئي كان في حينه

— نعم هل تستطيع ان تهتدي اليها ؟

— ان اهتديت الى يوسف براق اهتديت اليها طبعاً

— اذاً بربك . هل تعجل بالامر ؟

— في بضعة ايام اردها اليكم

— اخاف ان يتزوجها هذا الجاهل

— احول بينهما لا تخافي . دعوني الان امضي لعلي اعلم امراً الليلة . ثم ودعهم ومضى

الفصل السابع والثلاثون

ضمير يدمع

كانت الساعة العاشرة حين دخل جورجي الى المنزل الذي اوى اليه يوسف وهيفاء فاستقبلاه باسمين متهللين . اما هو فكانت عيناه تتقدان كأن في نفسه ثورة . فلما جلس قال له يوسف اراك مضطرباً فهل حدث أمر ؟

— لم يحدث الا كل خير وانما أود ان اعلم امراً

— ماذا ؟

فقال جورجي موجهاً الخطاب الى هيفاء : — هل انت نادمة على هربك يا هيفاء ؟

— بل انا ممتنة لك وليوسف لانكما خلصتماني من الويل الهائل

— لقد كذبت عليك يا هيفاء كذبتين . وضميري يعنفني بشدة عليهما

فابرقت أسرة يوسف وقال : — الحمد لله لقد بُعث ضميرك من قبره

وقالت هيفاء : — ما هاتان الكذبتان ؟

— الكذبة الاولى حين كنت في ثوب قسيس ينوي ان يكللك اكليلاً كاذباً وقد أنجاك من شر هذه الكذبة هذا الفتى

فجحظت عينا هيفاء وقالت : — اذاً لم يكذب ظني ؟

— لا . لم يكذب . انا هو ذلك القسيس الشرير . واما الكذبة الثانية فكانت هذه الليلة اذ قلت لك ان الذي سيكللك ليس قسيساً بل هو مثلي . والحقيقة انه قسيس

— اني اشكر لك الكذبة الثانية التي محت شر الكذبة الاولى لاني لم اكن راضية عن الزواج من ذلك الشرير . وقد آليت على نفسي ان انتحر قبل ان ادخل معه الى غرفته لاني تصورته شيطاناً رجيماً وتصورت امي الحية التي اغوت حواء . وقد ادركت قصدها الشرير . ولكني لم استطع النجاة من يدها لانها كانت تذعرني بتهديداتها وتوهمني ان الحكومة تضعني تحت سلطتها بالرغم مني لأني لم ازل قاصرة ولم ابلغ بعد السن التي اكون فيها حرّة التصرف بنفسي

— ولكن يوسف لا يصدق انها امك لان الام مهما كانت شريرة لا تضحي بابنتها هكذا . فهل هي امك حقيقة ؟

— كلاَّ بل هي خالتي . وصرت اشك الآن بانها كذلك لان الخالة لا تقل حناناً

عن الام ولا سيما اذا ربّت

— من هي امك يا هيفاء ؟

— آه . لا اعرف لي امًّا لاني لم افتح عيني بصيرتي في هذا العالم الاَّ وانا في حضن هذه الشريرة . ولكن قيل لي انها ليست امي وهي امرّت لي بأني ابنة اختها وانها لا تعرف ابي وانها كانت في مصر . وحين رجعت الى سوريا كانت امي تحتضر فاخذتني وربتني . وفي هذا العام جاءت بي الى هنا بغتة من غير ان ادري شيئاً

— ولكن ما اسم امك ؟

— قيل لي ان اسمها حنه

— وهل تعرفين شيئاً عن ابيكِ

— قيل لي ان اسمه خليل وانه مات . هذا جل ما اعرفه لان خالتي كانت تتنقل بي من بلد الى بلد وحيث نكون ارى اني غريبة وليس من ينبئني عن ابويّ واهلي

— وماذا تعرفين عن خالتكِ

— لا اعرف شيئاً لانها سرٌّ لا يدرك ففي اول وعيي كانت تسمّى ندرة الزعفران . ثم لما انتقلنا الى بلد آخر قالت انها تود ان تنتسب الى زوجها المصري الذي مات . واوصتني ان لا اذكرها الاَّ باسم نديمة الصارم كما كانت تسمى في مصر وتهددتني بشدة اذا كنت اذكر غير هذا الاسم

— اذاً انت لست آسفة على فراق هذه المرأة ؟

— بل اني مسرورة بالابتعاد عنها ولكني لا ازال اخاف شرها وانا وحيدة لا ام لي ولا اب ولا قريب

فذرفت دمعتان من عيني جورجي فقال له يوسف : اني استغرب ان تدمع عيناك

— ليست عيناي تدمعان يا يوسف ولكن ضميري يدمع

— اين كان ضميرك قبل الان

— اما قلت لك انه ذهب مع عائلتي

— عجيب ان يرجع

— بل عجيب ان تتعجب وانت قلت انك سترد لي ضميري فهل نسيت ؟ اما انا فلن انسى

فتنهد يوسف وقال : — الحمد لله

ثم قال جورجي : — تقولين يا هيفاء انه ليس لك اب ولا ام ولا قريب تحتمين به

فهل تريدين ان تسري نفسي بان تقبليني اباً واماً وقريباً ؟

فاطرأت هيفاء . فقال لها : اني فاقد كل سعادة وهناء في هذه الحياة فهل تريدين ان تخلقي لي سعادة ؟

— لو استطيع

— تستطيعين اذا اردت ان اكون لك كل شيء تتمنينه

— اني احتاج الى اب يا سيدي ولم أرَ حنو الاب في حياتي الاَّ الان . فانا ابنتك

فهمَّ جورجي ان يعانقها ولكنها نفرت منه مزمهرَّة فامتنع والدمع يذرف من عينيه . وقال ليوسف : — هل تريد ان تكون اخاً لهيفاء يا يوسف

— اما انا اقترحت ذلك عليك ؟ اني ابنك منذ الان . ولا اظنك تغدر بابنك يا ابتاه

فلم يتمالك جورجي نفسه لان الدمع تفجر من عينيه تفجر الماء من صخرة . وفي الحال نهض بدعوى انه خارج لقضاء حاجة ودخل الى غرفة الحمام واطلق لدموعه العنان . وما هي الاَّ هنيهة حتى سمع وقع اقدام فنهض مسرعاً وكفكف دموعه وعاد فوجد يوسف يتمشى في وسط الغرفة كأنه قلق . فقال له : — تعال اجلس

فقال يوسف — يكاد ينقضي الهزيع الثاني من الليل ونود ان نبتّ امراً

— اي أمر ؟

— امر هيفاء . اين تبيت الليلة ؟

— تبيت الليلة هنا

— يستحيل

— لماذا ؟

— لانها لا تبيت الا مع سيدة

— بل تبيت مع ابيها واخيها . واي سيدة اعطف عليها منهما

فتردد يوسف بالجواب وقال : — ولكن هذا لا يليق

— ما زلت جباناً . لماذا لا يليق ؟

— لان الناس لا يعرفون انها ابنتك واختي

— كفى ان نعرف نحن ومتى حان الوقت يعرف الناس ذلك . أليست لك ثقة بنفسك . لا تبيت هيفاء الا حيث نبيت نحن وانا المسأول

فسكت يوسف مفحماً ثم قال : — وهذا المنزل ؟

— هو منزلي الليلة لان صاحبته عجوز يونانيـة وهي صديقتي وابنتها في سفر وقد طلبت منها أن تحليه الليلة وغداً ندبر أمر كل منا . فاطمئن

— ولكني اخاف مغبة هذا التدبير

— اذاً انت جبان القلب سيء الضمير ضعيف الثقة فلا تصلح لي ابناً . دعنا من هذا الموضوع ولنبحث في أمر أهم

— ما هو ؟

— ماذا تنوي ان تعمل انت ؟

— سأبحث عن خدمة

— بل تشتغل بتجارة

— ورأس المال ؟

— هذا هو

وتناول جورجي من جيبه ورقاً مالياً بقيمة الف وخمس مئة جنيه والتحويل الذي اخذه من جميل مرمور ودفع الكل الى يوسف

فلما اطلع يوسف على التحويل رمى به وبالاوراق الى الارض وقال : — لا أمسُّ مال السحت

فعبس جورجي به قائلاً : — ما زلت حيواناً

— اني لكذلك

— اذاً لا تعش بين الناس لانك لا تقدر ان تعيش بينهم الا اذا كنت انساناً . فخذ الاوراق كلها واسمع نصح ابيك وغداً نبحث بتفاصيل التجارة

فامتثل يوسف صاغراً كانه يشعر بقوة تتسلط على عقله . ثم التفت جورجي الى هيفاء . وقال : — انكِ تعبة يا ابنتي فقومي الى سريرك في الغرفة الثانية . ولكني أود ان تمضي غداً وما انت هيفاء

فنظرت فيه مستغربةً وقالت : — ماذا اكون اذاً

— تكونين وطفاء ولا يعرفك احدٌ الا بهذا الاسم . قومي يا ابنتي الى سريرك

فنهضت هيفاء ودخلت الى الحجرة فوجدت سريرين واضجعت في احدهما

ثم قال جورجي ليوسف : — وانت تنام في السرير الاخر يا يوسف

— يستحيل ان انام في غرفة هيفاء

— بل تنام حارساً لاختك . وانا انام في هذه الغرفة على المقعد حارساً لكما

— انك تطلب مني امراً ينفر منه ضميري

— متى كنت سيء النية هكذا ؟ لا تبرهن لي على انك اخ هيفاء الا اذا نمت في غرفتها

فاخم يوسف ودخل الى الغرفة مقدماً رجلاً ومؤخراً أخرى

اما هيفاء ففي نصف ساعة كانت تغط في نومها . واما يوسف فلم يستطع ان ينام لان الهواجس كانت تلعب في رأسه ولكنه كان يتحاشى أقل حركة لئلا تصحو هيفاء او تذعر

ولما كانت الساعة نحو الثالثة شعر يوسف بحركة خفيفة في الباب ثم انفتح فرأى شبحاً يدخل منه متسرقاً فبقي كامناً في سريره ليرى ماذا يكون من امره فرآه يتقدم بكل هدوء حتى صار عند سرير هيفاء . ثم رآه انحنى فوق السرير عند قدميها . فجزع وما رأى نفسه الا واقفاً على الارض واسرع في الحال وقبض على الشبح ودفعه الى الوراء فاندفع الشبح معه بكل هدوء الى ان صار كلاهما خارج الغرفة حيث تبينه يوسف في الرحبة التي لا يزال المصباح الضئيل مضيئاً فيها فاذا هو جورجي فقال له : — هل من غدر آخر ؟

— لماذا تقول هكذا ؟

— ماذا كنت فاعلاً ؟

— كنت اقبل ابنتي لانها لا تنفر مني وهي نائمة . ألا يحق لي ذلك ؟

— ولكنك انحنيت عند قدميها

— نعم . لاني لا استحق ان اقبل وجنتيها . واخاف ان تلهبها انفاسي فتصحو مذعورة

وكان يوسف يرى الدمع ينسكب بغزارة من عيني جورجي فسكت معتبراً . ثم اقعده على المقعد قائلاً : — اني مدهوش من امرك

— ما الذي يدهشك ؟

— ارى فيك شعور الاب الحقيقي فمن اين لك هذا ؟

— منك . اما قلت لي انك ترد سعادتي . فقد رددتها وانا الآن اتمتع بها

— وهذه الدموع ؟

— دموع السرور واللذة فلماذا تحرمني سعادتي ؟ هل ندمت على ما نفحتني ؟

— فلم يتمالك يوسف دموعه ايضاً وقال : — هل تحبني كما تحب هيفاء ؟

— اذا كنت تأذن لي بقبلة تعلم

وامسك جورجي بيدي يوسف وهو لا يزال واقفاً واجتذبه اليه وعانقه وهو يقبل خده قبلة لا نهاية لها والدمع يتدحرج من عينيه ونفسه يتصعد ويتصوب حتى شعر يوسف بمثل حرارة بخار ثم ما لبث ان تراخت ذراعا جورجي عن صدر يوسف واستلقى على ظهره ويوسف يتأثر شديد التأثر من هذا الخفقان الذي لم يفهمه

ثم جلس يوسف الى جانبه وهو يقبض على كفه وقال : — احمدكِ يا قوة القوى لانكِ استجبت صلاتي اذ انبتِّ نبتة حب في ارض مجدبة واستخرجت ماء من صخرة

الفصل الثامن والثلاثون

ابن الطبيعة

عند ذلك تنهد جورجي وقال : — من لقنك هذا اللاهوت يا يوسف

— درسي لقنني

— وماذا تلقنت من ابويك

— ليس لي ابوان

— اذاً من ولدك ؟

— الطبيعة . فانا ابن القوة والمادة

— اين ربيت ؟

— في العالم العقلي

— اين قطنت ؟

— في دار الخيال

— ارجو ان تخرج الى عالم المادة وتخاطبني . فقل متى جئت الى مصر ؟

— منذ بضعة اسابيع

— اين كنت قبلا ؟

— في اوربا

— وقبل اوربا ؟

— في القارة الغارقة في الاوقيانوس

— اي اوقيانوس ؟

— اوقيانوس الجهل

— في اي قطر من اقطار تلك القارة ؟

— في قطر العبيد والاماء

— العبيد والاماء ؟

— نعم عبيد السلطة المطلقة المستبدة

— تعددت السلطات المطلقة في تلك القارة فايها تعني ؟

— اعني السلطة التي صبغ شعارها بالدم . السلطة التي تفرق العناصر ضاربة بعضها ببعض

— في اي عنصر كنت ؟

— في العنصر الذي لم تكن المعرفة الا سلاحاً يتسحر به . في عنصر الدسائس . في عنصر معكوس التركيب يقوى مشتتاً ويضعف متجمعاً

— لماذا تركته ؟

— لم اتركه بل نبذني لاني غريب عن مادته

— انك تزيد بيانك ابهاماً بهذه الكنايات فلماذا لا تسميه باسمه ؟

— لاني ارتعد غضباً اذا سميته

— هل العنصر كله نبذك ؟

— كلا

— اذاً . انتقم على العنصر بجريرة ذرة من مادته ؟

— نعم لان العنصر الذي تتنافر اجزاؤه وتتقاتل كريات دمائه وتتهالك حتى جواهره الفردة لا استطيع الالتئام به

— منذ متى انتبذت منه ؟

— منذ صحوت من سبات الصبا

— ألم يعد يجتذبك اليه ؟

— بل انكرني

— اود مزيد افصاح يا يوسف . هل لك اقارب في سوريا ؟

فانتفض يوسف قائلا : — لا تروعني بهذا الاسم

— لا ترتع فنحن بعيدان عنه الآن . فقل لي اين اهلك الماديون ؟

— هنالك

— من هم ؟

— جد وزوجة جد وعم وأبناء عم
— تقول زوجة جد . اما هي جدة ؟
— كلا بل هي جدة اولاد عمي فقط
— وأبوك ؟
— لم يبق لي اب
— وامك ؟
— ولم يبق لي ام
— اخوة . اخوات ؟
— لا اخوة ولا اخوات
— الم يزل اقاربك الذين ذكرتهم احياء ؟
— لا ادري . ولا اريد ان ادري
— عجيب هذا النفور ودمك من دمهم
— ليس عجيباً . ففي الطبيعة كثير من ذلك . الزيت والماء تكونا في حبة الزيتون فمتى ولدتهما تنافرا لانهما يختلفان طبيعة مع انهما توأمان

ففكر جورجي هنيهة ثم قال : — من اي طبيعة ابوك وامك ؟
— من طبيعتي المنبوذة
— لو بقيا حيين
— لكنت واياهما ثالوثاً متحداً

فتدفق الدمع من عيني جورجي قائلاً : — لا ادري يا يوسف ما هي طبيعة ابيك الجديد من طبيعة ابيك القديم
— اشعر بالفة بينهما
— يالله هل نسيت السجن ؟
— لن انساه

فاجهش جورجي في البكاء قائلاً : — هل فعل بك اقاربك اشر مما فعلت انا بك؟
— لا يهمني ماذا يفعل غيري بي لان الفعل بي مهما كان نوعه لا يتجاوز المادة المتغيرة ولا يبلغ الى القوة الخالدة
— اذاً ماذا يهمك ؟
— يهمني ماذا افعل بغيري

obeikandi.com

— ماذا فعلت باقاربك ؟

— لم استطع ان افعل شيئاً فاذا وعظتهم كنت كناطح صخرة يكسر قرنيه والصخرة ثابتة

— وماذا فعلتَ بي ؟

— جعلت منك اباً حنوناً

— وسعيداً يا يوسف . فدعني اقبلك ثانية

وتعانق الاب والابن عناقاً قد يفهمه القارىء ولا يقدر ان يصوره الكاتب

الفصل التاسع والثلاثون

لسان الثعلب

في اليوم التالي كانت وطفاء (هيفاء) تسكن مع تلك العجوز اليونانية كوديعة عندها تحرص عليها حرصها على الاجر الذي كانت تتقاضاه من جورجي . وقد اوصى جورجي وطفاء ان لا تخرج من المنزل الا معه . وان تطلب منه كل ما تشاء متى زارها . واوصى اليونانية ان لا تعترف بوطفاء لاحد والا ضاع عليها الاجر الجزيل . وكان بعد ذلك يزور ذلك المنزل ليلة بعد ليلة ويقدم لوطفاء حاجاتها . اما يوسف فندر ان زارها دفعاً لشبهة المشتبهين ان تكون حيث يتردد

وعاد جورجي يسكن في الفنادق كعادته ويوسف يسكن في منزل طريقه سلسلة ازقة وما هي الا بعض الايام حتى كان يوسف يتاجر بالاجواخ وكان له جار في السوق يتاجر بالانسجة الحريرية والاقمشة القطنية وغيرها . فما مضت مدة الا صارا صديقين فكانا يجتمعان بعض الاحيان ويتحدثان . ففي ذات يوم قال ذلك الجار واسمه فهد المهند : — بلغني انك خطبت وستتزوج قريباً يا مسيو يوسف فيالك من جار ألا تخبر جارك لكي يهنئك ؟

— لا علم لي بما تقول

— عجيب ان تنكر والخبر مالىء الفضاء

— اقول لك لا علم لي بما تقول

— يا اخي يقولون انك تحب ليلى ابنة المراني وانها تحبك فهل تنكر ذلك ايضاً ؟

فوجم يوسف وازمهرّ فقال له فهد : — دلائل الحب لا تخفى على احد كخامل المسك لا يخلو من العبق . فها اني ارى على وجهك هذه الدلائل . والناس يعلمون انك تجتمع بها احياناً فهل تنكر هذا ايضاً ؟

— لا انكر لاننا لا نجتمع في السر بل في العلانية

— اذاً لا دخان بلا نار . ولا يجمع الفتى والفتاة الا الحب

— ولكن الحب غير الخطبة والزواج

— ولكن الخطبة والزواج ثمرة الحب بحكم الطبع والا فالحب فاسد وفي عرف الجمهور اثم

— اما نحن فلسنا نجري على رأي الجمهور

— تعني انكما لن تتزوجا بل تتعاشقان ؟

فامتقع وجه يوسف وقال : — لا حكم لي على المستقبل

— اما انا فاحكم بان المستقبل زواج اذا كان الحاضر حباً

— لا ادري لماذا يهمك هذا الموضوع

— يهمني لانك صديقي واود ان اقوم بواجب الصديق

— لا افهم ما هو الواجب الذي عليك

— النصح

— ما هي نصيحتك فاشكرها لك

— لا اقدر أن اقول ما لم اعلم ان كنت تنوي ان تتزوج هذه الفتاة فان كنت لا تنوي فلا داعي للنصح

— هب اني ساخطبها

فتردد فهد في الجواب وقال : — لا اقدر ان اقول الا اذا علمت عزيمتك الاكيدة فلا اود ان ابني على فرض

فسكت يوسف وبعد هنيهة قال فهد : — هل انت مصمم على الزواج من هذه الفتاة

— ذلك في النية ولكني لا ادري ان كانت الاحوال تسوق الى ابراز النية الى حيز الفعل

— اذاً لم تكذب الاشاعات ويحق لي ان اتكلم

— تكلم

فتوقف فهد هنيهةً وقال : — اخاف ان اتكلم

— فاضطرب يوسف قائلاً انك تحملني على التطير من هذه المقدمة فماذا تريد ان تقول ؟

ان ما اقوله سرٌّ قد لا يعرفه الا واحد غيري فاخاف مغبّة افشائه عن يدي

— لاتعرفني جيداً يا فهد فان ما يقال لي سرّاً فكأنه لم يقل . فقل وتوهم انك لم تقل

— اقسم لي باعز عزيز عندك انك لا تقول

— لست اقسم بشيء لان وعدي اعظم من قسمي

— اني اثق بك . ولكن اعلم اني سأنكر تمام الانكار اني قلت لك ما سأقول واذا ع السر اتهمك باختلاقه

— ليكن ما تقول

— حسنٌ .هل تعرف ابنة من هي ليلى ؟

— اعلم انها ابنة بطرس المراني

— كلا البتة

فوجم يوسف وقال : — اذاً ابنة من هي ؟

— لا احد يدري

— ماذا تقول ؟

— اقول انه ليس لليلى اب

فسكت يوسف وقال : — لا افهم ماذا تعني

— اعني ان ليلى ابنة عاهرة . وقد انخدع بطرس المراني بالزواج من امها فكان يظن انه يتزوج ارملة والحقيقة انه تزوّج زانية لا تعرف ابا ابنتها

— وهل عرف بطرس هذا الأمر بعد ذلك ؟

— لو عرفه لطلق المرأة حالاً

— وكيف عرفت هذا السر

— لا تسألني كيف عرفته

— بل اود ان اتحقق صحة هذا الخبر

— لا اقدر ان اقول لك شيئاً الآن ولكنك ستعلم في المستقبل حين تعرف عشاق أمها الواحد بعد الآخر . فما انا واشٍ الان بل انا ناصح وانت حرٌّ في قبول النصح او رفضه . هذا واجب الصداقة وقد قضيته

ففكر يوسف هنيهة ثم قال : — وهب ان ام ليلى كانت زانية فما هو عيب ليلى ؟

— عيبها انها ابنة زنا لا تعرف لها اباً . واذا تزوجتها فلا تعرف من هو حموك

فاطرق يوسف قائلاً :— لا أرى ليلى ملومة اذا كانت لا تعلم لها اباً شرعياً حقيقيا

— يا لله . أما كفى هذا عاراً لها ولكل من يتصل بها ؟

— لا عار عليها لانها لو كانت حرّة في ميلادها ما رأت ان تكون ابنة زانية . ونحن لو كنا احراراً ما كنا نود ان نكون ابناء آدم الذي اورثنا الخطيئة كما يقولون

فضحك يوسف وقال : — ولكن الذين يزعمون اننا ورثنا الخطيئة من آدم يزعمون ايضاً ان المسيح افتدى العالم فهب ان ليلى بنت زناً فانا افتديها واطهرها من عار الزنا

— اذاً تصر على الزواج منها

— اذا قدر لنا هذا الزواج فلا ارفضه لاجل هذا السبب

— اني استغرب مبادئك يا يوسف

— لا بدع ان تستغربها لانها تخالف مبادىء السواد الاعظم من الناس . فاعلم يا اخي ان افكاري غير افكار هذا السواد من الناس . وما دامت ليلى طاهرة الشخصية فعار امها لا يلتصق بها مهما لصقه الناس بها

— لك رأيك يا اخي والذي عليّ قد فعلته ولكن هل تظن العوسج يثمر تيناً والشوك عنباً ؟

— ان لم يثمر الشوك عنباً فيزهر وروداً . ثم ان جوهر ليلى الروحاني لم يتكوّن في حجر امها بل في بيت بطرس المراني ولم اسمع عن هذا البيت الا الثناء على محامده وفضائله . واذا كانت ام ليلى قد استطاعت ان تخفي زلتها حتى عن زوجها فلانها كانت ذات عفاف وما زلتها الا هفوة غواية . وقد هفا الملاك قبلها . والله غفر لامثالها

الفصل الاربعون

مؤامرة رجيمين

في ذلك المساء كان فهد المهند في منزل الدكتور صديق هيزلي وهما يتحدثان فقال صديق :— اظنك نجحت يا فهد

— ان صاحبنا فيلسوف لا يتكلم الا بالروحانيات

فضحك الدكتور صديق قائلاً : — لقد عرفته كذلك فماذا جرى من الحديث بينكما ؟

— كانت النتيجة عكس ما رغبنا

— تعني ؟

— اعني انه عوضاً من ان ينفر من ليلى برّرها وجعلها طاهرة من كل عيب بل برّر امها ايضاً

— يلوح لي انه لم يقتنع بصحة الخبر

— بل اعتقد بصحته ولكنه لا يحسب ذلك عاراً ولو شاع وملأ الاسماع

— اذاً هو مصرٌّ على التزوج منها

— انكر ذلك أولاً ولكن كلامه الاخير اثبت انه يحبها ولا ينفّره منها عار ولا شنار

ففكر صديق هنيهة ثم قال : — لقد قلت حيلتي فلا ادري كيف افصل هذا الثقيل عن تلك العنيدة

— يجب ان تعرف كيف تؤكل الكتف

— فكرت كثيراً فلم اعرف . فهل تعرف كيف تؤكل الكتف ؟

— انت اعرف مني لانك درست اخلاق الفتاة

— ان ما درسته وعرفته يدلني على ان ذلك الثقيل لاعب في دماغ الفتاة بعلمه وفلسفته لانها تحب الفلسفة والعلم

— ولكن الفتاة لا تخرج عن كونها مرأة . فهي كسائر النساء تغتر بالمال والسعة

— نعم وقد خطر لي ذلك ولهذا صارت المسألة اصعب من قبل لان يوسف صار ذامال وتجارة فلم تبق من حاجة في نفس ليلى يعجز ذاك عن سدها . ولا ادري كيف حصل ذلك الشقي على راس المال واخر عهدي به انه كان خادماً في حانوت دخاخني لضيق ذات يده

— ان امره محير واظن ان معظم راس ماله ثقة والمال الذي بين يديه ليس له بل لتجار اكبر منه هذا اذا لم يكن المحل كله لشخص آخر يتاجر باسمه والله اعلم . اقيسه على نفسي فان معظم راس مالي لمدائنين فاذا كان هو كذلك فموقفه حرج دائماً

فبقي صديق صامتاً مفكراً واخيراً قال له فهد :— اننا صديقان ياصديق والثقة متبادلة ولهذا لا أجد احداً غيرك اشكو له ازمتي لعل لك فيها رأياً

— ثقتك في محلها يا فهد فهل انت في ازمة ؟

— اني فيها وقد اصبحت على وشك الافلاس واذا لم يكن في يدي الا ن شيء من المال اسد به افواه المدائنين ضايقوني وعرّضوا تجارتي لخطر الافلاس لا محالة. فهل في امكانك ان تدبر لي دائناً آخر يقرضني قرضاً لمدة ستة اشهر الى ان يحين الموسم

وتتوافر الاموال فاجمع الديون التي لي وانجو من الخطر ؟

ففكر صديق هنيهة ثم قال : — لقد دبرت لك دائماً

— من هو ؟

— جارك يوسف نفسه

— ولكنه تاجر مثلي لا يستغني عن جنيه واحد

— ليس ضرورياً ان يدفع من صندوقه بارة واحدة

— اذاً كيف ؟

— انتم التجار تتبادلون الصكوك

— نعم

— فاعطه صكا بقيمة الف أو الفي جنيه مثلا وهو يعطيك صكا بمثل المبلغ «تقطعه» في احد البنوك

— ولكن هناك عقبتين الاولى ان يوسف قد لا يعطيني صكا والثانية ان البنك قد لا يقطع الصك الذي على يوسف

— هل يعلم يوسف بازمتك ؟

— لا يعلم بها احد غيرك

— اذاً . اذا احتلت عليه فلا يخل عليك بصك منه اذا رأى بيده صكا مثله منك لانه رجل طيب القلب وسليم النية جداً . اما البنك فلا يتردد على ما اظن في قطع صك لتاجر جديد يعرف البنك انه يحرص على سمعته والثقة به . جرب هذه الطريقة فقد تنجح وان لم تنجح فلا تخسر شيئاً وبعدها نفكر بطريقة اخرى

— انها لفكرة حسنة جداً فان نجحت ابشرك بنيل متمناك يا صديق

فضحك صديق وقال : — اني اسر بذكائك يا فهد . لقد تفاهمنا بلا كلام . واذا صح هذا الحلم فلك مني جائزة

الفصل الحادي والاربعون

قصور في الهواء

في صباح اليوم التالي كان الدكتور صديق هيزلي مختلياً بليلى في غرفة المقابلة وقد ساقهما الحديث الى الخطاب التالي :

قال صديق : — يلوح لي انك تعتقدين ان السعادة قائمة باللذة النفسية وحدها وان لذة

النفس مقصورة على احراز المعرفة والعلم

— نعم وهل تنكر ان هذه اللذة هي اعظم اللذات

— لا انكر ولكني اعتقد ايضاً ان النفس وهي مقيمة في الجسد تتألم ايضاً اذا تألم الجسد . فهل تسر نفسك وانت جائعة او عليلة ؟

— لا ولست اقول ان لذة النفس تقضي باهمال الجسد وتركه لآلام الجوع والبرد بل يجب الاعتناء بالجسد ما دام غلافاً للنفس

— اذاً للجسد حقٌّ بنصيب من اللذة كحق النفس

— بلا شك

— ولا تنكرين الفرق بين العيشة الفشفة وعيشة الرخاء

— متى كنت انكر الفرق بينهما ؟ ولكني اقول ان لذة النفس اعظم واهم والزم من لذة الجسد

— وانا اقول كذلك ايضاً

— واذا خيرت بينهما ؟

— اختارهما معاً

— واذا لم يصح لك الا احداها ؟

— لا ادري ايهما اختار ولكني ما دمت استطيع الحصول عليهما معا فاختارهما معاً

— طبعاً

— حسنٌ . انت حاصلة على لذة النفس بالعلم والادب والفضيلة

— احمد الله على ذلك

— فاذا حصلت على لذة الجسد ايضاً في العيشة الهنيئة فهل تفقدين لذة النفس ؟

— لماذا افقدها ؟

— واذا تيسرت لك هذه اللذة الجسدية بلا عناء ولا تكلف مشقة فهل ترفضينها ؟

— ما انا مجنونة حتى ارفضها !

— ما قولك اذا وقعت في يدك مئة الف جنيه بلا تعب ولا نصب وكانت لك حلالاً . . . ؟

— استعين بها على لذة نفسي

— حسنٌ جداً . انا اضع في يدك الآن مئة الف جنيه

ثم تناول صديق من جيبه ورقة مطوية وقال : — في هذه الورقة مئة الف جنيه لك

— لا اعني انك تقدم لي مئة الف جنيه . وما خطر لي انك تفعل ذلك لاننا كنا نفرض فروضاً ونضرب امثالاً للاتفاق على حقيقة . فدع ورقتك معك

— ليست ورقتي بل هي ورقتك . وما انا اقدم لك من مالي بل اقدم لك مالك

— لا افهم ماذا تقول

— طبعاً لانك لا تعلمين شيئاً عن نسبك

— نسبي ؟

— نعم نسبك . فهل تعلمين من هو ابوك الحقيقي ؟

— لا اعرفه لاني يتمت طفلة . ولكن قيل لي انه كان يدعى حنا فرزدق

— لم يكن في الوجود هذا الشخص وانما اختلق اختلاقاً للتمويه على حقيقة نسبك

— وماذا تعرف عن حقيقة نسبي ؟

— اعرف ما لا يعرفه احد غيري الآن وكان يعرفه اثنان قبلي وهو امك وابي

وكانت ليلى تمتقع لحظة ثم يشرق محياها لحظة اخرى فقالت : — ما الذي تعرفه ؟

— اعرف انك ابنة غير شرعية لرجل كبير

فاقشعرّت ليلى وقالت : — من هو هذا وكيف تثبت هذا الزعم ؟

— اذا احببت ان تقرئي هذه الورقة ثم هذه ايضاً تفهمين كل شيء

فتناولت ليلى الورقة من يده (وهي وصية خالها لابنه صديق) وقرأت حكاية مولدها كما كتبها خالها ابو صديق لكي يقرأها ابنه بعد موته . وكانت تقرأ مدهوشة متحيرة متلونة من شدة التأثرات المتضاربة

ثم رفعت نظرها الى صديق وقالت : — ما ادراني ان تكون هذه الورقة ملفقة ؟

— لو كنت لا تعرفين خط ابي ولا تعتقدين ان ابي لا يكذب ولا قصد له سوى الحرص على سعادتك لكان يحق لك ان توجسي وتسيئي الظن بهذه الورقة . وما قولك بهذه الوصية الناطقة (اي وصية الامير ابراهيم الخزامي لامها)

فتناولت ليلى الورقة الثانية وقرأتها مرتجفة اليد وما انتهت منها حتى وقعت من يدها لشدة تأثرها . فتناولها صديق وطواها ووضعها مع الورقة الاخرى ثم قال : — هل وثقت الآن انك وارثة ثروة لا تقدر باقل من مئة الف جنيه ؟

— واني ابنة امير ؟

— نعم فها انا متصدق عليك بمئة الف جنيه بل احفظها لك

وكانت ليلى في بحران بل في ذهول برهة . ومن لا يكون كذلك اذا بوغت بما

يقلب كيانه ويغير حسبانه . وبعد سكوت طويل والدكتور صديق جالس يتلاهى بسلسلة ساعته التفت اليها قائلا : — لقد حلت قبلك يا ليلى حين فتحت وصية ابي وانا خالي الذهن من اقل حقيقة فيها . فلا الومك اذا سبحت في عالم الخيال ولكني اهنئك

— بماذا تهنئني ؟

— اهنئك بما تشعرين به من السعادة الآن

— هل تظن اني افتكر بسعادة اوشقاء الآن ؟

— لا اقدر ان اظن غير ذلك . فاذا خاب ظني فبماذا تفكرين ؟

— افكر في كيف انتمي الى اناس لا اعرفهم ولا يعرفونني بل انا غريبة عنهم

— لا يهمك الا ان تحصلي على حقك من الميراث . واذا رام من تنتسبين اليهم ان تكوني صديقة لهم فدعيهم يتقربون منك

وعادت ليلى الى بحرانها وبعد هنيهة استوقف صديق فكرها في مسبح تخيلاته بقوله : — ما زلت تحلمين . اظنك تفكرين الآن بالبون الشاسع بين ماضيك ومستقبلك فلا بد ان تكون كل افكارك قد تغيرت في هذه الساعة واصبحت تبنين قصوراً وعلالي اخرى . ولكنك تبنينها على صخر لا في الهواء كما كنت تبنين قبلا

— انك بعيد الظنون فما تغير في ضميري شيء

فاختلج صديق لهذا الجواب وشعر بنبل وقع في فؤاده وبعد هنيهة قال : — اظنك تريدين ان تبقي وحدك الآن يا ليلى فاتركك

فنظرت اليه قائلة : — اشكر شعورك ولكنني لا اراك تترك هنا الورقة التي تخصني

فتوقف صديق هنيهة ثم قال : — سنعود ونتباحث بشأنها يا ليلى . متى تريدين ان اعود ؟

— تعود متى شئت ولكن الورقة تبقى هنا منذ الان

فضحك صديق وقال : — تبقى هنا منذ الان اذا شئت ولكن تحت شرط

— لا اخضع لشرط

فتغيظ صديق وتردد في مكانه ثم عاد وجلس وقال : — اسمعي يا ليلى لا احد يعلم بهذه الوصية غيري وغيرك الان ولن يعرف بها احد غيرنا الا متى صرنا زوجين . وان ذكرتها انت لاحد انكرها انا بتاتاً

فنظرت فيه ليلى غاضبةً ثم قالت : — خذها فكأنها لم تكن . كنت في غنى عنها وسابقى كذلك

— اذاً ظلي بانيةً قصوراً في الهواء واستثمري السعادة من الفلسفة . وخرج لا يلتفت

الفصل الثاني والاربعون

العملي غير النظري

ما هي الا بعض الايام حتى اعلن افلاس فهد المهنّد فاسرع البنك الاميركاني وطاب من يوسف براق ان يدفع مبلغ الفي جنيه عن فهد هذا لانه كان قد ضمنها وكفله بها . فوقع يوسف في حيص بيص لانه ليس عنده من المبلغ جنيه واحد . فابلغ جورجي اجيوس في الامر . فاسرع هذا واخذ الدفاتر الى غرفته وجعل يفحصها بمساعدة يوسف ثم « جرد » المحل فظهرت له هذه النتيجة

جنيه		
٢٠٠٠	بضاعة في المحل	
٢٥٠٠	ديون للمحل بموجب الدفاتر يصعب جمعها	
٤٥٠٠	الجملة	
	ص	
٢٠٠٠	ديون على المحل	
٢٠٠٠	السند المكفول باسم يوسف	
٤٠٠٠		٤٠٠٠
٥٠٠		

فطار صواب جورجي وقال : — كيف فعلت هكذا يا بني . أفي هذه المدة القصيرة تبيع بضاعة ديناً بقيمة الفين وخمسمئة جنيه وتضمن الفي جنيه . لقد ضاع رأس المال . قل لي لماذا ضمنت ذلك المنافق ؟

— لاني لم اعلم انه سيفلس

— بالطبع لا تعلم لانه لا يقول لك

بل اخبرني ان ذلك القرض الذي يقترضه سيفرج ازمته لا محالة وانه سيفعل معي معروفاً كمعروفي اذا احتجت اليه وان التجار لا يستغنون بعضهم عن بعض . وقد توسل

اليّ توسلاً وقال لي ان افعل هذا المعروف لاجل اطفاله الى غير ذلك من ضروب التشفيق . فلم يسعني الا ان افعل معه المعروف والا فلا اكون انساناً . هل يطاوعني ضميري ان ارى محله يهوي الى هاوية الافلاس وعائلته تصبح بعد ذلك في فاقة ولا اساعده بكتابة كلمتين في ذيل سند . اني ارق من ان اتنكص عن هذه المساعدة

فلطم جورجي خديه وقال : — يا للسذاجة هل تهدم مستقبلك لكي تبني مستقبل اطفال ذلك المنافق ؟

— انه لمسكين . ماذا كان في يده . ظن انه بذلك القرض يسد عجزه ويصلح حال تجارته . ولكن المداينين تألبوا عليه ولم يرحموه فافلس

— اذا كان المداينون لا يرحمونه فهل تفتديه انت بنفسك ؟ وهل تعلم اين ذهبت الالفا جنيه التي كفلتها انت وستدفعها ؟

— بالطبع ذهبت الى خزائن المداينين القساة

— كلا كلا بل ذهبت الى جيب ذلك المنافق فهو لم يف منها ديناراً واحداً والا ما افلس

— لا اصدق انه يفعل ذلك لان عملاً كهذا يعد نهباً واختلاساً ولا اعتقد ان الانسان مهما خلا من المروءة ومهما كان لئيماً يؤذي غيره ليغنم هو

— لا تتفلسف . ذلك الخائن اختلسك لا محالة

— يا لله . هل يستحل اختلاسي وانا اصنع له معروفاً ؟

— لا يستطيع ان يختلس الا ممن يصنع له المعروف . واما المداينون الذين لم يرحموه فهم الذين يحصلون حقوقهم منه . رأك صادقاً طيب القلب سليم النية اي غبياً غرًّا فاغتنم الفرصة لاختلاسك . هل تعرف اي اللحوم التي يأكلها البشر ؟ لا تسكت . قل

— يأكلون لحوم البقر والغنم

— لماذا لا يأكلون لحوم الاسود والذئاب

— لعلهم لا يستلذونها

— بل يستلذونها لو كانوا يستطيعون قيادتها كما يقودون الاغنام والابقار . يسلم الذئب والاسد من يد الانسان لانه اقوى منه واما النعجة فلانها ضعيفة بين يديه يكون لحمها لذيذاً له . فليتك كنت ذئباً او اسداً فما استطاع ذلك الوحش افتراسك . أما قلت لك ان الناس وحوش ضواري ينهش قويهم ضعيفهم ؟ فليتك كنت وحشاً . ثم قل لي على من هذا الدين الوفير الذي لك

— على خياطين متعددين

— لماذا لم تبع القماش نقداً

— لانهم تعذروا عن الدفع فذاك جاءني يقول انه اذا لم يشتغل لا يقدر ان يشتري ولا يقدر ان يشتري لانه ليس معه دراهم . ولا يكون معه دراهم ما لم يشتغل . فبعته بالدين لكي يشتغل ويفي

— فذهب واشتغل وقبض واودع في جيبه . وماذا قال لك الآخر ؟

— قال ان له ديناً وعما قليل يحصل على دينه ويدفع

— فحصل واودع في جيبه . والاخر ؟

— قال ان عنده عائلة تعيش من تعبه وليس عنده بضاعة . فرقّ له قلبي واعطيته

فتنهد جورجي وقال : — لا تصلح تاجراً يا بني بل محسناً . والمثل يقول نصف الطريق ولا كله . فالافضل ان يتصفى المحل وما يبقى منه من المال تحسن به على من تحسن . وانما اود ان تتعلم من هذا الحادث درساً قد تستفيد منه في المستقبل . فاعلم ان الناس في مثل حرب والحرب تسوّغ للمحارب ان يستعمل كل سلاح تصل اليه يده والاّ تغلب عليه خصمه وقتله . فاذا كان الكذب ينجيك من غدر الغادرين فلا خير في الصدق واذا استطعت ان تهضم من غير ان تتعرض لخطر فاهضم . واذا استطعت ان تدوس غيرك لكي ترقى الى قمة فاطحنه تحت رجليك والا فعل بك ما يجب ان تفعله به انت . افعل كل ما تستطيع ان تفعله بشرط ان تحايد ما يسمونه قانوناً لئلا تسعى الى حتفك بظلفك

— وقانون الضمير ؟ كيف استطيع ان احايده ؟

— الضمير ؟ اقتله قبل ان يقتلك

فصاح به يوسف : — كفى يا هذا كفى فما انت ابي ولا انا ابنك اذا كنت تود ان اتلقى منك هذا الدرس الشرير

فنظر فيه جورجي غاضباً وقال : — اذاً ابقَ نعجة يا بني . ابقَ نعجة . اني ابكيك حياً لانك ميت يتحرك ليس الا

وبعد سكوت هنيهة قال يوسف : — قضيت عهد الصبى وانا اربي نفسي لكي اكون صالحاً فهل تريد ان تحولني في ساعة الى ابليس رجيم ؟ لا اطيق ذلك

— آه . ليت الناس كلهم مثلهم فتسهل عليك معاملتهم ولكن ما داموا كلهم ابالسة يجب ان تكون ابليساً مثلهم لكي تستطيع ان تعاملهم

ففكر يوسف هنيهة ثم قال : — اقول لك يا ابي اني لست مثل الناس ولا أقدر ان

اكون مثلهم فلا اعاملهم ولا يعاملونني . والحق معك ما انا تاجر بل انا عامل فيجب ان اطلب خدمة حيث اجد

فهزّ جورجي رأسه وقال : — اذاً تكون اداةً في معمل . والميكانيكي يصنع منك الالة التي تعمل مسيرة وتسهل جهد قوتها . فان صلحتَ عضاضة جعلك عضاضة تحمل الأثقال ومتى انكسرت هذه العضاضة رمى بها بين الحطام المهملة وصنع غيرها . فهل تريد ان تكون كذلك ؟

ففكر يوسف وقال : — لا ارى وجه الشبه بيني وبين العضاضة

— انا اريك . خذ مثلاً . كان فتى مثلك يشتغل في معمل فكان عاملاً ثم جعل يترقى حتى صار ناظراً . ولكن صاحب المعمل لم يرقّه الا حين ثبت له انه ينتفع من خدمته عشرة اضعاف اجرته . وفي ذات يوم حصل اختلال في الآلة فانتثر بعض ادواتها واصابت هذا الناظر في وجهه ففقأت عينيه وشوهت وجهه ولم يعد يستطيع ان يقوم بواجباته . فاضطر صاحب المعمل ان يرقي غيره الى وظيفته واعطاه تعويضاً حقيراً . فلزم الرجل بيته وكان فيه ميتاً في شكل حي . وقد ظلمه الذين كانوا يطيلون عمره باحسانهم لانهم كانوا يطيلون عمر شقائه . هل رأيت وجه الشبه الان ؟

— ولكن هذا نادرٌ لا يقاس عليه

— لا باس من ان نضرب عنه صفحاً ونعود الى الذي خلفه في منصبه فانه بذل جهده في ارضاء صاحب المعمل وبعد عام اصيب بمرض صدري من جراء اجهاد قواه واضطر ان يستعفي ليستشفي فلم يجد من مكافأة صاحب المعمل ما يسد حاجات الاستشفاء شهرين فكان نصيبه نصيب سلفه . وهكذا تبدل على تلك الوظيفة في ذلك المعمل خمسة وصاحب المعمل يتنعم متمتعاً بتعبهم

— انك تريني من الدنيا الوجه المظلم يا ابي

— اريك الحقيقة . هذا مصير السواد الاعظم من العمال والمستخدمين

— وما قولك بالذين ترقوا حتى بلغوا المناصب العالية وصاروا اصحاب اعمال ؟

— معظم هؤلاء وحوش ضوار يحسنون الحرب فقد استوطأت اقدامهم امثالك فسحقوهم وصعدوا الى تلك المناصب . فان كنت تعدني ان تكون وحشاً ضارياً أبشرك بنيل المناصب العالية . لقد خدمت في بنك وفي مصلحة حكومة . اما شعرت ان غيرك كان يسحقك تحت قدميه لكي يرتقي عليك ؟

فبقي يوسف صامتاً مفكراً

الفصل الثالث والاربعون

الاهتداء الى الفتح

في ذات يوم في تلك الاثناء كان جورجي جالساً في قهوة الشيشة كعادته فجاءه فتى في اول الشباب وسأله : — هل حضرتك المسيو جورجي احيوس ؟

— انا هو فهل من خدمة ؟

— نعم اذا كنت تتفضل وتزور اختي بضع دقائق ؟ فهي في حاجة اليك

— من هي اختك ؟

— لا تعرفها انت ولكنها تعرفك وتريد مقابلتك لأمر

— ما اسمها ؟

— ماري الجهوري . فهل تريد ان تتفضل الان ؟

— لا افهم ما شغلها مع من لا يعرفها

— متى قابلتها تفهم

— اين تسكنون ؟

— في شارع عابدين

بعد قليل كان جورجي عند تلك المرأة وهما مختليان في غرفة فقالت : — سمعت يا سيدي انك تبحث عن فتاة

— من قال لك اني افعل ؟

— ما من سر يبقى مكتوماً فقد بلغني ان فهيم بك رماح كلفك بالبحث عن فتاة كان يبتغي ان يتزوجها فهربت لانها لا تريده . فهل وجدت الفتاة ؟

— لاافهم بغيتك من هذا التحقيق يا سيدتي فهبي ان الامر كما سمعت وعلمت فما شأنك ؟

— اود ان اعلم هل لك مأرب خاص بتزويج الفتاة من فهيم بك ؟

— ربما كان لي فاود أولا ان اعلم غرضك

— اذاً لا بد من قول ما اقوله أولا

— نعم قولي يا سيدتي فاني اسمع . هل لكِ علاقة بالفتاة أو بفهيم بك ؟

فقالت : — نعم لي علاقة بفهيم بك وحده ولا شأن لي مع الفتاة . كان فهيم بك

صديقاً حميماً لنا منذ جاء الى مصر . وكان يتردد علينا كثيراً على نية ان يخطب ابنتي فكنا نرحب به ترحاب اهل الفتاة بعريس لائق بفتاتهم الى ان صار كواحد منا . ولكنه كان يماطل باعلان الخطبة ونحن نحتمل مماطلته مصدقين اعذاره . وأما ابنتي فقد تعلقت به تعلق العاشقة بالمعشوق وليس من يلومها اذ لا يخفى عليك مقام فهيم بك ولا سيما اذ كان دائماً يمنيها ويمهد السبيل لآمالها . وقد بلغ منها الحب حتى استسلمت له وهي واثقة بوعوده . وما صحت من سكرة الحب الا وهي في مصيبة . . .

— ياللّه . مسكينة

وهنا استخرطت المرأة في البكاء وهي تقول : — هل شعرت بمصيبتنا . ومع ذلك بقينا نحاسن فهيم بك على امل ان يفي بوعده ولكنه ما زال يمني ويماطل الى ان سمعنا بانه نوى ان يتزوج تلك الفتاة وهي تنفر منه كأن اللّه يوحي اليها بان هذا الرجل يرتكب خيانتين مع فتاتين الاولى ذات حق بزواجه بحكم الضمير والثانية مغتصبة . ولما علمت انك مكلف بالبحث عن تلك الفتاة رأيت ان اطلعك على حقيقة الامر واستفتيك . فهل يحق لفهيم بك ان يترك هذه الفتاة التي استغواها تسقط في هاوية رذيلته ويبحث عن الفتاة التي تنفر منه لكي يتزوجها ؟

— كلا . كلا

— كذا اعتقدت انك تقول لانك كافاضل الناس ذو ذمة وشرف نفس فهل تستمر على مساعدته لبلوغ قصده بعد أن عرفت بفعلته هذه ؟

— لا يطاوعني ضميري على ذلك . واني لمستغرب عمل فهيم بك هذا ولا اكاد أصدق انه يهمل ابنتك

— لم يزل يا سيدي عندي أمل بان يرعوي ويعود الى رشده ويخلص ابنتي المسكينة من العار الذي البسها اياه . وهل يجد فهيم بك عروساً كابنتي دعد تخضع له خضوع النعجة وتكون في منزله خير زوجة امينة وبين نساء اصدقائه كالملكة لانها مستوفية العلم والتهذيب وذكية الفؤاد . فهل تتفضل بان تتوسط لدى فهيم بك في الامر فلعلك تقنعه

— اني ابذل جهدي يا سيدتي ولي الامل ان انجح . ولكن كيف يمكن اثبات ان فهيم بك كان يحب ابنتك ويعدها بان يتزوجها ؟

— لا اود ان تناقشه في ذلك مناقشة بل ان تستعطفه استعطافاً لاني اخاف ان تنفره المناقشة والمحاجة

— بالطبع اخاطبه بصيغة الاستعطاف ولكن لا بد من التلميح الى الواجب عليه

بحكم الشريعة حتى يحسب حساباً للتهديد اذا كابر . فما هي بيّناتك على انه كان يعد الفتاة ويمنيها ؟

— عندي الف بيّنة فهو الذي فتح هذا البيت واقتنى اثاثه وكان ينفق فيه عن سعة بشهادات الخدم وكان يتردد اليه كثيراً واحياناً كان . . . كان يبقى هنا طويلاً

— كان يبيت هنا ؟

— نعم بعض الاحيان

فضحك جورجي في قلبه وقال : — هل من بيّنات أخرى ؟

— نعم كان اذا سافر يكتب الى دعد رسائل غرامية ولم تزل رسائله محفوظة

— هذه افصح البينات فهل لك ان تطلعني على بعضها ؟

فنهضت المرأة وبحثت في بعض الاوراق وعادت اليه ببعضها فاطلع عليها جورجي باسما وقال أخيراً : — ان هذه الرسائل كنز ثمين يا سيدتي فلا تفرطي بها . احتفظي عندك فقد تحتاجين اليها

— اني حافظة كل شيء يمكن ان يكون حجة ولكني لا اريد ان اشاكسه في المسألة مشاكسة لئلا يفلت من اليد فارجو ان تبذل جهدك في استعطافه

— اني افعل ما ترومين يا سيدتي ولكن اسلوبك هذا لا ينفي ان تحتفظي بالادلة التي عندك

— اني محتفظة بها . ولكن هل تؤمل ان تقنعه

— عندي شيء من الامل ولكني لا اضمن النجاح كل الضمانة وسأخبرك ماذا تكون النتيجة

— اني شاكرة لفضلك . ولكن هب انه اصر على الرفض فما رأيك ؟ هل انجح اذا شكوته ؟

— قد تنجحين وقد لا تنجحين

— اخاف الاخفاق فنكون قد فضحنا انفسنا بلا فائدة

— نعم وجلّ ما في الامر انك تأخذين منه تعويضاً كبيراً لابنتك

— لهذا افضل ان ابالغ في استعطافه ولكن اذا ابى فلا ادري ماذا نفعل

ففكر جورجي هنيهة ثم قال: — اذا ابى .... اذا ابى فاني اسعى بتدبير عريس لابنتك يليق بها واقنع فيها بان يعطيها مبلغاً كبيراً من المال يكون ذريعة لتزويجها

— فكرة حسنة ولكن كيف يمكن تزويجها وهي كما لا يخفى عليك ...

— لعلنا نستطيع تدبير الامر

فحملقت فيه المرأة وقالت : — يالله كيف يمكن تدبيره ؟

— سنبحث في كل شيء في حينه . فدعينا نسعى في المشروع الاول الآن

— اني ممتنة لك عظيم الامتنان . واذا نجحنا في هذا المشروع فلا تعدم جزاء عظيما في هذه الدنيا وفي الاخرة . لا اظنك تشك بان دعداً متى صارت زوجة فهيم بك تستطيع ان تبسط كفها واذا قدمت لك حلاها الخاصة بها لا تكون موفية بعض فضلك

— اني انتظر الجزاء من ضميري يا سيدتي لا من دعد

— فليعش هذا الضمير الشريف

خرج جورجي وهو يقول في نفسه : — لقد ساقتني المقادير الى اولى خليلات فهيم فهل الثانية والثالثة مشاكل أخرى معه تسوقني المقادير اليها لحلها . ان هذا الانسان أعظم من وحش ضار فماذا القبه . اللغات قاصرة عن بيان خلقه لانه ليس في الطبيعة ما يمثل هذا الخلق . واللغة على قدر الطبيعة . فليكن اسمه عبارة عن معنى خلقه النادر

الفصل الرابع والاربعون

الزلزال

وقد اعتاد جورجي ان يجتمع بيوسف في اماكن مختلفة ففي ذلك النهار لم يصادفه فقلق عليه وقصد الى المنزل الذي يقطنه فوجده مضجعاً في سريره فاشتد قلقه وقال : — ظننت انك مريض يا بني لاني لم اركَ قط فهل استدعيت طبيباً ؟

— لا حيلة للطبيب يا ابتاه

— لا تروعني . مم تشكو ؟

— اشكو من الم لا يطاق

— في رأسك أو ..

— لا بل في نفسي . ليته الم في جسدي فلا اعبأ به

— ماذا ساءك ؟

— هل قرأت جرائد الامس ؟

— يندر ان اقرأ الجرائد غير اليونانية . فماذا ؟

— خذ اقرأ

فتناول جورجي الصحيفة وقرأ :

« عقدت امس خطبة حضرة النطاسي البارع والشاب الاديب النشيط الدكتور صديق هيزلي على حضرة الانسة المهذبة ليلى كريمة حضرة الفاضل الخواجه بطرس المراني وكانت الحفلة . . . الخ »

ففكر جورجي هنيهة وقال : — لا تكن ضعيفاً يا بني ... لان الازمة التي من هذا النوع مهما كانت شديدة فانما هي كالزلزال الذي تستقر الارض بعده على حال

— انها لكذلك يا ابي ولكن هل سهوت عن ان الزلزال يقلب كيان الارض فلا تبقى كما كانت ؟

— لم أسهُ عن ذلك بل اعلم ان المتداعي من شوامخ الارض يتساقط والراسخ يثبت ولا يبقى ثمت من خطر تساقط البواذخ ولهذا قلت ان الارض تستقر على حال بعد الزلزال

— ولكن يلوح لي انك لم تقدّر معنى التزلزل وتغير الكيان ولم تدرك ان الشيء لا يبقى كما كان

— بل اقدره جيداً واعلم ان هذه الكارثة قلبت كيانك . فقل لي ما الذي تغير فيك بعدها لارى ان كان ظني في محله ؟

— كنت شيئاً فاذا انا لست ذاك الشيء

— لا افهم الغازاً فقل لي كيف كنت وكيف صرت

— لا اقدر ان افهمك الاَّ بالامثال فها انت تدخن وفي يدك سيكارة فمتى احترقت فهل تبقى سيكارة ؟

— لا

— ماذا تصير ؟

— تتحول الى دخان يتصاعد في الهواء ورماد يلقى الى الارض

— بل تتحول الى غاز الحمض الكربوني والبخار المائي وما الرماد الاَّ المادة الترابية التي لا تعد جوهرية للنبات . هكذا انا وليلى كنا متحدين في اقنوم واحد كاتحاد الهيدروجن بالاوكسيجن والكربون في السيكارة فلما انفصلت ليلى عني اصبحت كغاز الحمض الكربوني المتلاشي في الهواء . فهل فهمت معنى تغيري ؟

— الآن فهمت يا ابني واتأسف ان كيانك لم ينقلب كما كنت اتوقع انا بل كما تفلسف انت

— لا بدع ان يخيب ظنك يا ابي لانك انت تعبأ بالاعراض واما انا فاعبأ بالجواهر .

انت تحسب التغير الصناعي كانحلال اي ملح في الماء تغيُّراً وانقلاب كيانٍ. وانا لا احسبه شيئاً لانه متى تبخر الماء كله بقي الملح وحده في الوعاء وعاد متبلوراً كما كان فكانه لم يتغير تغيراً بل امتزج مع الماء فلما انفصل هذا عنه عاد الى حاله. واما التغير الذي نكبت به انا فهو اني كنت عوداً فاحترق وتحول الى عناصر غازية تلاشت في الهواء ولم يبق له أثر ولا يمكن ان تجتمع هذه العناصر ثانيةً لتؤلف نفس العود. فتألَّم نفسي الان كتألُّم المحترق

— فهمت قصدك يا بني ولا ازال اتأسف لانك لم تتغير التغير الذي كنت اتمناه لك بعد هذا الزلزال الذي زلزل كيانك

— ما هو التغير الذي كنت تنتظره فيَّ بعد هذا الزلزال ؟

— كنت انتظر ان تحول الى معدن صلب بعد ان تمحص في النار. فاذا بك تحول الى غازات تتلاشى في الهواء. كنت اتوقع ان يكون تغيرك رسوخاً في الكيان فاذا به تحول الى الفناء. كنت اتمنى ان يكون تجديداً للحياة فاذا هو اندفاع في الموت. فيا لضيعة الامل

فحرَّق يوسف الارَّم وقال : — لا ادري اي اله يستطيع ان يبقي الماء ماءً بعد ان يفصل هيدروجينه عن اوكسيجينه او يستطيع ان يحفظ الكل كلاً بعد ان يفصل عنه بعضه او يستطيع ان يحفظ الحياة للحي بعد ان يفصل روحه عن جسده. بيد اني لا الومك على تأنيبك لانك لا تدري ان ليلى كانت العنصر الجوهري في كياني حتى اذا انفصلت عني ففي هذا الكيان. فكيف كنت تنتظر مني حياةً او رسوخاً في الوجود بعد هذا الزلزال الذي اشتق اقنومي شقتين

ففكر جورجي هنيهة ثم قال : — هل كنت انت عنصراً جوهرياً لكيان ليلى كما كانت لك ؟

— كذا كنت اعتقد

— اذاً كنت مخدوعاً. والاَّ فكيف طاقت هي ان تفصل عنها العنصر الجوهري لكيانها

— لا ادري. لا ادري يا ابتاه. ان الزلزال الذي زعزع كياني زعزع وجداني ايضاً

ورأى جورجي ان يوسف لو كان جباناً ضعيفاً لتدفقت دموعه من شدة التأثر فرقَّ له وسأله بلطف : — هل كان بينك وبين ليلى عهد ؟

— نعم كالعهد الذي بين الاوكسيجن والهيدروجن اي الفة كيمية ؟

— انت اعلم مني بالحقائق الكيمية افليس في الطبيعة عنصر آخر اشد الفة لاحد هذين العنصرين من الفتهما المتبادلة ؟

— تحلهما بعض القلويات

— اذاً . صادفت ليلى من هو اشد الفة بها فاجتذبها اليه وانفصلت عنك وانحل تركيبكما

— ان صح ما تقول كان هذا الانحلال اشد ايلاماً . ولكني اعهد ان لا الفة البتة بين ليلى والدكتور صديق هيزلي

— اذاً لماذا تنفصل عنك لتقبله خطيباً ؟

— لا ادري

— لا بد من الفة أخرى بينهما تختلف نوعاً عن الفتكما . هل هو غني ؟

— اظنه غنياً

— ومقامه في الهيئة الاجتماعية غرّار وانت فقير ومقامك ينزل رويداً . فلا عجب ان يستميلها الجاه والمال عنك

فانتفض يوسف متألماً وقال : — اني اجل ليلى عن الإعياء بهذه الاعراض

فهزّ جورجي رأسه وقال : — اتأسف ثالثة يا ابني ان هذا الزلزال لم يقلب كيانك كما اتمنى . انت روحاني تصوري محض فليت هذا الزلزال قلب كيانك ونفض عنك جانباً من روحانيتك حتى يستقر كيانك في العالم المادي وترى البشر كما هم . اذا لم تكن ليلى قد اغترت بجاه صديق الهيزلي وماله فما الذي استهالها عنك ؟ واذا كانت ليلى لم تنفر منك لانك بعد افلاسك اصبحت بلا مقام في الهيئة الاجتماعية والى الان لم تجدد لنفسك مقاماً فما الذي نفرها منك ؟ هل عندك تعليل آخر ؟

فبقي يوسف صامتاً مبهوتاً مدة الى ان قال له جورجي : — هل تظن ان ليلى مرغمة على هذه الخطبة ؟

— يستحيل ان يستطيع احد ارغامها على امر

— إذاً ؟

— اذا صح ما تقول ان للمال والجاه جاذبية اشد من الالفة التي بين القلوب فاني ابكي مشفقاً على هذا العالم البشري الذي يحاول ان يتسفل في حين ان الطبيعة تبذل جهدها في ترقيته

— هنا فلسفتك فاسدة يا بني . ما دام العالم البشري قابلا للترقي كان المعنى انه مؤلف من احاد لانه لو كان وحدة قائمة بذاتها لكان في قمة الكمال ولم يعد ترقيه يحتمل مزيداً . وما دام العالم مؤلفاً من آحاد او وحدات متنوعة كانت آحاده متنافسة متنازعة لانه بلا التنافس والتنازع لا يكون رقي وستظل آحاده متنافسة الى ان تتوافق وتتحد وحينذاك تبلغ الى قمة الارتقاء . وما تسميه انت تسفلاً انما هو الصعود في سلم الارتقاء لانه تنازع وتنافس . والمبادىء التي تحاول تنفيذها اوتتمناه لا تنفذ الا متى بلغ العالم الى حد الكمال . فانت جئت قبل اوانك يا ابني . فاما ان تستقل عن هذا العالم أو ان تجري في تياره . واما وقوفك فيه لصد هـذا التيار فكوقوف شجرة في النهر المتدفق . تظل الشجرة مقاسية صدمات المياه الى ان يقتلعها التيار . فاذا كنت تنقح فلسفتك على هذا النمو تجد اطمئناناً بعد هذا الزلزال

فتنهد يوسف وقال : — مهما نقحت يا ابتاه فلا اجد اطمئناناً ومهما تقلبت نفسي فيَّ لا تجد الا الماَ

— لا مسكّن لهذا الالم يا بني الا بتنقيح فلسفتك . نقحها تجد العلاج الشافي لمرضك

— لا علاج لهذا المرض يا ابي . لا علاج له الا انعطاف ليلى . آه ليلى . ليلى

فنظر فيه جورجي وقال : — هل فقدت شممك يا يوسف ؟ هل خلوت من الانفة ؟ اذا كانت ليلى تصد عنك وتجفوك وترضى سواك بعلا فاذا لم يتحول حبك الى قلى كنت خسيساً . فلا ترني فيك خ . . . .

— رفقاً رفقاً ابتاه . لا تطلب مني قلى . لا . لا استطيع . حسبي ان اعتصم بانفتي وشممي . لا تجر علي ابتاه . ان لي كبرياء شامخة فلا تحسسها لئلا تسحق فؤادي تحت قدميها . حسبي ما تنشئه كبريائي من الصبر فيَّ

وعند ذلك شعر جورجي ان جلد يوسف قد نفد وان زيادة مناقشته بهذا الموضوع تقطع اوصال فؤاده وتصهر دماغه . فتركه ومضى

الفصل الخامس والاربعون

نصب الفخ

في تلك السهرة كان جورجي عند فهيم بك وهما مختليان في غرفة مستقلة . وقد دار بينهما الحديث التالي :

قال فهيم : — لماذا لم تقابل جميل فهو مفوَّض عني بكل امر

— وددت هذه المرّة ان اقابل الاصيل دون الوكيل لان لي حديثاً خاصاً معه

— بالطبع فيما يتعلق بالفتاة هيفاء فما الذي عرفته بشأنها ؟

— تحققت وتأكدت انه ليس للفتى يوسف براق يد في فرارها هذه المرة ولا يعرف عنها شيئاً

— كيف تأكدت ذلك ؟

— عرفت ان للبطركخانة يداً في الامر وان البطريرك والكاهن امبروسيوس يعلمان مقر الفتاة . ولكن لا ادري اين هي مودعة

— كيف تأكدت ذلك ايضاً ؟

— تأكدته من رفض الكاهن امبروسيوس مساعدتي له في البحث عن الفتاة كانه اصبح في غنى عن البحث عنها

— ولكن ما غرض هذا الكاهن في البحث عن الفتاة ؟ اما عرفت ؟

— عرفت ان للفتاة اهلاً غير امها يبحثون عنها وقد فوضوا هذا الكاهن بالبحث

— هل عرفت من هم اهلها ؟

— لا . فماذا تقول امها عنهم ؟

— امها تعترف ان الفتاة ليست ابنتها بل ابنة اختها وانها تيتمت اباً واماً وهي طفلة فربتها . وتقول ان اهلها خاملو الذكر

ولكن اذا كان الكاهن قد عثر عليها فهل سلمها لاهلها ؟ والا فلماذا يخفيها ؟ وحتى متى يخفيها ؟

— الحق اني الى الان لم ادرِ شيئاً من ذلك ولكني ساواصل البحث والسعي ولا بد ان اكتشف مقرها في هذا الاسبوع

— هل تعتقد انك تستطيع ؟

— اثق كل الثقة باني استطيع ما دام للكاهن ثقة بي

— حسنٌ وجزاؤك محفوظ يا جورجي فهل تستطيع ذلك في برهة قصيرة ؟

— قد استطيع

— اذا لم تنجز الامر سريعاً يفوت يا جورجي فابذل جهدك فيه

— اني باذل جهدي . ولكني ما جئت لاباحثك بهذا الامر لاني لم ابلغ فيه الى النهاية والحديث فيه الآن بلا معنى

— هذا ما أراه ولذلك استغرب لماذا قصدت اليّ رأساً فما هو الامر الآخر

— تقول جنابك ان الفتاة من اصل خامل الذكر فلماذا انت مصر على البحث عنها والتزوج منها . فدعها . وهناك كثير من الفتيات اجمل وافضل منها

— استغرب انك تتقلد وظيفة النصح لي فهل اجتمعت بالفتاة وانت تمكر عليَّ ؟

— كلا . وانما هناك فتاة اخرى اود ان اوجه نظرك اليها

— من هي ؟

— دعد

فاختلج فهيم وقال : — هل تعرف دعداً ؟

— اليوم عرفتها

— لماذا تريد ان توجه نظري اليها ؟

— لانها في حالة تستوجب انعطافك اذ لا بد ان تكون عالماً بامرها . . .

فامتقع فهيم وقال : — علمت . وما شأني معها ؟

— هل عندك شك بانك انت السبب في ذلك ؟

— لم اخدعها والذنب ذنب امها وذنبها هي ايضاً

— ولكن لو لم تكثر من التردد عليها . . . .

— نعم اكثرته ولكن باغراء امها بل باغراء الفتاة نفسها . ولو لم تمهدا لي السبيل ما وقعت في احبولتهما

فقال جورجي باسما : — اذاً هما جنتا على عفافك

فعبس فهيم وقال : — تقرّع بي ؟

— لست اقرّع بك ولكني اقول ان الفتاة مسكينة فاذا لم تستر عارها اخسرتها مستقبلها

— الحق عليها وعلى امها . والذنب ذنبهما معاً . فاذا خسرت كانت تنال عقاب ذنبها

— ولكن عند الفتاة ادلة على انك انت القيتها في الهاوية بعد ان منيتها بالوعود

فانتفض فهيم وقال : — وهل تريد هي وامها ان تعلنا تلك الادلة ؟ فلتعلناها بل فلتقاضياني . والمحكمة لا تحكم عليَّ باكثر من تعويض

— لا تريدان أن تفعلا شيئاً من ذلك بل تبتغيان مقاضاتك عند نفسك . ففيك الخصام وانت الخصم والحكم . فاحكم بما تروم . وهما تخضعان لحكمك

— اني مستعد لاي تعويض تطلبانه

— ولكن التعويض لا ينتشل الفتاة من سقطتها

— اعطيها خمسة آلاف جنيه فتعيش بها كاشرف امرأة . والمال يستر عارها ويقرب الناس منها

— ولكن المال لا يضمن لها زوجاً تستر به عارها ولا سيما اذا قام وليدها شاهداً عدلاً عليه

— انها مجنونة اذا كانت تطلب زوجاً . فلماذا لا تعيش حرة ويكون لها كل يوم الزوج الذي تريده ؟

— المرأة غير الرجل يا فهيم بك . فلو كان عندها مال قارون كله وبقي عارها كساء لها لبقيت في نظر احقر الناس فضلاً عن اشرافهم ساقطة . وهي تفضل الفقر مع الستر على الغنى مع العار . وليس أحد غيرك يخطئها في ذلك . الفتاة في ويل الآن لا يشعر به احد غيرها ولا يقدره قدره احد سواها . وليس من ينقذها من هذا الويل الا انت

ففكر فهيم وقال : — ماذا استطيع ان افعل لها ؟

— تتزوجها فتجدها خيرزوجة . وهي جميلة الخلق والخلق . فهل تطمع باجمل منها ؟

— ارجو منك ان تضرب صفحاً عن هذا الموضوع لاني لا استطيع ان اتزوج اثنتين

— هل لك زوجة أخرى ؟

— نعم هيفاء لا بد ان تصير زوجتي على اي حال مهما تكلفت

ففكر جورجي هنيهة ثم قال : — ووليد دعد يبقى شاهداً على اثمك وعلى عارها

— اما انا فلا يهمني لان مالي يطهرني من كل اثم

— ودعد المسكينة ؟

— تحتمل عارها عقاباً لها

— « حرام عليك »

فقهقه فهيم وقال : — الحرام لغة الساذجين الجهلاء . وماذا يضر دعد ان تعيش كاميرة بالمال الذي اعطيها اياه فترفع به على كل من يحتقرها ؟

— قلت لك ماذا يضرها . يضرها ان تكون في نظر الجمهور ساقطة وانت ملزم بانتشالها من سقوطها

— كيف استطيع ان انتشلها ؟

— بزواج

— دعها تتزوج غيري

— لو لم تكن حاملاً لسهل تزويجها من غيرك

ففكر فهيم هنيهة وقال : هل تقدر ان تجدلها عريساً وانا ادفع المهر الذي يريده العريس ؟

— اقدر ولكني لا اكفل تلافي الفضيحة متى ولدت زوجة العريس الذي ادبره في الشهر الرابع او الخامس او اذا اكتشف زوجها امرها على اثر الزواج

— نرشيه بالمال

— لااقدر ان اجد عريساً يأخذ الرشوة ليقبل مثل هذا العار الذي لا يستتر . فان رضي بها ثيباً فلا يرضى بها اماً لطفل يولد في الشهر الخامس

ففكر فهيم طويلا ثم قال : — هل تقدر ان تجد لها عريساً يسكت على عارها المستتر اذا لم يعلم به احد غيره ؟

— قد اقدر اذا رشوته بالمال الجزيل

— بكم ؟

— بعشرة آلاف جنيه

— ادفعها

— وستر العار ؟

— ستر العار ؟

— نعم فان دعد لا بد ان تلد

ففكر فهيم طويلا ثم قال متلعثما وهو يبتسم : — واذا كانت لا تلد ؟

— كيف ذلك ؟

— القابلات اللواتي يعبدن المال كثيرات

— فهمت . ولكن لا تثق بالقابلات لئلا تكون الضلالة الاخيرة شراً من الاولى

— رأيك ؟

— رأيي ان تتفق مع طبيب

ففكر فهيم هنيهة ثم قال : — هل تعرف طبيباً ؟

— اعرف الدكتور صديق هيزلي

— هل يفعل ؟

— يحب الفلوس حبًّا شديداً

— حسن . هل تباحثه في الامر ؟

— لا . لا تدخل ثالثاً في الامر . لا تستوسط احداً . خاطبه رأساً وهو يدبر الامر

— فكرة حسنة . اذاً اتكل عليك في تدبير عريس لدعد

— اضمن لك ذلك اذا كنت ترضي الدكتور صديق هيزلي لكي يدبر الامر

فصافحه فهيم قائلا : — نحن صديقان يا جورجي ولا استغنى عن آرائك الصائبة ولكن لا تنس هيفاء

— خذها من يدي

ثم خرج جورجي وهو يضحك في نفسه ويقول : — الدور ناجح ان شاء الله

الفصل السادس والاربعون

سلسلة الفخ

في مساء اليوم التالي كان جورجي عند فهيم بك فقال له فهيم : — ما وراءك يا جورجي ؟ خير ان شاء الله

فقال جورجي مبتسماً : — كل خير ان شاء الله . اود ان اعلم ماذا فعلت بالمسألة التي اتفقنا عليها ؟

— اظنها ناجحة

— فاوضت الدكتور هيزلي بالامر ؟

— فاوضته فتمنع في اول الامر ولما احس بالاصفر الرنان لم يعد يتردد

— هل علم من هي المرأة ؟

— لم يعلم بعد

— لا تقل له من هي بل دعه يدبر بك على تنفيذ العلاج وانت جرعها الدواء بنفسك

— لماذا هذا الرأي الاخرق ؟

— بل هو الرأي الصائب . لا اود ان يعرف الدكتور عنها شيئاً لاني اقنعت ابن عمه سليم الهيزلي ليكون عريساً لها وهو طائر فرحاً

— انك لداهية يا جورجي وتريد ان سليماً هذا لا يعرف شيئاً عن تاريخ الفتاة ؟

— نعم وهو الى الان لا يعرف شيئاً

— وهبه عرف بعد ذلك

— لا بأس فى ان يعرف بعدئذ لانه متى استولى على عشرة آلاف جنيه يغض نظره ما دام الامر مكتوماً

ففرك فهيم يديه وهو يقول : — يلوح لي ان المشروع ناجح من كل وجه يا جورجي

— نعم كل المشروعات ناجحة ان شاء الله

— ماذا عندنا غير مشروع دعد ؟

— مشروع هيفاء

— هل عثرت عليها ؟

— كلا وانما دبرت تدبيراً آخر

— ما هو ؟

— علمت ان الكاهن امبروسيوس وليُّ امرها بموجب وصية شرعية من اهلها . فهل تعرفه ؟

— لا . لم ارَ وجهه

— وهل يعرفه جميل مرمور ؟

— لا . لا اظن . فما هو تدبيرك الاخر ؟

— فاوضت الكاهن امبروسيوس بامر زواجك من هيفاء واقنعته بانك خير عريس لها

— فهل رضي ؟

— قال ان لا مانع عنده اذا كان يستطيع اقناع الفتاة فاخبرته ان الفتاة تقتنع اذا كنت انا اخاطبها بالامر وتكفلت له بذلك

— حسن جداً . فهل اراك الفتاة ؟

— لا بل قال انه يود ان يجتمع بك كي يخاطبك بالامر اولاً ويتفق معك عليه

— حسن مرحباً به . ماذا يريد ؟

— متى اجتمع بك يقول لك . ولكني فهمت منه انه لا يريد ان تتداخل خالة الفتاة بالامر بل لا يريد ان يرى وجهها ولا ان ترى وجهه

— لن تدخل نديمة هذا المنزل قط اذا كان دخولها يعرقل المسألة

— نعم الافضل ان تبقى بعيدة لاني علمت ان الفتاة نفسها تنفر منها جدًّا

— حسن لاحاجة لنا بندیمة . متى يأتي الاب امبروسيوس ؟

— غداً مساء اذا شئت

— انتظره هنا

— نعود الى مسألة دعد . متى تنجزها ؟

— غداً ان شاء الله . والدكتور وعدني ان يأتي الليلة . وسآخذ منه التعليمات اللازمة

— والدواء ايضاً . دعه يأت به لانك انت لا تقدر ان تحصل عليه

— طبعاً هو يُهيّئ الدواء

الفصل السابع والاربعون

وتد الفتح

في مساء اليوم التالي كان الاب امبروسيوس وجورجي آجيوس عند فهيم رمّاح وقد دار بينهم الحديث التالي

فقال الاب امبروسيوس — فهمت من ولدنا جورجي يا فهيم بك انك تريد هيفاء زوجة

— نعم وستكون شريكتي في سعادتي ان شاء الله فلماذا تمسكها عني يا ابانا ؟ هل عندك لها عريس افضل ؟

— لا . وانما انا وليُّ امرها بموجب وصية من جدها اذ لا اب ولا ام لها . ولهذا اود ان اضمن راحتها وسعادتها قبل زواجها والاَّ فاكون مقصراً بحق الوصاية

— لك كل الحق يا ابانا فهل عندك اعتراض على زواجي منها ؟

— كلا . وانما لي بعض الطلبات

— اني مستعد لتلبية كل طلب فماذا تطلب ؟

— حسن . اطلب مهراً للفتاة

— متى صارت زوجتي كان كل مالي لها بحكم الطبع

— الامر مفهوم . ولكن الفتاة مع حداثتها تفهم مصلحتها جيداً فهي تخاف ان تكون لها شريكات في سعادتها معك

فاختلج فهيم بك وقال : — نحن النصارى لا نستطيع ان نتزوج الا واحدة فلماذا هذا الخوف ؟

فضحك الاب امبروسيوس وقال — والزوجات غير الشرعيات ؟

فامتقع لون فهيم بك ونظر في جورجي فقال هذا : — ان ابانا يعرف طيش الشباب ويعذر فما هو مؤنب الان وانما هو يود ان يحفظ حقوق الفتاة . فلا تلمه

— ولكن لن يكون عندي زوجات شرعيات ولا غير شرعيات الاَّ هيفاء

فقال الاب امبروسيوس : — لا نقدر ان نحصل على ضمانة لذلك ولا نطلب ضمانة له وانما نطلب ضمانة لراحة الفتاة

— حسنٌ . ماذا تريد ؟

— نريد ان نعطي الفتاة مبلغاً من المال تضمن به راحتها في المستقبل ان حدث ما يقلق راحتها ويحرمها هناءها

— هذا امر سهل جدًّا فاني اقدم لهيفاء كل ما تطلب لان كل ما هو لها وما هو لي سيكون لكلينا معاً

— اذاً تضع في البنك ثلاثين الف جنيه باسمها

ففكر فهيم بك وقال : — انه مبلغ كبير

— ليس كبيراً على من ستكون زوجتك وما هو لها سيكون لك ولاولادكما

— ما قولك اذا كنت اهبها منزلين بهذه القيمة ؟

— بل تضع لها القيمة في البنك وهي تشتري بها منزلين او عزبة او ما تروم . ويبقى كل ذلك تحت وصايتي الى ان تبلغ الفتاة سن الرشد ويصير لها حق التصرف بمالها فاسلمها ملكها تسليماً شرعياً وبعد ذلك يكون شأنها معك وشأنك معها

ففكر فهيم هنيهة ودنا من الاب امبروسيوس واسرّ له قائلاً : — لك مني خمس مئة جنيه واترك هذا الموضوع

فعبس الاب امبروسيوس وقال : — لا تحمل ضميري ثقلاً فاني كاهن الله ورجل شيخ ولا مطمع لي في هذه الدنيا وانما مطمعي في الآخرة . فاقفل هذا الباب ولا آخذ منك الا ما تجود به نفسك بعد ان اكاللك

— واذا جعلنا الخمس مئة الفاً

— ولو جعلتها ثلاثين الفاً فاني مكلف بواجب مقدس يجب ان انفذه بالامانة

ففكر فهيم هنيهة ثم قال : — ان المبلغ كبير وليس في وسعي تدبيره

— اذاً لا تؤاخذني اذا اخذت الفتاة وحرصت عليها حتى تنتهي مدة وصايتي عليها وبعد ذلك فلتفعل ما تروم

وهمَّ الكاهن ان يقف فغمز جورجي فهماً كانه يقول له لا تدعه يخرج . ثم قال جورجي : — مهلاً يا ابانا ان الثلاثين الفاً ليست شيئاً عند سعادة فهيم بك . تفضل اجلس الى ان ننتهي عند نتيجة

فالتفت الاب الى فهيم بك فقال هذا له : — اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون

— لا بد من الثلاثين الفاً مهراً للفتاة يا ابني . اني مسأول عن الفتاة اكثر منها عن نفسها

— ليكن ما تريد يا ابانا . فمتى يكون الاكليل ؟

— حالما تضع في يدي تحويلاً على البنك باسم هيفاء

— غداً ان شاء الله يكون التحويل في يدك

— وغداً اكللكما

— اين ؟

— حيث تكون الفتاة . اني اصطحبك اليها ويكون المسيو جورجي الشاهد الواحد ومرأة اخرى الشاهد الثاني

— اين نلتقي ؟

— غداً يأتي المسيو جورجي ويصطحبك الى حيث اكون

— حسنٌ

وفيما كان المجلس يرفض أسرّ جورجي الى فهيم قائلاً : — ماذا جرى بدعد ؟

— اظنها خلعت ثوب عارها ونفت من الوجود الشاهد العدل عليه

— الحمد لله . كل شيء مدبر كما نروم

— اني اذكر دائماً فضلك يا جورجي . وغداً اراك

— اكثر الله خيرك يا بك

الفصل الثامن والاربعون

فخ لذئبين

في صباح اليوم التالي كان جورجي في منزل ماري الجهوري فقال لها : — ان الرئيس يود ان يزوركم الليلة لكي يبت المسألة فقد عقد النية على خطبة دعد

— اني شاكر لك اهتمامك يا مسيو جورجي . ولكني لا اقدر ان استقبله الليلة

— لماذا ؟

— لان ... اما اخبرك فهيم بك ؟

— لا . ماذا ؟

— قضي الامر

— حسنٌ . كيف ذلك ؟
— استحضر فهيم بك دواء عن يد طبيب وجرعها اياه
— من هذا الطبيب ؟
— لم يقل عن اسمه
— و . . . ؟
— في الحال . ولكني خائفة على سلامتها
— لماذا ؟
— انها محمومة الآن والعاقبة خطرة . اني قلقة جداً
— يجب ان تستدعي طبيباً
— رباه اخاف الافتضاح
— لا تخافي . استدعي الدكتور صديق الهيزلي فهو بارع وطبيب جداً
— صديق الهيزلي . اما هو قريب سليم ؟
— ابن عمه
— يالله . واذا عرف سليم الامر ؟
— ان يعرف الآن افضل من ان يعرف بعدئذ
— ولكن . . .
— لا تخافي. لا يحجم وانا فوق رأسه العب بدماغه . وقد مهدت له سبيل العلم بالامر لا تخافي . افعلي كما اقول لك . العلاج عن يد ابن عمه افضل منه عن يد طبيب غريب
— اخاف ان الدكتور ينفّره
— لا تخافي لان الدكتور يحب المال جداً وقد يتنازعان كلاهما دعداً . لا تخافي العشرة آلاف جنيه تغرُّ
— سأنتظر نهاية هذا اليوم فان اشتدت ازمتها استدعيته
— حسن فاذا اضطررت الى استدعاء طبيب لا تستدعي احداً غير الدكتور صديق الهيزلي . ولكن لا تدعيه يفهم شيئاً عن علاقة فهيم بك بالمسألة

الفصل التاسع والاربعون

الفيخ من نار

في مساء اليوم التالي نحو الساعة الحادية عشرة كان فهيم بك رماح وجورجي آحيوس

في مركبة تدرج بهما في شارع شبرا الى ان استوقف جورجي الحوذي أمام منزل العجوز اليونانية التي اودع هيفاء عندها

ولما دخلا في الباب قال فهيم : — عجيب ان تكون هيفاء قريبة منا ولا نعلم بمقرها

— ألا تعلم يا فهيم بك ان الاسرار مغطاة بقشة كما يقال ؟

ولما دخلوا الى المنزل استقبلهما الاب امبروسيوس مرحباً وقال : — التحويل بثلاثين الفاً يا فهيم بك

— يجب ان ارى هيفاء اولا واعلم ان كانت راضية

— لا تقدر ان تراها قبل ان ترى هي التحويل

فتردد فهيم . فقال له الاب امبروسيوس : — اذا كنت قليل الثقة يا ابني فالافضل ان تعود من حيث اتيت

فتوقف فهيم بك هنيهة ثم قال : — التحويل باسم هيفاء . فاسلمها اياه يداً بيد

— اذا كان التحويل باسمها فلا يستطيع ان يقبضه احد غيرها

— يمكن ان يقبضه ولي امرها

— لا يستطيع ان يقبضه الا باذن من البطرك . فان كان يخالجك شك فعد من حيث اتيت

فتناول فهيم التحويل ودفعه الى الكاهن فاطلع عليه الكاهن ووضعه في جيبه وقال : تفضل الآن وصافح هيفاء

ودخل فهيم وراءه الى الغرفة حيث كانت هيفاء واقفة فاستقبلته باسمة وصافحته فانشرح صدره وقال : — لماذا لم تقولي لي قبلاً يا هيفاء انك تريدين مهراً ؟

فاطرقت هيفاء الى الارض باسمة فقال لها : — سترين يا هيفاء ان هذه الثلاثين الف جنيه ليست شيئاً من ثروتي التي ستكون تحت امرك . فهل انت راضية من كل قلبك ؟

فازدادت الفتاة اطراقاً . وعند ذلك قال الاب امبروسيوس : — اترك هذا السؤال للكاهن يا فهيم بك . فلنسرع بالاكليل الآن

وفي الحال فتح الاب امبروسيوس كتابه ووقف العروسان والى جانبيهما جورجي والعجوز اليونانية . وفي هنيهة قصيرة انتهت صلاة الاكليل . وبعد بضع دقائق قال فهيم : — تفضلوا الآن جميعاً الى منزلي حيث اعلن زواجي لخدمي ونستتم فرحنا هناك

عند ذلك قرع الباب . ففتحته العجوز ودخل منه يوسف برّاق . فلما رأى يوسف

الكاهن وفهيم بك رمّاح عرته هزة غيظ زلزلت هيكل عظامه وصاح : — ماذا تفعلون هنا يا خونة ؟

فابتسم جورجي وقال : — لا تسخط يا يوسف لم يحدث ما يسوؤك

— اذاً كيف جاء هذا الدنس الى هنا ؟ الكي يدنس هذا المقام الطاهر ؟

وكان يشير الى فهيم بك . فثارت سؤرة الغيظ في فهيم وقال : — بل من جاء بك انت الى هنا يا غلام ؟ وكيف تسطو على مجلسي بهذه القحة ؟ ان لم تخرج في الحال قذفت بك من هذا الشباك

وعند ذلك اعترض جورجي بينهما وقال : — مهلاً دعونا نتفاهم . ما هو شأنك يا ابني يوسف ؟

— اتتواطأ مع هذا الرجل على خيانة هيفاء ثم تدعوني ابنك ؟ انك انذل منه بل انا مجنون لاني وثقت بك ولم اتعلم من الماضي

— ماذا علمت من خيانتي حتى تقول هذا القول يا بني ؟

— ماذا يفعل هذا اللئيم هنا ؟ وما شأن هذا القسيس ؟ ألكي تزفوا هيفاء الى فهيم اللئيم ؟

فقهقه فهيم وقال : — لقد قضي الامر يا هذا ولا شأن لك اولا وآخراً

فزمجر يوسف كالنمر وقال : — يا للخيانة ! هل رضيت بهذا الزنيم بعلاً يا هيفاء ؟ اني اندب حظك التعس

فضحك جورجي وامسك بيد يوسف قائلاً : — خفف عنك وهوّن عليك . فما حصل شيء

— اما انعقد الاكليل بعد ؟ إن ....

فقال فهيم : — لقد جئت متأخراً يا طفيلي . وماذا كنت تفعل لو جئت قبل انعقاد الاكليل ؟

فازداد يوسف حدّة وقال لجورجي : — انك خائن واشد لؤماً من هذا النغل . ينعقد الاكليل ولا تزال تقول لي لم يحصل شيء ؟

— كلا لم يحصل

— اما صارت هيفاء زوجة لهذا الساقط ؟

— لن تصير

فانتفض فهيم وقال : — من هو هذا الغلام المجنون حتى اخاف منه واكتم زواجي عنه ؟

اخرج يا هذا من مجلسي والا . . .

فقاطعه جورجي واخذه بيده الى غرفة منفردة وقال له همساً : — لا تحتد يا فهيم بك فانا موارٍ الآن ولا مراوغ . ان زواجك هذا فاسد

فحملق فيه فهيم مستشيطاً وقال : — ماذا تقول والقسيس لم يزل حاضراً ؟

— اقول انك خدعتنا جميعاً فانت تزعم انك فهيم رماح والحقيقة انك الامير سليمان الخزامي

فانتفض فهيم حتى تزلزل هيكل عظامه وقال : — من قال لك ذلك ؟

— ليس خفيّ الا ويعلن يا هذا . فاني اعرف تاريخ حياتك قبل ان تلد فهل تريد ان اسرده لك الآن حرفاً حرفاً ؟ فاسمع لاقص عليك رذائلك ورذائل ابيك

فقاطعه فهيم قائلا : — اصمت اصمت يا ماكر . وهب اني ابدلت اسمي فهيفاء زوجة شخصي لا زوجة اسمي

— ولكن متى صرت ثانية الامير سليمان الخزامي تفتش هيفاء عن فهيم رماح فلا تجده . فزوجة من تكون حينذاك ؟

— تكون زوجة ابن عمها سواء كان فهيم رماح او سليمان الخزامي

— اي اسقف حلال لك ان تتزوج ابنة عمك ؟

وعند ذلك دخل الاب امبرسيوس وقال : — لقد سمعت حديثكما

فقال فهيم بك : — هل تنكر انك كلمتني يا ابانا

فاجاب الكاهن : — لا انكر يا ابني ولكن الاكليل فاسد . فلماذا لم تقل ان الفتاة ابنة عمك ؟

فازداد فهيم بك تحيراً وقال : — يا للخيانة . يا للخيانة . لعبتا عليّ دوراً . ان هيفاء زوجتي واذا لم يكن بد من « تحليلة » فاعرف كيف احصل عليها . اريد الآن ان تذهب زوجتي معي . هلمي يا هيفاء

عند ذلك قرع الباب وذهبت العجوز لتفتحه فقال جورجي : — الى اين يا فهيم ؟

— الى منزلي

— بل لديك مهمة اخرى تمنعك عن الذهاب الى منزلك الليلة فاجل اخذ هيفاء الى اجل غير مسمى

فوقف فهيم كالاخبل لا يفهم قصد جورجي ولكنه ما لبث ان رأى اثنين من الشرطة يدخلان فانهلع فؤاده اذ قال احدهما : — من منكم هو فهيم بك رماح ؟

فقال جورجي — هذا هو الواقف بيننا

فاصطكت ركبتا فهيم وكاد يقع الى الارض وجلاً لو لم يقبض احد الشرطيين على ذراعه وقال : — ماذا تريد مني ؟

— ان ترافقنا الى دائرة البوليس

وكان الشرطي الآخر يضع صفادة في يديه فصاح : — يالله ! اي جناية ارتكبت ؟

— لا ندري . نحن ننفذ امراً بسيطاً وهو القبض عليك وفي دائرة البوليس تعرف كل شيء

فنظر فهيم الى جورجي ورآه يبتسم فقال له : — هل دفع لك غيري اكثر مني يا جورجي حتى خنتني كل هذه الخيانات ؟

— لم اقبض من احد فلساً يا سليمان ولكن الجزاء الحق من نفس العمل . فاذهب مع البوليس الآن فان النائب العمومي ينتظرك

فحرّق فهيم الارم وقال : — لا ادري سر هذه الخيانة . فمن انت يا هذا ؟

— لسوف تعرفني ان لم تكن قد عرفتني بعد

فحملق فيه فهيم وصاح : — ويلاه هل تقمصت روحك في هذا الجسد الشيطاني

— بل بعثت من قبري

وكان الشرطيان قد استاقاه امامهما وهو يزمجر ويهذي ويقول اين التحويل ؟ هاتوا التحويل بثلاثين الف جنيه . يا لصوص يا سرقة يا خونة

ولا بد ان القارىء ادرك ان جورجي والاب امبروسيوس وهيفاء تواطأوا على هذه الحيلة لتمهيد القبض على فهيم او بالاحرى الامير سليمان الخزامي ولاخذ تحويل بثلاثين الف جنيه منه لانها من حقوق الفتاة

الفصل الخمسون

يد من بعيد

وكان يوسف وهيفاء مبهوتين كأنّ على رؤوسهم الطير لا يفهمون سر الحديث الاخير الذي جرى . وبعد هنيهة قال يوسف : — لماذا قبض الشرطيان على هذا الشرير ؟

فقال جورجي : — لانه ارتكب جناية

— اي جناية ارتكب ؟

— جناية قتل جنين في بطن امه

— فانتفض يوسف وقال : — لماذا قتل الجنين وهو لم ير العالم ولم يسيء الى احد بعد ؟

— قتله لكي يخفي أثمه هو وعار الفتاة التي رامها خليلته وما شعرت بسقوطها الا بعد ان اهملها

— يا للفظاعة يا للشر . وكيف عرفت دائرة البوليس بالجناية ؟

— عرفت بها كما عرفت ان الجاني هنا الآن

فحملق يوسف في جورجي وقال : — اراك عارفاً بكل شيء

— نعم بكل شيء قبل حصوله

— فجحظت عينا يوسف وقال : — اخاف ان تكون لك يد في الامر يا جورجي

— نعم كل اليد ولكن من بعيد

— اذاً انت الذي ساقه الى الهاوية

— نعم ولكن من غير ان اقع تحت طائلة عقاب لاني لم اخالف قانوناً

فانتفض يوسف من شدة التأثر وقال : — خسئت يا شرير فانت الجاني لا هو . ان الجريمة واقعة على رأسك

— سنرى على من تحكم المحكمة

— لا يهمني حكم المحكمة بل حكم الضمير . فبأي ضمير دفعت ذلك المسكين الى ارتكاب الجريمة ؟

— بضمير موسى الذي قال « عين بعين وسن بسن »

فانبثق الدمع من عيني يوسف وغطى عينيه بكفه وهو يقول : — لا تدعني ارى الشر ماثلا امامي . رباه . ما هذا العالم الشرير ؟ لماذا لم تخلقني في المريخ لعل عالمه اتقى ضميراً واطهر قلباً ؟ لماذا غدرت بذلك الشقي يا جورجي ؟ ان اثمه على رأسك

— اثمه على رأسه . وما ظلمه الا شر نفسه

وهنا استرسل يوسف بتأثره حتى انه لم يعد يستطيع ان يكفكف دموعه فقال له جورجي : — لماذا تبكي يا جبان ؟

— ابكي هذا العالم المنغمس بالاثام . كلما تيقنت اني في وسط صالح اجد نفسي في بحيرة من الشرور . ويلاه . رباه امحق هذا العالم لكي يمحق الشر معه ثم اخلقه خلقة جديدة صالحة لانه لم يعد صالحاً لتمجيدك

— ليت صلاتك تستجاب يا ابني . ولكن منذ ستة آلاف سنة كان بعض الغرباء عن

طبيعة هذا العالم يصلون هذه الصلاة ولكن الله سبحانه وتعالى لا يستجيب

— لانه رحيم طويل الاناة يضن بخليقته ان تذهب سدى وباتقيائه أن يهلكوا بجريرة الاشرار . ولهذا كان ولا يزال يرسل المعلمين عسى ان يصلحوا . فاين انتم يا مصلحون لا تلبون دعوة الله لاصلاح الجنس البشري ؟

— ليس في العالم الا المراؤون المنافقون يا ابني . فلا تتعب نفسك في ان تغير هذا العالم . واذا شئت أن تعيش فيه يجب ان تكون شريراً مثلهم فتعيش سعيداً متنعماً

فوضع يوسف كفه على عينيه وصاح : — تباً لك . لا تجربني يا شيطان . فما انا من هذا العالم

وكان سكوت عدة دقائق ويوسف مستغرق في تأثره والكاهن يفكر وهيفاء مبهوتة لا تنبس بكلمة واحدة كأن في لسانها عقلة . وبعد ذلك رفع يوسف نظره في جورجي وقال : — واي ذنب جنى ذلك الجنين المسكين حتى يقتل قبل ان يعلم ما هو الاثم ؟

— لم يجن ولم يعاقب بل رُحم لانه أبعد عن هذا العالم الشرير لكيلا يأتي اليه كما أتيت انت

— وامه المسكينة ؟ ماذا يكون حظها بعد هذه الفضيحة ؟

— ان سلمت من خطر الحمى فقد يطهرها عقابها في هذه الدنيا حتى تدخل السماء اخيراً طاهرة

— اذاً المرأة قد تموت ايضاً

— نعم لانها في حالة النزاع فقد تفارق هذا العالم الليلة

فاستشاط يوسف وصاح : — ويحك يا شقي ! الجنين وابواه جميعاً ؟

— وام امه والدكتور صديق الهيزلي ايضاً

فقبض يوسف على شعره بكلتا يديه وجعل يصيح : — الويل لك يا شرير ! الويل لك . لو كنت قاضياً لعلقتك على الخشبة

— اشكر الله انك لست قاضياً

— اي ثأر لك على الخمسة

— اما فهيم فكلنا هنا ذوو ثأر ضده . فهل نسيت انت السجن ؟

— لقد غفرت له من كل قلبي . والله غفر له

— واما الجنين فقد رحمته اذ لم ادعه يعرف هذا العالم الشرير . واما الفتاة فقد اخطأت لنفسها وللهيأة الاجتماعية فدعها تنال عقابها هنا او في الآخرة . واما امها فلانها

شريكة فهيم في آثامه وفي اسقاط تلك الفتاة

— والدكتور صديق الهيزلي ؟

— لانه عابد المال وقد كانت له يد في تقليسك

— اغفر له وليغفر الله له

— لم تبرأ الى الآن من الطعنة التي طعن بها فؤادك . هل نسيت انه خطب ليلى ؟

— لا تذكر ليلى . مسكينة ليلى . ماذا حلّ بها بعد ان أخذ خطيبها صديق من جنبها الى ظلمات السجن ؟ . لقد ضربت يا شقي ستة لا خمسة

— عجيب هذا الاشفاق . كنت اظن حبك تحول الى قلى ؟

— لا ادري ما الذي يدعوك الى هذا الظن ؟

— لاني اعلم ان الحب كحلاوة العنب اذا خامرها الفساد تحولت الى خل

— قل ذلك في الحب المركب من الشهوات النفسانية واما الحب الروحاني فعنصر بسيط لا يقبل حلاً

— كل امر من امورك غريب يا بني . اذاً انت مشفق على ليلى ؟

— نعم . مسكينة ليلى . ما ذنبها حتى يطعن قلبها هذه الطعنة ؟

— انك غبي . لقد نجت ليلى من شرور صديق

الفصل الحادي والخمسون

زوبعة عواطف

وبعد هنيهة قال يوسف : — سمعت ذلك الشقي فهيم يذكر تحويلاً فما قصة هذا التحويل ؟

— هو تحويل بقيمة ثلاثين الف جنيه حصلناها مهراً لهيفاء

— لهيفاء ؟ يستحيل ان تمسها هيفاء . لاني اكفل لهيفاء معاشها فان لم يكفها تعي اطعمها لحمي واسقيها ودمي

فضحك جورجي وقال : — واسفاه ان مبادئك مضحية بتعبك ومعارفك لمصالح غيرك . واذا اتكلت هيفاء عليك ماتت جوعاً

— خير لها ان تموت فقيرة من ان تعيش منعمة من مال حرام محصل بحيلة او مكيدة غير شريفة

— نعم انه محصل بحيلة . ولكنه بعض ما لها . فهو حلال لها وحرام على ذلك الزنيم

— لا افهم هذا التعليل المقلوب

— بالطبع لا تفهم ذلك لانك لا تعلم ان هيفاء ابنة عمه

فحملق يوسف وقال : — يا لله سمعت شيئاً بهذا المعنى اذ كنتما منفردين في الغرفة فهل هو حقيقة ؟

— هو الحقيقة بعينها فان هيفاء ابنة عم فهيم رماح الذي هو الامير سليمان الخزامي

فارتجف يوسف قائلاً : — أحقيقة ان ذلك الرجيم كان يتنكر باسم فهيم رماح ! كيف تثبت ذلك

— ما اسهل اثبات ما اعرفه حق المعرفة فهل تريد ان اقص عليك تاريخ حياته ؟

فزمجر يوسف كالنمر وهو يصر اسنانه ويقول متردداً : — لا لا . ليتني تحققت ذلك قبل ان يخرج من هنا فكنت انشبت اظفاري في عنقه . آه . وا غضباه آه . يا اللعنة يا نار الجحيم الحامية آه . وا غيظاه . وا حر قلباه

وكان الكاهن وهيفاء يقشعرّان من زمجرة يوسف ويرتاعان من تلهب مقلتيه . اما جورجي فكان يبسم مطمئناً فقال : — اراك تحنق على ذلك الطاغية بعد ان كنت ترثي له . فما سر هذا الانقلاب ؟

فعاد يوسف يزمجر كالمجنون وقال : — ما زلت ارثي له ولكني احنق على طينته . يا للعنة على تلك الطينة القذرة التي لا تطهرها مياه السماء ولا نيران الجحيم ؟

— ما ذنب تلك الطينة حتى تنال منك هذه اللعنة التي لا تجسر ان تسكبها الا الآلهة ؟

— ان تلك الطينة لهي غريمي الوحيد في هذه الدنيا . تلك الطينة مزقت كياني . هدمت اركاني . قوضت دعائمي . ضعضعت مقامي . اضاعت سعادتي . نغصت حياتي كلها

— عجيب يا يوسف ان ظواهر شيبتك تدل على انك غني بمعارفك قوي بمبادئك والسعادة بنت الغنى والقوة . فان كانت طينة سليمان الخزامي قد اضاعت سعادتك ففي وسعك ان تستردها والا فما انت غني ولا قوي

— اني غني وقوي الى حد ان لا استطيع ايجاد المعدوم او رد الماضي الى الحاضر والمستقبل

— ليتنا نعلم هذا الذي قد مضى فكنا نعلم كيف نجعله حاضراً ومستقبلاً

— انك تدعي ما لا تستطيعه الالهة

— لو كنت لا استطيع ما كنت ادعي

فحملق فيه يوسف وقال : — يا للغرور أتستطيع ان تجعل الماضي حاضراً ومستقبلاً

— نعم . واستطيع ايجاد المعدوم ايضاً

— انك تدعي ما لا تستطيعه قوة القوى نفسها فهل تقصد ان تذكي نار غيظي بهذا المزاح ؟

— اقول لك اني استطيع ان افعل ما اقول فما انا مازح

— اذاً انت مجنون لانه لا يدعي هذه الدعوى الا المجنون

— بل انا عاقل وعند الامتحان يكرم المرء او يهان

— تكاد تجنني يا هذا . هل تستطيع ان تحيي الميت وهو رميم ؟

— استطيع

— اذا لم تكن مجنوناً فانت إله

— ما انا هذا ولا ذاك ولكن لي قوة لا تعرفها انت فاي ميت تريد ان اريكه حيًّا فيخاطبك وتخاطبه

فقال يوسف هازئاً : — اريد ان تريني ابي

— حسن . اريكه الآن فهلم معي الى الغرفة التالية والاب امبروسيوس وهيفاء ينتظراننا هنا الى ان تعود مع ابيك

وكان الاب امبروسيوس وهيفاء كالاخبلين يسمعان ولا ينطقان ولكن الاب امبروسيوس قال وهما يخرجان : — لا شك ان هذا الرجل ساحر من سحرة الهنود

فاخذ جورجي يوسف بيده الى الغرفة الاخرى وجلسا فقال جورجي : — من كان ابوك ؟

— كان ابي الرجل الذي عوقب في حياته لحسن نيته وطهارة قلبه . وظلم بقسوة لرقة عواطفه . وتشتت عائلته بجريرة حبه لها . وقتل في الدفاع عن وطن غير وطنه فهل تعرف رجلاً هذه حاله ؟

— اعرفه

— لا يبعد انك تعرفه وانت يوناني الاصل لانه قضى نحبه في حدود اليونان فمن هو الذي تعرفه في هذه الاحوال ؟

— هو الامير خليل الخزامي . اعرفه كما اعرف نفسي

فاقشعرَّ يوسف وانتصب شعر رأسه وقال : — ابي خليل الخزامي . هل كنت تعرفه حين قتل ؟ هل ترك كلمة لابنه ؟ هل ترك وصيته ؟

— عرفته في كل دقيقة من حياته . هل تتذكر سحنته ؟

— لن انساها لانها ماثلة في مخيلتي على الدوام

فتناول جورجي صورة فوتوغرافية من جيبه ودفعها الى يوسف قائلاً : — هل هذه صورة ابيك ؟

فما وقع نظر يوسف عليها حتى انتفض وهطل الدمع من عينيه وصاح : — هذه صورة ابي . هذه صورته كما فارقني

وجعل يوسف يقبل الصورة ويقول مخاطباً لها : — لقد جوزيت يا ابتاه جزاء سنمار . ولكن الطبيعة لا تفهم حتى تعاقب ظالميك . واسفاه على شبابك . فماذا ترك لي ابي غير هذه الصورة ؟

— هذه الصورة ايضاً

وناوله جورجي صورة اخرى فلما رآها يوسف صاح : — اماه اماه . لقد قاسمت ابي مصائبه ولا ريب انك تقاسمينه سعادته الابدية

وكان يوسف يقبل الصورة الاخرى ويمسح دموعه عنها هنيهة الى ان قال : — اما زودك ابي بكلمة تقولها لابنه

— نعم . قال انه يود ان يراك

— في العالم الثاني ؟ . . .

— بل في هذا العالم

— في هذا العالم . كيف يمكن ذلك ؟

— اما قلت لك اني اريكه

— انك تجنني يا هذا . كيف تريني ابي وقد فنيت عظامه

— لم تفنَ عظامه ولا في جسمه بل لم يزل حيًّا يرزق

فانتفض يوسف جزعاً وصاح : — ان كنت لا تمزح فقل لي اين ارى ابي ؟

— هنا

— متى ؟

— الآن في هذه اللحظة

— اين ؟ اين هو ؟

— اما قلت لك انه هنا . انت تعرفه شاباً فهل تظن انك تراه شاباً بعد ان فارقته عهداً طويلاً . ألا ترى ان الشيب كلل رأسه ؟

فحملق يوسف في جورجي وهو يرتجف من شدة التأثر ورأى الدموع تتدفق من عينيه فارتاع لاول وهلة وبقي مبهوتاً هنيهة ثم فتح فمه ولكنه لم يستطع كلاماً وما شعر الا بقوة تجتذبه نحو جورجي حتى طرح نفسه على حضنه وهو يصرخ : — ابتاه ابتاه . حتى مَ تتمالك عني ؟

وفي تلك اللحظة كان الاب والابن متعانقين ودموعهما تمتزج معاً

في تلك الدقيقة كان اله الحنو يرفرف فوق ذينك الاقنومين وهو يسكب في قلبيهما ماء حبّ قضت الملائكة عشرين عاماً وهي تستقطره

ولم ينفك ذلك العناق الا والباب ينفتح والاب امبروسيوس يدخل منه وهو ممسك بيد هيفاء ويقول : — ليكن اسم الله مباركا ومقدساً وممجداً

ولما اقتربا منهما قال الاب امبروسيوس : — عانقي اباك يا هيفاء . هذا هو ابوك كان ميتاً فعاش وكان ضالا فوجد

وكان الاب امبروسيوس قبيل ذلك منصتاً وراء الباب يسمع الحديث الذي جرى بين الاب والابن

فتناول جورجي يدها وجذبها اليه وعانقها طويلاً وهو لا يستطيع كلاماً لان دمعه كان افصح بياناً . اما هيفاء فكانت مبهوتة كانها لا تفهم كل ذلك

ولما انتهى جورجي من عناقها اجلسها الى جانبه وقال : — عانقي اخاك يوسف يا ابنتي يا هيفاء . عانق اختك يا يوسف يا ابني

فارتمى الاخوان كل منهما على الآخر وتعانقا . وما زالت هيفاء مبهوتة . وحدث سكوت عدة دقائق بتره يوسف بقوله : — اين كانت هذه الاخت يا ابتاه . لا عهد لي بان لي اختاً

فقال جورجي او بالاحرى الامير خليل الخزامي : — ان الذين لم يرغبوا ان يبقى لك اب ولا ام يا ابني لم يرغبوا ان تعرف لك اختاً . الاب امبروسيوس يقص لكما حكاية نسبكما يا ولدي اذا كان عندكما شك به

وبعد ان هدأت ثورة العواطف التي لم تشهد ملائكة السماء ثورة مثلها روى كل اقنوم من ذلك الثالوث المتجمع بعد تشتته حكاية حاله

وظلوا يتحادثون ويتعانقون حتى طلع الصباح وكانت في ذلك المنزل ليلة سرور حسدته عليها السماء

الفصل الثاني والخمسون

ابنة الزانية

في عصر ذلك النهار جاء جورجي الى الفندق الذي كان يقطن فيه فوجد في غرفته رسالة بلا طابع بريد كأنها جاءت مع رسول ففضها وقرأ هكذا :

ان كاتبة هذه السطور تود ان تراك الساعة الخامسة في القهوة (. . . .) وترجو ان لا تخيب قصدها . تعرفها حالما تراها اذ لا ترى غيرها هناك

فتحير جورجي اذ لم يرَ توقيعاً على الرسالة . ولكنه لم يتردد بل ذهب في الميعاد واستغرب اذ رأى ليلى هناك فصافحها وجلس معها حيث جلست مرة مع يوسف كما يذكر القارئ وقال باسماً : — كان يوسف يود ان ينال هذا الشرف يا مدموازال

فانتفضت ليلى واكفهرّت وقالت: — هل يريد يوسف ان يضاعف نقمته . كنت اظنه ارق قلباً

فاستغرب جورجي هذا الجواب وقال : — ما ذنب يوسف حتى تتهميه بحب الانتقام يا سيدتي ؟

— لم يشأ ان يتمهل يوماً في الشماتة فهل يستحلّ ان يوالي السهام على فتاة في ساعة واحدة

— لا افهم ماذا تقولين يا سيدتي . هل قابلك يوسف اليوم ؟

— رام ان يقابلني فلم استطع ان استقبله لاني واهية القوى على اني سأستهدف لنقمته ما شاء

فضحك جورجي قائلاً : — لم اعلم ان يوسف قصد اليك يا سيدتي ولا علمت ما قصده ولكني اؤكد انك ظلمته بسوء ظنك فيه . .

— ان زيارته في مثل هذه الحال لا تفسر الا بقصد الانتقام

— لا ادري ما هي هذه الحال التي تشيرين اليها

فانسجم الدمع من عيني ليلى وهي تقول : — تتجاهل وانت « زنبلك » المسألة كانها ؟

— اني « زنبلك » مسائل عديدة يا سيدتي فلا ادري ايها تعنين ؟

— اعني آخرة المسائل التي سقت فيها ابن خالي الدكتور صديق الهيزلي الى السجن

— ما انا سقته يا سيدتي بل ساق نفسه وغيره . من قال لك اني سقته ؟

— تلك المرأة الساقطة التي لعبت بعقلها وبعقل ابنتها التي استراحت من شقاء هذا

العالم . تلك الفاجرة قالت كل شيء

— تقولين ان ابنتها استراحت من شقاء العالم ؟

— نعم توفيت اليوم وبوفاتها عظم الخطب

— مسكينة مسكينة دعد ! رحمة الله عليها . اني بريء من كل ما تنسبينه اليّ يا سيدتي

— نعم انت بريء في نظر القضاء العالمي لانك اشتغلت من بعيد . ولكنك مجرم في نظر القضاء الالهي

— اعلم كيف أبرىء نفسي امام القضاء الالهي يا سيدتي ولكن اذا كنت تريدين ان تنوبي عن الله في القضاء عليّ فما كميني اذا شئت

— معاذ الله ان اتجاسر هذه الجسارة

— اذاً ماذا تطلبين مني ؟

— اطلب منك امراً واحداً وهو ان تشهد ان صديقاً لم يعرف منزل تلك الساقطة قبل ان استدعته لمعالجة ابنتها

— لا تعبأ المحكمة بهذه الشهادة يا سيدتي فهل من شاهد يشهد ان لصديق يداً في المسألة وانا امنعه من الشهادة ؟

— فهيم بك رماح يشهد

— شهادته غير مقبولة لانه متهم اول فلا تخافي . هل يستطيع احد آخر ان يشهد انه رأى الدكتور صديقاً يسلم فهيماً دواء ؟

— لا ادري . ولكن لا اظن

— اذاً لا تخافي الا اذا اعترف صديق

— لا اعتقد ان صديقاً جاهل حتى يسلم نفسه

— اذاً اطمئني يا سيدتي ولا تخافي

— ويلاه كيف استطيع الاطمئنان وصديق بين يدي القضاء الان . كيف يمكن خلاصه ؟

— لا تجزعي يا سيدتي . يخرج صديق من سجنه بريئاً قبل ان يحين ميعاد قرانكما

فهزت ليلى رأسها وقالت : — لا يهمني قران

— وانما يهمك ان ينجو خطيبك . وبالطبع متى نجا تيسر القران

— قلت لك لا يهمني قران بل لا يهمني خطيب . وانما يهمني ان ينجو الدكتور

صديق الهيزلي من هذه الورطة فهل تصنع معي معروفاً بان تفعل شيئاً لخلاصه

— ان امرك عجيب يا سيدتي . اذا كان لا يهمك قران ولا خطيب فلماذا هذا القلق وذاك الجزع ؟ لا ارى داعياً لانكارك الرغبة في تخليص خطيبك . اني مستعد لكل خدمة لك اذا كانت في وسعي

— تستطيع ان تكون شاهداً من جملة الشهود وتنفي كل شهادة توجه ضد صديق . وبذلك تخدمني خدمة عظيمة لا اقدر ان اكافئك عليها الان . ولكني بعد خلاصه استطيع ان اكافئك بما تريد . هذه خمسون جنيهاً الان فاقبلها مني ...

— دعي هذه الجنيهات معك يا سيدتي فلا اريد جزاء لا اولا ولا آخراً . وانا اعدك اني افعل ما استطيعه

فاسترسلت ليلى في البكاء وقالت : — تعني انك لا تريد ان تصنع معي هذا المعروف بل تريد ان تعاون يوسف براق على الانتقام مني

— انك سيئة الظن جداً بي وبيوسف . لماذا تظنين اننا نبتغي الانتقام منك ؟

— لاني قبلت صديقاً خطبي وانا اعلم انني اذنبت ذنباً عظيما ليوسف لا يغتفر وسأكفر عن ذنبي هذا . وسيرى يوسف اني كفرت . فبربك يا مسيو جورجي . اصنع معي هذا المعروف وانا اعدك ان صديقاً لن يكون زوجي وان كان يوسف قد ابغضني واحتقرني . سأنتقم ليوسف من نفسي نقمة لا ينتظرها

فضحك جورجي وقال : — يلوح لي انك لم تفهمي يوسف تمام الفهم . على اني استغرب امراً واحداً منك وهو لماذا تهتمين هذا الاهتمام بخصوص صديق اذا كنت قد عدلت عن الزواج منه ؟ ولماذا هذا العدول اذا كان الرجل يخرج بريئاً طاهر الذيل ؟

— اذا خرج بريئاً فلانك تساعدني في خلاصه . بيد انه يبقى اثيما في نظري ونظر الذين يظلون مشتبهين ببراءته . وانا اعدّ نفسي اطهر من ان انضم الى زوج فاسد القلب ميت الضمير . اني اكره صديقاً ولا اهتم بخلاصه لاجل نفسه بل لاجل نفسي

ففكر جورجي هنيهة وقال : — لاجل نفسك يا مولاتي افعل كل شيء حتى ما لا استطيعه . ولكن على شرط ان تقولي لي سر هذه المفارقة وهي سعيك الى خلاص صديق مع كرهك له

فوجمت ليلى وصمتت هنيهة ثم قالت : — الا تريد ان تستبدل هذا الشرط ؟

— اذا لم تكن لك الثقة التامة بي يا مدموازل فلا فائدة لك من ثقتك بوعدي . انت لا تعرفيني فانا اصف لك نفسي . اني رجل شرير جداً وصالح جداً . اني شخصان :

رجيم من اهل الجحيم وملاك من اهل النعيم

— والآن أي الرجلين انت ؟

— الثاني

— كيف اتحقق ذلك ؟

— ما دام يوسف يقبلني قبلة الابن للاب فتأكدي ان شخصي الاول معدوم

— وهل عرف يوسف بكل ما فعلتَ ؟

— بعد ان انجزته

— ماذا قال ؟

— نقم عليَّ واتابني عن كل اثم فاصبحت الرجل الصالح الذي تستطيعين ان تثقي به تمام الثقة . فقولي لي السر الذي بينك وبين صديق وانا اعدك بان انيلك كل متمنًّى

فترددت ليلى في الجواب وقالت : — انك تغريني على ان اقول سرًّا لا يعلمه احد غيري . ولا ارى لك مصلحة أو فائدة من قول هذا السر . فاعذرني

— لا اتوخى مصلحة لنفسي بل لك . اذا اطلعت على سرك اكون اقدر مني الان على خدمتك . فقولي بي يا ليلى اذا كنت تحبين يوسف لان منزلة يوسف عندي اعز من منزلة نفسي

وهنا ترقرق الدمع في عيني جورجي وليلى تدهش اذ تراه يكفكفه بمنديله وهي تقول في نفسها : — يستحيل ان تكون هذه الدموع دموع مكر

ثم قالت له : — لم يبق عندي شك باخلاصك ولكنني لا ارى ان سري يهمك

— ما دام يهمك انت اود ان اعلمه لاني مجرد نفسي لخدمتك . فقولي

فسكتت ليلى هنيهة ثم قالت مترددة : — مع صديق ورق يهمني جدًّا جدًّا . فاود ان اسعى بخلاص صديق عسى ان انال منه ذلك الورق مكافأة على سعي

— وتخافين من افتضاح هذا الورق

— لا لا . لقد شذَّ ظنك . بل اود ان يعلن هذا الورق

— أليس الورق رسائل منك الى صديق ؟

— لا لا . لم اكتب في حياتي شيئاً اخجل منه

— اذاً افضحي واخبريني ما هو هذا الورق لعلي استطيع ان استخلصه بنفسي

— تستدرجني لقص حكاية لا اود ان تعرف قبل اوانها

— لا بأس لا يعرف بها احد سواي

— ولا يوسف

— ولا يوسف . ثقي انه لن يعرفها الاّ منك

فتبرمت ليلى وقالت : — اني اخجل ان اقول انه لم يكن لي ابٌ شرعي وان امي كانت .....

— زانية

فاكفهرت ليلى اي اكفهرار وقالت مفرورقة العينين : نعم اني ابنة غير شرعية . فانت الان الثالث الذي يعرف ذلك

فضحك جورجي وقال : — بل انا الخامس الذي عرف ذلك يا سيدتي

فانتفضت ليلى وقالت : — ويلاه . من عرف ذلك سواك ؟

— يوسف براق و . . .

— يوسف عرف ذلك ايضاً ؟

— نعم اخبره اياه الواشي بينه وبينك

— هل عرف يوسف من هو ابي غير الشرعي

— لا ولا انا عرفته ولا الواشي عرفه على ما اظن

— من كان ذلك الواشي ؟

— فهد المهند صديق الدكتور خطيبك

فانتفضت ليلى وقالت : — ويلاه من خبث صديق ! ويلاه من اثم هذا الشرير . ويلاه من عابد المال ! هل صدّق يوسف الوشاية ؟

— صدّقها

— ماذا قال ؟

— قال ان جسد ليلى ابن زنى . ولكن روحها بنت الطهارة . وهو كما تعلمين روحاني ويحسب الجسد كربوناً واوكسيجيناً وهيدروجيناً ونتيروجيناً ولا فرق عنده بين جسد الكلب وجسد الانسان

فبهتت ليلى وقالت بعد هنيهة : — متى عرف يوسف ذلك ؟

— قبل ان خطبك صديق

— وماذا قال بعد ان خطبت صديقاً ؟

— قال ان كيانه زال بانفصال احد عنصريه عنه . ولم يعد يحسب نفسه موجوداً بغير الجسد

فامتقع وجه ليلى ووضعت رأسها في كفيها وبكت بكاء مراً . وما زالت تشرق بدموعها حتى تناول جورجي يدها وقال : — لماذا تنتحبين يا ليلى ؟

— لاني انا فقدت كياني ايضاً . كنت مرتفعة باتحاد عنصري مع عنصر يوسف فلما انفصل عنصري عن عنصره شعرت اني سقطت . اني يا سيدي ادناً عنصراً من عنصر يوسف . اني ابنة زانية ويوسف ابن طاهرة . اني ترابية ويوسف روحاني . فما انا مستحقة ان اكون متحدة مع يوسف . فعسى ان روح يوسف وهي ترفرف في هذا العالم تصادف الروح التي تليق بها

عند ذلك ذعرت ليلى اذ شعرت ان باب الغرفة التي يختليان فيها قد انفتح

الفصل الثالث والخمسون

في حضرة اله الحب

بغتت ليلى اذ رأت يوسف داخلاً وهو يقول باسما : — ما زالت روح يوسف ترفرف يا ليلى ولكنها لم تقع الا هنا

فانتفضت ليلى ووهنت قوتها حتى كادت تقع عن كرسيها لو لم يسرع يوسف ويمسك بيدها ويسندها الى كرسيها . وعند ذلك لم يتمالك ان وضع يدها العاجية على ثغره وطبع فيها قبلة لا تمحى . ثم جلس الى جانبها وهي مستغرقة في تأثرها شارقة بدموعها وبعد هنيهة قال لها : — اين كبرياؤك يا ليلى انها تلذ لي ؟

— الكبرياء للروح وانا ترابية فلا تتسفل اليّ يا يوسف

— وهل يتأثر التراب يا ليلى ؟ فلماذا تحاولين ان تبعدي روحك عني ؟

— ان روحي اثيمة فلا تتدنس بها

— قولي هذا لمن يحسب الحب اثماً . اما انا فاقدس كل حب ولو كان فيه ألم لي . جئت الى منزلك اليوم لكي افتقدك . فلماذا اسأت الظن بي ورفضت مقابلتي ؟

— اي حب تعني ؟

— حبك لصديق خطيبك

فارتجفت ليلى وقالت : — قلت لك اني اثيمة يا يوسف وانت تحاول ان تبررني

— اني اسمى مبدأ من ان احسب تحول حبك عني الى صديق اثماً

— اني تعسة يا يوسف لانك لم تفهمني

— افصحي فافهم

— لم احب صديقاً ولكني احببت الكنز الذي لي وهو مدفون معه . مئة الف جنيه غرتني يا يوسف فحملتني على ان انكر حبك وانكر ايضاً بغضي لصديق . فهل صدقت اني ترابية . ولم يبقَ من روحانيتي الا ما يشعرني باثمي هذا ؟

— ما هذا اثم يا ليلى لان الهيولى هي التي احبت المئة الف جنيه . فاذا كانت الروح لم تزل على عهدها فحسبي ان اعلم ان روحي وروحك اليفان ولو كنتُ في الثرى وانت في الثريا

فنظرت فيه ليلى نظرةً لا يقدر ان يفهمها احد غيره وقالت : — اذاً ما زلت تحبني يا يوسف ؟

— اذا بطلت ان احبك يزول كياني بكليته . فما انا سعيد الا بهذا الحب . ان زواجكِ من صديق يفصل جسدك عني فصلاً ابدياً . قد لا اراك بعد الان . قد لا اسمع بذكرك . قد اكون وراء الاوقيانوس . قد اكون في الرمس . واما روحي فتبقى تناجي روحك

— ان هذا الحب قد طهَّر روحي من اثمها يا يوسف بل طهَّر جسدي ايضاً . فما قيمة المئة الف جنيه عندي باكثر من قيمة دخان هذه السيكارة التي في يد المسيو جورجي . فهل قبلت توبتي يا يوسف ؟

وارتمت عليه فتلقاها يوسف بين ذراعيه وقبل ريشة قبعتها وهو لا ينبس ببنت شفة وجورجي ينظر متأثراً من هذا المنظر وهو لا يستطيع أن يتكلم

ومن يجسر ان يتكلم في حضرة إله الحب !

الفصل الرابع والخمسون

اول قبلة

بعد سكوت مدة طويلة احتراماً لاله الحب مسح جورجي ذوب عواطفه المتدفقة من مقلتيه وقال بصوت متهدج : — ما الذي ساقك الى هنا يا يوسف ؟

— ذهبت الى غرفتك فوجدت رسالة على مكتبك علمت منها انك جئت الى هنا فاسرعت عسى ان اري ليلى . نصح فألي

فالتفت جورجي الى ليلى وقال : — نعود الى المئة الف جنيه يا ليلى كيف . . .

فقاطعته ليلى قائلة : — لقد تفلت على المئة الف جنيه لاني تطهرت من اقذار ترابيتي واصبحت روحانية . واذا بقيت روحانيتي تتشبث بالماديات فلا تليق للاتحاد بروحانية يوسف

فضحك جورجي وقال : — اما انا فلا افهم الروحانيات كثيراً . وما دمت في هذا العالم المادي اظل اهتم بالماديات فاود ان اعلم حكاية المئة الف جنيه الدفينة مع صديق الهيزلي لكي استخلصها منه اذا استطعت . ومن الحمق والجنون ان تتركها بدعوى انك روحانية . لان المال لا يحط من مقام الروحانية

— اني غنية بسعادتي النفسانية عن كل مال . والمئة الف لا تزيدني سعادة

— مهما كنتِ غنيةً بسعادتكِ يا ليلى فهذا المبلغ الكبير اذا كان حلالاً لك فهو لازم لصيانة سعادتك من صروف هذه الحياة الدنيا . فلا تدعي مبادئ يوسف تعديك الى حد ان تتركي مئة الف جنيه لشخص حيواني الطبع يتمتع بها

فنظرت ليلى الى يوسف كانها تستفتيه . فهزّ يوسف كتفيه كانّ الامر لا يعنيه . فقال جورجي : — اعوذ بالله من هذه المبادئ الخيالية . اذا كنتما تتفقان على ترك هذا المبلغ لمن ليس له فلا ريب انكما احمقان . فقولي لي يا ليلى ما قصة المئة الف ؟

— هي ارث لي من ابي غير الشرعي

— وكيف اتصلت بصديق الهيزلي ؟

— صديق الهيزلي ابن خالي وقد وجد الوصية بالارث الذي لي ضمن وصية ابيه له

— وكيف اتصلت الوصية بخالك ولم تكن مع امك ؟

وكانت ليلى تتكلم متلعثمة مزمهرّة الوجه من الخجل فقالت : — لما زلّت أمي الشقية زلتها سعى خالي لدى ابي غير الشرعي واستكتبه تلك الوصية لوليد الفتاة التي اغواها واشترط ذلك في الوصية ان تبقى الوصية مكتومة الى ان يموت والا كانت باطلة فكتمها خالي في وصيته لابنه . ولما مات خالي اطلع عليها صديق ابنه وحفظها معه ولم يعلمها لاحد غيري واشترط ان لا يسلمني اياها الا وانا زوجته

فقال يوسف : — اذاً صديق كان يطمع بالارث لا بكِ ؟

— نعم ولهذا كنت ابغضه وانما طاوعته بالخطبة عسى ان استحصل على الوصية قبل الزواج . لا تلمني يا يوسف اني اثمت بهذا الاحتيال لاني اتذرع به لتحصيل حق لي لا لسلب حق لغيري

فقال جورجي : — فعلت حسناً ياليلى . فهل لك ان تقولي لي من كان ابوك غير الشرعي ؟

— لا استحي ان اعترف به لانه في نظر اهل هذا العالم رجل كبير

— من هو ؟

— هو الامير ابراهيم الخزامي

فاختلج كل من جورجي ويوسف وسطت عليهما بهتة عقلت لسانيهما وكانا ينظران كل منهما الى الآخر كأنّ اعينهما تخاطب . فاستغربت ليلى بهتتهما وبعد هنيهة قالت : — استغرب دهشتكما فهل في الامر سر اجهله وتعلمانه ؟

فقال جورجي : — نعم . هل كانت امك تدعى سارة ؟

— نعم هي سارة اخت حبيب الهيزلي فهل تعرفها

— نعم اعرف فتاة بهذا الاسم معرفة سطحية كانت تربي ابن الامير ابراهيم الخزامي ولكني لم اعرف الى من تنتسب

— اذاً تعرف الامير ابراهيم

— نعم . ولكن . . .

— ماذا ؟

— اخاف انه لم يبق لك من المئة الف جنيه شيء يا ليلى

— لماذا ؟

— لان جدك غير الشرعي اوصى بثروته لاثنين

— من هما ؟

— هما ابنا ابنه خليل الخزامي . وهذه هي الوصية

ودفع جورجي الوصية التي كانت مع الكاهن امبروسيوس الى ليلى فقرأتها مبهوتة وبعد ان انتهت منها قالت : — وهل وجد الكاهن هذين الاخ والاخت ؟

— نعم وجدهما هنا في . .

— اين هما ؟

— احدهما هنا معنا

فانتفضت ليلى ونظرت في يوسف مبهوتة كأنها لا تستطيع كلاماً فقال يوسف : — يسرني جداً يا ليلى ان اكون ابن عمك سلماً ودماً

فقالت ليلى : — وهل كنت تعرف انك الامير يوسف الخزامي ؟

— لقد انكرت الامارة يا ليلى لكيلا تحط روحي بالماديات العالمية المتسفلة

— أكنت وانت امير تحب ابنة زنى تتشبث بالماديات لتنكث العهد الروحاني ؟

— انك ابنة عمي يا ليلى في الجسد وكلي بالروح

وما تمالك يوسف ان طوّقها بذراعه وقبلها اول قبلة كانت اطهر القبلات التي اذنت السماء بها لاهل الارض وقال لها : — قبلي عمك خليل يا ليلى . قبليه

فاستولت على ليلى دهشة كادت تذهب بلبها وكانت عينا جورجي مغرورقتين فلم يتمالك ان طوق ليلى بذراعيه قائلاً : — لا تضني على عملك بقبلة يطهرك بها من رجس ابيك

وهنا ارتمت ليلى على جورجي وعانقته فقبل خدها وقبلته وهما يمزجان الدمع بالدمع وبقي الثلاثة يتلاثمون بضع دقائق ودم القرابة فائر فيهم متدفقاً كأنه يريد ان يتمازج تمازج العواطف الثائرة فيهم . ثم جعلوا يروون تفاصيل الحوادث القديمة التي شتتت الشمل ثم الحوادث الاخرى التي جمعته . وما ارفض ذلك الاجتماع النادر المثال حتى خيم الغسق . فودعتهما ليلى على امل اللقاء القريب لتقرير الحياة المستقبلة

الفصل الخامس والخمسون

تتمة التاريخ

لم تبق حاجة في نفس القارىء سوى ان يعلم ماذا انتهت اليه احوال اشخاص هذا التاريخ . اما فهيم رماح الذي اكتشف القارىء اخيراً انه هو سليمان الخزامي ابن الامير ابراهيم الخزامي فقد حوكم بتهمة تجريعه الدواء للفتاة دعد التي اغواها حتى اجهضت واسقطت جنينها وماتت على اثر الاجهاض وحكم عليه بالسجن ١٥ عاماً . وحكم على امها ماري الجهوري بالسجن ٧ سنين لانها وافقت فهيم على تجريع ابنتها الدواء . واما الدكتور صديق الهيزلي فلما لم تجد النيابة شهوداً تثبت عليه التهمة حفظت اوراق قضيته . واما جميل مرمور وندية الصارم فلما علما بوقوع فهيم في المصيبة هجرا القاهرة الى بلدة اخرى تخليلين بعد ان كنزا من فضلات ثروة فهيم ما كنزا

وحدث في تلك الاثناء ان السلطان اعلن الدستور في تركيا فاعلن جورجي ويوسف انفسهما الاول باسمه الامير خليل الخزامي والآخر باسمه الامير يوسف الخزامي . وبرحا الى دمشق لاستخلاص ما بقي من ثروة الخزامي بعد ان بدّد سليمان وفضل ابنا ابراهيم منها ما بدّدا وبعد ان حوّلا منها ما حوّلا الى مصر باسم فهيم رماح كما علم القارىء

وبعد ان وضع الامير خليل يده على الثروة التي اوصى بها ابوه لحفيديه عاد الى مصر حيث احتفل بزفاف ليلى الى يوسف

اما هيفاء فكانت بعد حين نصيباً صالحاً لنجيب المراني الذي ربيت معه ليلى كاخته

وهكذا شاءت الاقدار ان تجمع شمل جانب من اسرة الخزامي بعد ان تشتت وان تشتت شمل الجانب الآخر بعد ان كان متجمعاً ومتعاوناً على الكيد والفجور